محمد صالح ضرار

تاريخ
سواكن والبحر الأحمر

الدار السودانية للكتب



بسم الله الرحمن الرحيم

محمد صالح ضرار



الدار السودانية للكتب
الخرطوم ص.ب ٢٤٧٣

الطبعة الأولى
١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد صالح ضرار

١٨٩٢ - ١٩٧٢

اهتم محمد صالح ضرار بتأريخ كل ما اتصل بإقليم البجة من قبائل وأحداث وتراث . وكرس وقتاً كبيراً في تدوين كل ما استطاع أن يلم به من تاريخ هذا الإقليم . وكما يبدو من سطور مقدمته . فإن النفثة الأولى التي جعلته يكتب تاريخ البجة . هي الكلمات الحماسية التي ألقاها الأستاذ الشيخ ماضي أبو العزائم . على التلميذ الصغير محمد صالح ضرار . وهو في مدرسة سواكن . وكان أبو العزائم قد تحدث للتلاميذ حديثاً ثورياً عن أمير الأمراء عثمان أبو بكر دقنه . وجذبت شخصية الأمير المؤرخ محمد صالح ضرار وحملته على دراسة أفعال الأمير وتاريخ قيادته كما حملته على دراسة إقليم البجة .

والكاتب هو ابن الشيخ ضرار علي عمدة قبيلة العجيلات والافلندة . واسمه مركب من اسمين كما جرت عادة كثير من السودانيين في ذلك . ولكنه كان في بعض الفترات يدعى باسم صالح ضرار . ومن ثم فإن أبناءه كتبت أسماؤهم بدون ظهور اسم محمد فيها . ولكن بعد شبابه أصبح اسم محمد لا يفارق الاسم الثاني وعرف بمحمد صالح ضرار .

كتب مؤرخنا العديد من المؤلفات . فهو بالإضافة إلى كتاب « سواكن » الذي بين أيدينا . كتب « حياة تاجوج والمحلق » وقد طبع عدة مرات . وذكر في سنة ١٩٦١ بأن مؤلفاته المعدة للطبع حتى ذلك التاريخ بالإضافة إلى هاذين الكتابين ما يأتي :

٣ - تاريخ أرتريا والصومال باعتبار هاذين القطرين أجزاء من السودان في القرن الماضي .
٤ - تاريخ إقليم البجة .
٥ - تاريخ قبائل الحلنقة والهدندوة والملهيتكناب والسيقولاب والرشايدة .
٦ - تاريخ قبائل الحباب والحماسين بالسودان وأرتريا .
٧ - تاريخ قبائل بني عامر بالسودان وأرتريا .
٨ - تاريخ قبائل الإمارأر والبشاريين .

وبالإضافة إلى ذلك فقد دوّن حوادث المهدية في كسلا وكتب صفحات عديدة عن الأمير عثمان أبو بكر دقنه وغير ذلك من المقالات والمحاضرات . وربما كان من المفيد أن أنقل هنا بعض ما كتبه عن نفسه بخط يده في بعض أوراقه :

١ - الاسم : محمد صالح بن ضرار بن علي .
٢ - القبيلة : ملهيتكناب فخذ العجيلاب البكرية .
٣ - القبيلة (العجيلاب) تسكن منطقة عقيتاي جنوب توكر على سواحل البحر الأحمر .
٤ - ولدت بعقيتاي في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣١٠ هـ .
٥ - درست القرآن بالجامع الشافعي بسواكن وأنا ابن عشر سنين .
٦ - دخلت مدرسة سواكن الأميرية سنة ١٩٠٣ ، وأتممت بها تعليمي ، ونلت الشهادة وقبلت بالثانوي سنة ١٩٠٨ ، فحالت المصاريف دون التحاقي بالكلية (كلية غردون) .
٧ - في سنة ١٩٠٩ م التحقت بالخدمة في شركة التلغراف الشرقي . Eastern Telegraph ، وكنت أقضي أوقات فراغي في قراءة الصحف السياسية والمجلات العلمية والكتب التاريخية التي كانت تزخر بها « غرفة المطالعة الأدبية » بسواكن .
٨ - وكرست من وقتي ساعتين كل يوم لدراسة الفقه وقراءة القرآن بالتجويد على الشيخ بشير محمد كَريتْ الأرتيقي بجامع السيد محمد عثمان تاج السر .

٩ - وفي أول يناير سنة ١٩١٦م تركت أكل اللحوم والأسماك وكل ما فيه روح ، واكتفيت باللبن والعدس حتى كانت سنة ١٩١٩،فعدت إلى ما قبل سنة ١٩١٦ من الحياة .

١٠ - كلما سافرت إلى أي جهة من إقليم البجة أو اجتمعت بوالدي (ولد سنة ١٨٤٥ تقريباً وتوفي سنة ١٩٢٠ م) وأعمامي وكلهم اشتركوا في جميع حوادث شرق السودان ، وبايعوا الأمير عثمان دقنه سألتهم عن أحداث القبائل وتاريخها .

١١ - دونت أشعاراً كثيرة بلغة بني عامر (تيجري) والبجاوية ، وبعضها يرجع إلى ما قبل أكثر من ثلاثمائة سنة ففيها الحوادث المهمة ، والمواقع الحربية ، والتكتلات القبلية ، ووصف للمراعي ، والمناهل ، والأراضي ، وذكر الشجعان والأجواد ، والبخلاء . . الخ . ووجدت كثيرين ممن يصفون لي الحوادث الواردة في الشعر القديم . وفي لغة التيجري يلتزمون الروي بالقصائد الطويلة أما بالبجاوية فهي مثل الدوبيت (بيتان فقط) .

١٢ - طول خدمتي بهذه الشركة كان سبباً في اتصالي بكل شيوخ سواكن والبوادي خصوصاً نظّار القبائل وكلهم كانوا من القرّاء والكتّاب ، وقد عاصر أكثرهم الحكم التركي والمهدية .

١٣ - كنت تلغرافجياً ، ثم اشتغلت محاسباً حتى سنة ١٩٥٣ فأحلت إلى المعاش .

١٤ - كنت أقتني دائماً كتب الأدب والاجتماع والتاريخ خصوصاً ما كان خاصاً بتاريخ السودان ، ومذكرات رواد السودان منذ سنة ١٥٢٠ م حتى يومنا هذا وأكثرها بالعربية والإنجليزية .

١٥ - إجادتي للغتين السابقتين (التيجرية والبجاوية) أعانتني على الاتصال وفهم ما أريد معرفته من مؤرخي القبائل الذين لا يجيدون العربية ، فكل ما دونته من الحوادث معرب إما من اللغة البجاوية أو التيجرية .

١٦ - عاصرت شيوخاً لا يتكلمون إلا في حوادث الماضي البعيد والقريب . ودراستي للأدب العربي على بعض المدرسين حببت إلي البحث عن تاريخ

حياة أمة البجة، بل كل السودان لأن الأمة التي ليس لها ماض (قديم) ليس لها حاضر (جديد) . وكرست أبحاثي عن إقليم البجة (شرق السودان) لثقتي بأن لهم تراثاً قديماً يجب أن يبعث .

١٧ - وفي سنة ١٩١١ م نادى الدكتور « صن يات صن » بالصين للصينيين . وقبله في سنة ١٨٨١ م نادى السيد أحمد عرابي باشا « مصر للمصريين » فكنت أنادي « بالسودان للسودانيين » ولم أحِدْ عن هذا المبدأ في كتاباتي ومقالاتي منذ سنة ١٩٢٣ م . (وهو أول تاريخ لمقالي عن المهدي وعثمان دقنة) . إذ كان يتلخص في :« لقد أحسن المهدي صنعاً بقتل غردون إذ كفَّ ضغط الجيش الإنجليزي على دقنه حول سواكن » .

١٨ - أحب طبع كل مؤلفاتي الجاهزة (أولاً) مثل حياة تاجوج والمحلق ، ثم تاريخ سواكن ، ثم تاريخ أرتريا والصومال ، وتاريخ قبائل الحباب والحماسين (بالسودان وأرتريا) . ثم تاريخ قبائل إقليم البجة مثل تاريخ كسلا والحلنقة وبني عامر والهدندوة والإمارأر والبشاريين والدقناب (رهط الأمير عثمان دقنه) وحوادث المهدية . . . الخ .

١٩ - لما رأيت أن الأسانيد التاريخية متوفرة لدي من كتب قديمة ومعلومات كثيرة عن قبائل البجة استحسنت الاشتغال بها .

٢٠ - ابن خلدون لم يذكر شيئاً عن الإقليم الذي أكتب عنه أو وقع عليه اختياري ، ولكني أفضل عليه المقريزي الذي ألف كثيراً عن العرب والسودان ومصر ، ثم نقل عن المؤرخ السوداني ابن سليم الأسواني الذي ضاع كتابه عن البجة وعلوة والنوبة . . . الخ .

٢١ - أنا أعتبر أول مؤرخ عربي هو أحمد بن يعقوب الذي كان في أوائل القرن الثالث للهجرة .

٢٢ - الشاب من العشرين إلى الثلاثين تكون نفسه وثابة ودمه ثائراً . ومن الثلاثين حتى الأربعين يتردد ، ومنها للخمسين يعمل (حساب) أي يعتريه التردد والهواجس وتربية الأولاد والمنزل . . . الخ . ومن الخمسين لا يخشى إلا الله ويترفع عن كل الصغائر .

٢٣ - لم يستفد البجة كمجموعة أو أفراد من حكومات الأحزاب مؤتلفة أو مختلفة إلا الحزازات والضغائن وكراهية البعض وتحطيم كل المشاريع النافعة لتطويرهم ، ولم تفتح هذه الحكومات عندنا حتى خلوة بسيطة . هذا بخلاف ما أغدقوه على سائر المديريات . انظر كيف كانت وزارة الأحزاب تنتخب من كل مديرية وزيراً وتحرم إقليم البجة من وزير بل من مدير لأي مصلحة ، مع أن الكفاءات جمة وموجودة .

٢٤ - أحب أن يُحكم السودان باللامركزية ، أو النظام الذي اقترحه السيد عبد الرحمن علي طه ، كل مديرية أو ولاية على حدتها حتى التعليم الثانوي .

٢٥ - لم أجد أي صعوبة إلا من الوحوش الكاسرة ليلاً في الغابات والأحراش ، وكدت يوماً من الأيام أن أموت عطشاً في سنة ١٩٤٢ لولا أن أدركني رفيقي بالماء من مكان سحيق .

٢٦ - كل بجاوي أو مؤرخ سوداني يستفيد جداً من مؤلفاتي ويمكن لكل باحث أن يعمل منها تحليلات علمية . ولو أنني قد عملت ملخصاً تاريخياً لكل قبائل إقليم البجة ، لا أوافق على طبعه أو إخراجه إلا بعد استكمال التاريخ الكبير .

٢٧ - ليس لدي أي وقت لقراءة المؤلفات الحديثة . وأما السودان في قرن فليس فيه أي شيء عن إقليم البجة بتاتاً إلا بعض كلمات عن الأمير عثمان دقنه ، والسبب أن الإقليم المذكور كان منفصلاً عن السودان لغة واتصالاً حتى سنة ١٩٠٥ م إذ وصلت سكة حديد النيل بالبحر الأحمر (لا أدري ماذا في سائر الكتب عن الأمير عثمان دقنه الذي كتبت أنا عنه نحو خمسين صحيفة من الفولسكاب بعنوان « حوادث المهدية بكسلا » وستكون بسواكن وضواحيها أضعافاً مضاعفة) . وهذا جاكسون والمدام سارتوريس ، فالأول يمدح قومه ويشنع بالأنصار ، والثانية كانت بالعكس تذم الجيوش التركية المحاربة للأمير عثمان دقنه ، وتمدح خططه الحربية وأساليبه العسكرية . ونحن نكتب في كل شيء الحقيقة المستقاة من الوطنيين الذين اشتركوا في المعارك .

وندع ناحية المستعمر لكتّابهم وما يروق لديهم ولدى أنفسهم فإن كتاباتهم كلها لا تخلو من الاغراض والتشنيع بالوطنيين .

٢٨ ـ كل الكتب المؤلفة عن السودان مفيدة جداً ، ومن لم يستند عليها أو يقتنيها فلا يصح أن يكتب حرفاً واحداً عن وطنه . ليت جمعية التاريخ بالكلية أو بوزارة الداخلية تسمح بطبع كتاب الشيخ إبراهيم عبد الدافع (الفونج والسلطنة الزرقاء) ، أو تاريخ الشيخ الزبير ود ضوه ، وغيرهما من المخطوطات .

٢٩ ـ الاستعداد الفطري لدراسة التاريخ أولا ، ثم اقتناء الكتب الخاصة بما يريد المؤلف الكتابة عنه ، وأهم شيء هو المراجع التاريخية .

٣٠ ـ لا مؤاخذة في تطرفي ضد عهد الأحزاب ، وقد كنت حزبياً ولكني رأيتها تقبر الكفاءات وتجعل الشاة وراعي الشاة سيان ، وهذا يتجافى مع ديمقراطيتي الإسلامية .

ملحق ملحوظة :

لم أترك مكاناً مأهولاً ، أو منهلاً مشهوراً في إقليم البجة إلا وزرته ، واجتمعت بسكانه ومشايخه (من عيذاب شمالاً وحلايب حتى قررورة في الجنوب) ، أما نهر أتبره فقد طفته شرقاً وغرباً ، وأقمت بين سكانه . ولكل قبيلة نطقها المختلف عن الأخرى لا يدركه إلا الخبير بالألفاظ البجاوية والتيجرية .

كنت أطوف هذا الإقليم وكان محظوراً على مثلي السير خلال ديار البجة لأنها كانت تسمى « مناطق مقفولة » .

محمد صالح ضرار

هذا ما كتبه المؤرخ عن نفسه ، ونعود الآن لنقول :

تبلغ عدد الصفحات التاريخية التي كتبها المؤلف ألفاً ومائتي صفحة من الفولسكاب . وهو بالإضافة إلى تدوين التاريخ والأشعار البجاوية باللغتين التيجرية والبجاوية . فإنه سجل بعض القصص التراثية . قصة عمر باشقير البني عامري وغرامياته وأشعاره باللغة التيجرية . وقصة محمود الفلج الهدندوي وغرامه . وتعذيب ممتاز باشا له . وما جاء على لسان محمودٍ من شعر بجاوي يفيض بالألم والأحزان . كما ترجم ذلك الشعر باللغة العربية .

كان مؤرخ قبائل إقليم البجة يهوى الأدب . وفي بداية حياته ألف بعض المقامات . أهمها المقامة الترمسية . التي كان يذكرها أستاذنا الفاضل الشيخ مجذوب جلال الدين . عندما كنت طالباً في كلية غردون عام ١٩٣٧ . وكان ينشد قول المؤرخ في المقامة .

كل النبــات الغض دون الترمس   ولســاكنيه الفخــر دون الأنفس

وهي من تراثه الباقي لدينا . كما أنه كان يتلذذ بإخراج المسرحيات التي كان يمثلها علي حمو ومختار البتنوني كأبطالها . وغيرهما من الشباب في بورتسودان . واتسع وقته لإنهاض كرة القدم في إقليم البجة . فكان مستشار فريق السواكنيين في بورتسودان منذ سنة ١٩٢٦ م وكذلك في سنكات . فقامت على أكتافه وأقرانه نهضة رياضية تظهر بجلاء في الصور الفوتوغرافية التي احتفظ بها والتي مازالت باقية مع مخلفاته .

بذل هذا المؤرخ جهداً في الحصول على السيوف الأثرية في شرق السودان . وكان يجمع العصي النادرة أيضاً . ويهدي من هذه وتلك لزواره في البيت مع ما يأخذون من علم دفّاق في ساحته .

وما زلت أذكر ما رأيته في طفولتي في منزلنا من حشود لأفراد قبائل البجة . من شيب وشيوخ أكل الدهر عليهم وشرب . وهم يسكنون في منزلنا حيث تقوم أمي (رحمها الله) بإعداد الفطور لهم . من اللقيمات بالسكر أو العسل . ومن العصيدة التي تعوم في السمن البلدي وقد تكدس السكر فيها أو طغى على جدرانها العسل . ولم

تكن تقدم لهم الفول أو البيض . لأنهم لا يأكلون الأول . ويحتقرون الثاني احتقارهم للدجاج وآكليه . وكانت أمي - عليها الرحمة - تملأ الأطباق باللحم والأرز والسمن ليأكل هؤلاء الأعاريب . وكنت أشاهد أبي المؤرخ وهو يجلس الساعات الطوال على برش الصلاة أمام أحد الأعاريب يستمع إليه وهو يتحدث بلغة غير العربية وينقل ما يقول في أوراق أمامه . عرفت فيما بعد أنها باللغة العربية . لقد كان يؤم دارنا آحاد وعشرات من أولئك الشيوخ لينقل عنهم مؤرخنا . وكان في آخر النهار يدفع للواحد منهم عشرة قروش نظير ما أعطى من أخبار . لقد كان يقدر ما عندهم من أخبار قدراً عظيماً ، وما كانوا يعلمون أن ما قصوه عليه يساوي كل ذلك المبلغ . كان ذلك على ما أذكر حوالي سنة ١٩٢٩ م وما بعدها ، أما ما كان قبل ذلك فلا تعيه ذاكرتي .

إن ما كتب المؤلف من مخطوطات نأمل أن تظهر قريباً تباعاً حتى نظهر للعلم الحديث العطايا القيمة التي وهبها هذا المؤرخ لعالم التاريخ والاجتماع . والقراء والدارسون سيحددون قيمة العطايا التي قدمها محمد صالح ضرار . وسيرة هذا المؤرخ قد سارت بعيداً عند علماء الغرب بحكم اهتمامهم واتصالهم به منذ بعيد والاعتراف بدائرة تخصصه ، فما من دارس للدرجات العليا إلا وجلس إليه واستمع منه إلى ما لديه من معرفة وأحاديث .

وهذا الكتاب « تاريخ سواكن » هو نموذج للجهد الذي بذله المؤلف في إخراج عطائه العلمي لطلاب الحقيقة وطالبي العلم .

ضرار صالح ضرار

ابن المؤلف



صورة المؤلف سنة ١٩٢٨ م محمد صالح ضرار ص ب ٩٩ بورتسودان

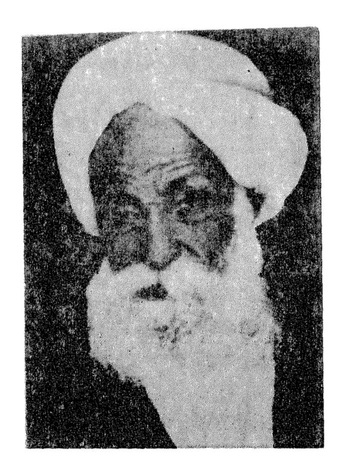


الإهداء

الأمير عثمان بن أبو بكر دقنه

أهدي كتابي هذا ـ سواكن ـ إلى قاهر الاستعمار . وحامل راية الأنصار . حتى استقلت الديار . وعادت تلك الجيوش الجرارة بفلولها يائسة من إنقاذ الجنرال غردون عن طريق إقليم البجة . فلما استعصى عليهم ذلك في محو استقلال الوطن قلبوا أساليبهم السياسية . وغيروا خططهم الحربية . فكم من المربعات الحصينة كسرت أجنحتها . وتسابقت إلى طريق النجاة فلولها . ولولا الطعن بالرماح الحادة . والصوارم البواتر . وسواعد أبناء البجة المفتولة . وقلوبهم التي قُدّت من الحديد . ومُلئت بالإيمان . لما تمتعنا بنعمة الحرية والاستقلال تحت قيادة الأمير عثمان دقنه الذي طبقت شهرته الآفاق . ولم يلق سلاحه حتى لقي ربه . فمهما امتدحناه فإننا مقصرون في ايفائه حقه من الواجب . عليه سلام الله .

محمد صالح ضرار



امير الأمراء
الأمير عثمان أبو بكر دقنه
أمير السودان الشرقي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . فهذا هو تاريخ سواكن أقدمه للقراء مؤملاً أن أكون قد أديت بعض ما يجب علي نحو هذه المدينة التي أحفظ لها ذكرى لا تمحوها الأيام . فقد هبطت من قريتي عقيتاى[1] Agetai وأنا ابن ثماني سنوات . فنشأت بين جدرانها ودرست في معاهد تعليمها . حتى أتممت تعليمي الأوسط بمدرستها سنة ١٩٠٨ م . ثم انخرطت في سلك موظفي شركة تلغراف الإيسترن (الشرقي) Eastern Telegraph بسواكن [٢] Sawakin . وفي أحد أيام الدراسة ألقى علينا أستاذنا السيد / محمد ماضي أبو العزائم محاضرة كلها بطولة وثناء على أعمال الأمير عثمان أبو بكر دقنة[٣] . فتاقت نفسي منذ ذلك التاريخ للبحث عن حياته . ولا يتسنى لي أن أخط حرفاً واحداً مالم أشد بذكر البلد الذي نشأ فيه قبلي وشرب من مائه ونعم بهوائه . وكان مهد صباه . ومرتع شبابه . فهو أشرف أهلها أرومة . وأنبلهم حسباً ونسباً . فلم ولن تنجب بادية البجة أو مدنها مثل الأمير . فقد كان رحمه الله يطوف بالمدن والقرى ويحضر جمعيات[٤] القبائل منذ سنة ١٢٨٧ هـ سنة ١٨٧٠ م .[٥] ويمهد السبيل لدعوته المقبلة . ويأخذ العهود والمواثيق

---

(١) واقعة بالقرب من ساحل البحر الأحمر وتبعد عن توكر نحو ستين ميلاً .

(٢) والبجة يطلقون عليها ـ أوسوك O'Souk ـ وهو اسم ورد هكذا فعربه بعضهم على أنه ـ السوق ـ إذ لم تكن للبجة مدينة سواها للتجارة .

(٣) هو أمير الأمراء الذي طبقت شهرته الآفاق واعترف له الخصوم قبل الأصدقاء بالتفوق عليهم في خططه الحربية وأساليبه السياسية ـ حتى الخليفة عبد الله التعايشي أنعم عليه بلقب « أمير الأمراء » .

(٤) الاجتماعات القبلية كانت تسمى جمعيات .

(٥) ولد الأمير سنة ١٢٥٦ هـ ـ ١٨٤٠ م .

من رؤساء القبائل على أتباعه يوم يدعوه داعي الوطن لحمل السلاح ، واستخلاصه من براثن الأجنبي . وكان أحيانا يضطر لمصاهرة القبائل النائية . فثبت كثيرون على عهده ومعاضدته . ونقض بعضهم عهده فدارت عليهم عاقبة نكثهم ، فنكبوا شر نكبة . وهكذا خاتمة كل من يحنث في يمينه أو يتساهل في حقوق وطنه .

ولا أرى أي غضاضة في الإشادة باسم الأمير أو الثناء على ماضي سواكن ، والرثاء على حاضرها الحالي ، فإن حبها يكاد يملك عليَّ سمعي وبصري ، وقديماً قيل ـ حب الوطن من الإيمان ـ وقال الأعرابي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل وحسن عهده ومكارم أخلاقه ، وطهارة مولده ، فانظر إلى حنينه لأوطانه ولشوقه إلى إخوانه .

وحبب أوطان الرجال إليهمُ	مآرب قضَّاها الشباب هنالكا
إذا ذكرت أوطانهم ذكرت لهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذالكا
ولي موطن آليت أني أعزه	وأنْ لا أرى غيري له الدهر مالكا

اليوم وقد أصبحت مدينة سواكن من المدن العتيقة التي يؤمها الباحثون عن المنازل الأثرية ، ومخلفات العصور السالِفة ، والأزمنة الغابرة ، وليست هذه أول مرة تمنى فيها سواكن بالهرم والشيخوخة ، بل مرت عليها عصور متعاقبة ، فتارة تنتعش وتنال شهرة واسعة وأحياناً تتدهور وتصبح بالية الأطلال ، قد درست معالمها وأناخ الدهر على أهلها بكلكله ، فأضحوا لا ترى إلا مساكنهم . قال عامر بن الحارث الجرهمي في مكة المكرمة[1] :

وقائلة والدمع سكبٌ مبادر	وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا	أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب مني كأنما	يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا	صروف الليالي والجدود العواثر[2]

(١) كانت بعد إبراهيم عليه السلام لجرهم ثم العمالقة ثم لقريش .

(٢) أي الحظوظ المشائيم السواقط . ولله در القائل :

وإذا نظرت إلى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

وكنا ولاة البيت من بعد نابت[1] بعـز فما يخطي لدينـا المكاثـر
فأخرجنـا منهـا المليك بقـدرة كذلك بالنـاس تجـري المقـادر
وصرنا أحاديثـاً وكنا بغبطـة بذلك عضتنـا السـنون الغوابـر

ولم يقع هذا الحيف على سواكن وحدها . بل شاطرتها إياه مدينة - بربر - فقد كانتا مرتبطتين ببعضهما برباط تجاري وثيق العرى . وكانت لأهاليها صلات مودة وقربى .

ومن ينسى تلك الإشاعة التي راجت في سنة ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م عندما بدأت الحكومة الثنائية في إنشاء سكة حديد سواكن - بربر . فلما حادت عن المدينتين المذكورتين وقفزت عوضاً عنهما مدينتا بورتسودان[2] وعطبرة[3] . خابت آمال سكانهما وذوي الأملاك فيهما . ولكنهم صبروا على مضض لما انتاب المدينتين . فأصبحتا من مدن الدرجة الثالثة[4] بعد أن كانتا من مدن الدرجة الأولى . بل كانتا مديريتين عريقتين في المدنية والحضارة .

أما التجارة التي عمادها الصدق والأمانة . فقد ألقت قيادها لأهليهما منذ سارت بينهما القوافل التجارية . ولا شك أن هذا تراث الأوائل الذي يجب على الأواخر أن يحتفظوا به . ويعضوا عليه بالنواجذ . لأن العالم يسير بخطوات سريعة نحو الصراحة والأخلاق الفاضلة . وهما من مقتضيات المعاملات التجارية .

ومما يجب تدوينه بمداد الفخر ثبات أبناء بربر أمام أعاصير السياسة التي أرادت أن تقوض مدينتهم بطرق التدمير . وأولها نقل المديرية ثم قفل المعاهد العلمية[5] فسلمت من الاضمحلال الذي أصاب سواكن . وسيدوّن التاريخ لهؤلاء الغطاريف صحائف ذهبية لدفاعهم المجيد عن مدينتهم أمام الحكومة التي قررت تحطيمها . فحالوا بتضامنهم وتكاتفهم دون ذلك . وها هي اليوم تزهو بدور العلم

(١) هو نابت بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .
(٢) كانت تسمى - الشيخ برغوت - .
(٣) يطلق عليها « الداخلة » .
(٤) يصل سواكن ببورتسودان شريط سكة حديد قررت الحكومة نقله إلى الرصيرص وجعل سواكن نقطة بوليس (قرية) سنة ١٩٥٤ م .
(٥) بعد قفل المدرسة الحكومية الوسطى أنشأوا مدرسة أهلية وسطى .

والتجارة والزراعة والعمران ، وكل هذه الأشياء كفيلة بإحيائها ، وستتحطم أمام اتحادهم هذا كل محاولة يراد بها إضعاف مركزها الحالي . ولكن وا حسرتاه على سواكن التي يفكر أبناؤها دائماً على الطريقة التي تبعثها من جديد في عصر العلم والنور بدون أي إقدام على المشاريع الحية ولو بالاتصال بالأعمال الصناعية .

وتألفت لجنة اسمها اللجنة الأهلية لتعمير سواكن سنة ١٩٥٤ م،وعقدت عدة اجتماعات . وكان أهمها في نظر كاتب هذه الأحرف .

١ - إيجاد وتوفير المياه للشرب والزراعة .
٢ - فتح فروع لكبار التجار .
٣ - مساعدة التلاميذ الذين لم يبارح أهاليهم سواكن على التعليم .
٤ - إعادة شريط السكة الحديد الذي أزيل منها .
٥ - مساعدة أصحاب المنازل الأثرية حتى لا تتهدم نهائياً .
٦ - على الموظفين طلب سلفيات صغيرة لبناء فيلات .
٧ - أن يتنازل أصحاب الأملاك عن خُمس أو ربع مساحات أراضيهم حتى تكون بها شوارع متسعة .
٨ - المحافظة على جعل القصور من دور واحد لتسهيل تكاليف التعمير .
٩ - أن تجتمع اللجنة في السنة مرتين في سواكن حتى تكون دراسة التعمير عن كثب .
١٠ - إنشاء متحف تجمع فيه كل الآثار البرية ، والبحرية ، والجبلية ، التي تستعمل أو توجد في إقليم البجة وهي كثيرة جداً مضى على بعضها آلاف السنين .

إن من ينظر إلى ثبات أبناء شندي وبربر وحلفا ودنقلة أمام خطط الاستعمار الشيطانية على تدمير بلادهم ، وتخفيضها إلى مراكز بعد أن كانت مديريات تعج بالتجارة والصناعة لا يستكثر على هذه اللجنة انتهاج وسائل التعمير . وإن المدارس الوسطى التي أنشأها أبناء هذه المدن بأموالهم الخاصة لهي أكبر دليل على التفاني في حب مسقط الرأس . فهل توافق اللجنة بأن تقتدي بهم في فتح معهد ديني أو مدرسة وسطى ، والله ولي التوفيق .

سَوَاكِن

تقع مدينة سواكن على الجانب الغربي من ساحل البحر الأحمر على الدرجة التاسعة عشر وسبع دقائق شمالاً . وعلى الدرجة السابعة والثلاثين والدقيقة عشرين شرقاً . وعلى نحو ٧٢٠ ميلاً من السويس ، ومائتي ميل من جدة ، و ٢٨٥ ميلاً من مصوع . وعلى بعد ٣٤٩ ميلاً من عيذاب .[١] ومنها إلى بربر ٢٤٧ ميلاً ، وإلى توكر ٥٦ ميلاً ، وإلى كسلا عن طريق توكر ٢٩٨ ميلاً .

واقتضت أبحاثنا أن نضيف إلى تاريخ سواكن تاريخ مصوع• وجدة ، إذ كانت جميعها مرتبطة ببعضها عدة قرون تحت حكم والي الحجاز التركي .

وفي سنة ١٨٤٣ م كان محافظ جدة يدعى عثمان باشا ، وكان له مملوكان يدعى أحدهما يوسف آغا الحبشي من الجالا عيّنه محافظاً على سواكن ، والثاني يدعى رستم آغا كان محافظاً على مصوع .

---

(١) ويسمونها : سواكن القديمة .

• تحدث المؤلف عن مصوع في كتابه « تاريخ ارتريا والصومال » ولم يتحدث عن جدة في هذا السفر أو غيره . (ض) .

تاريخ سواكن

لا يعرف تاريخ سواكن بالضبط في العصور الخالية إلا تلك الخرافة القديمة ، وهي أنها كانت كسائر الجزر التي في البحر الأحمر خالية من السكان ،[1] وليس فيها إلا الجن . ويروون أن أحد ملوك أثيوبيا (الحبشة) أهدى سبعين جارية إلى نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام أُرسلنَ إليه في بيت المقدس (أورشليم) . فأبحرت بهنّ سفن شراعية من مصوع (باضع) حتى ألقت مرساها في سواكن . واستطابت الإقامة فيها . فواطأ السواكنيون (أو الجن كما يزعمون) أولئك الجواري لما هبطن إلى ساحل الجزيرة البري . ثم أقلعت بهنّ السفن إلى ميناء العقبة . وهبطن منها . وسرن إلى القدس . ثم ظهرت عليهنّ آثار الحمل . وبعد التحقيق مع رؤساء السفن . أقروا بأن إقامتهم بسواكن كانت طويلة جداً . وأن كل الذي حدث كان من السواكنيين . فأمرهم سليمان عليه السلام بردهنّ إلى سواكن حيث يجب أن تكون إقامتهن بها نهائياً . فاندمجن وذريتهن في أهل الجزيرة وأمر بأن تتخذ جزيرة سواكن سجناً للمجرمين .[2] كما اتخذ الأمويون جزيرة دهلك أيضاً منفى لمن تحدث منه أضرار للمسلمين أو يثور على حكومتهم .

وبعض المؤرخين يدّعي أن قصة الجواري والجن كانت مع خسرو ملك العجم .

والأحباش يدّعون أن بلقيس ملكة سبأ ـ كانت ملكة على أثيوبيا وأنها زارت نبي الله سليمان عليه السلام لما ألقى عليها الهدهد كتابه الكريم منذ ألف سنة قبل

---

(١) نحن نقول أنها كانت آهلة بالسكان منذ استوطن باديتها أبناء كوش بن كنعان الذي تناسلت منه قبائل البجة الأصلية قبل اختلاطها بالعرب .

(٢) اعتبرت الحكومة المصرية سنة ١٨٨٢ م مدينة سواكن سجناً لأنصار السيد أحمد عرابي الذي يعتبر أول ضحايا باشوات المماليك . كما وأنه أول بَطل نادى بالاستقلال المصري وقال ـ مصر للمصريين ـ .

ميلاد المسيح عليه السلام [١] وأن المنيليك الحالي (الامبراطور هايلا سلاسى بن الرأس تفري مكونن) هو من ذرية بلقيس . وهذا الادعاء يجعل المسافة بيننا وبينهم ثلاثة آلاف عام [٢] . ثم ان مملكة سبأ كانت ببلاد العرب [٣] وليست في افريقيا ، واما نهر عنسبة ، أو عين سبأ ، الذي ينبع من جبال أسمرا ويمر على كرن (سنهيت) . ثم يلتقي بخور بركة حول أغردت اقتبس اسمه من سبأ التي هي شرق صنعاء اليمن . كما اقتبس اسم « العقيق » السوداني من الميناء المحاذي له شرقا بالجزيرة العربية . وجزيرة بهدور Bahdour وتسمى أيضا جزيرة ابن عباس [٤] ، كما توجد شرقها باليمن مدينة قبة عباس .

وقد ذكر السيد يحيى الفضلي في محاضرة له : « أننا نتاخم البحر الأحمر ولنا فيه ثغر جميل له شهرة عالمية » . فكانت لسواكن شهرة طائلة حيث أن سفن الملك سليمان بن داود كانت تسير إلى ترشيش مع عبد حورام ، وتأتي مرة كل ثلاث سنوات إلى سواكن حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس كما جاء في التوراة [٥] . مما جعلها مركزاً اتحادياً هاماً تلتقي فيه التجارة بين الشرق الأقصى والأدنى .

---

(١) الحبشة الحديثة للمستر اوغسطوس وايلد Modern Abyssinia By Augustus Wylde

(٢) كانت مملكة سيدنا سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد . فإذا أضيف إليها سنة ١٩٥٥ م (اليوم) تكون الجملة ثلاثين قرناً . ويدعون أن سليمان رزق ولداً من بلقيس ، وقال لها : هو مني إليك ، ولذلك لقب ـ بمنليك ـ ونسي المؤرخون أن لغة قريش لم تكن منتشرة بين الأحباش في ذلك الوقت .

(٣) كتاب رحلة نزيه بك المؤيد إلى اليمن . وكتاب الجواهر الحسان .

(٤) في كتب رحلات العرب قرأت أسماء أربع جزائر هي سواكن ودهلك والنعمان والسامري ـ ولعلهم يقصدون بالأخيرتين جزيرة ابن عباس وجزيرة عيري (الواقعة جنوبها على بعد عشرين ميلاً) وكلتاهما كانتا آهلتين بالسكان . ولقد وجدت في كلتيها آثاراً إسلامية ونقوشاً عربية . ولا أعرف جزراً غيرهما بالبحر الأحمر .

ـ وسكان بهدور رحلوا إلى عدوبنة إلا ثلاث عائلات أما عيري فسكانها أمويون . وقد تفرقوا واندمجوا في قبائل البجة . وتوجد أسماء أكثر موتاهم على مقابر الجزيرة . وآخر رجل كان يسكن سنة ١٩٠٦ م جزيرة عيري بأغنامه اسمه ـ إدريس أبو عمير من قبيلة طارقيلي ألمدة .

(٥) قال الاستاذ / الشاطر بوصيلي إنه قراذلك في الإنجيل وأن كلمة سواكن هندية وتعريبها ـ المدينة البيضاء ـ أو ـ مدينة الأمان ـ أو بر السلامة لأنها كانت أول ميناء في ذلك الوقت تصل إليها السفن من الشرق الأقصى .

سكانها الأقدمون :

قال نعوم بك شقير أن « البوانيت» Puanit هم سكان ما بين طريق بربر وسواكن وجبال الحبشة . وفي أيام الدولة الثانية عشر المصرية (٣٠٦٤ ـ ٢٨٥١ قبل الميلاد) . وأن « اوسترتش الأول » ثاني ملوك هذه الدولة قد عقد لقائده هونو Huno . وأرسله إلى بلاد البوانيت بطريق قفط والقصير لجمع الجزية من أمراء تلك البلاد . فعند وصوله إلى القصير بنى مراكب كبيرة وسار بها في البحر الأحمر حتى وصل بلاد البوانيت . فجمع الجزية من البخور وغيره من محاصيل تلك الأقاليم وعاد إلى مصر .



عصر الفراعنة ـ سنة ١٤٠٥ ق.م

لم يكن للقطر السوداني منفذ بحري غير مدينة سواكن، ولذلك اتخذها رعمسيس الثاني [١] قاعدة لأسطوله التجاري الذي كان يرتاد ثغور البحر الأحمر والمحيط الهندي لتسهيل سبل التجارة بين بلاده والشرق الأقصى. فخضع ملك البجة[٢] لسلطانه، وفتح له أبواب مملكته (براً وبحراً) على مصراعيها فاستولى على مناجم الذهب في بادية «عيتباي» مثل جبل علبة وجبيت المعادن [٣] وحول جبال أكوان وهييت وما حولها، وهذه الجبال تابعة لقبيلتي البشاريين والعثمانيين[٤] كما استولى على زمام البحار، وتطرق إلى داخلية أرض الحبشة وتوثقت الصلة التاريخية بين مصر والحبشة، وهي ظاهرة في آثار مروي، وعلى ضفاف الرهد، وعطبره والنيل الأزرق، وغرب العقيق في قرية «عيسى درهيب» حيث تكثر آثار الفراعنة والبطالسة والرومان.

يقول المستر وايلد بوجود طريق قديم جداً من مروي إلى رأس بناس يخترق طريق سواكن ـ بربر حتى رواية (محمد قول). وفي الطريق علامات يتبعها الحجاج الأحباش الذين كانوا يؤمون القدس عن طريق البادية بدلاً من طريق سواحل البحر الأحمر الذي كان شديد الخطر عليهم. وكثيراً ما ذبحت قوافلهم اليهودية والمسيحية بيد قبائل البجة. وهذه العلامات مبنيّة بأحجار جبلية في أرض

---

(١) يسميه اليونانيون سيزوستريس تولى ملك مصر سنة ١٤١٥ ـ ١٣٣٩ ق. م

(٢) كانت سواكن قاعدة ملكه.

(٣) دفع لرعمسيس كل أهالي أفريقيا والهند وجزيرة العرب الجزية وسيطر أسطوله على البحرين الأبيض المتوسط والأحمر والمحيط الهندي وجزائره.

(٤) توجد آثار أدوات استخراج الذهب وسحق أحجاره بحديقة بورتسودان وقدر عمرها بأكثر من أربعة آلاف سنة. وهي كثيرة بجبال المناجم لم تمتد إليها يد البحث في جبال الهدندوة وبني عامر. كما وأن البحث عن البنزين مستمر في كل هذه الجهات خصوصاً في حلايب.

وعرة على شكل مثلث ذي فجوتين أو ثلاثة من أعلاه . أما قاعدته فمساحتها متران في مترين والارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً . وكل مثلث مطلي بالجير الأبيض الذي لم تغيره آلاف السنين . ويراه المسافر نهاراً من مسافات شاسعة . وأحياناً تجده في السهول ثابت الدعائم والبنيان مثل الذي بين حلايب ومحمد قول . ومن أعمال رعمسيس الثاني[1] تجديده لاستخراج الذهب والزمرد من معدنيهما ببلاد البجة . ثم جاء عصر رعمسيس الثالث الذي لم يكن أقل همة ممن سبقه ، فبذل جهده في فتح البلاد الأفريقية التي تسكنها الفيلة[2] فبنى أسطولاً أنزله إلى البحر الأحمر ، وسافر فيه رعمسيس لارتياد بلاد البنت (الحبشة والصومال) .

والأمم الأسيوية لن تنسى تلك الحروب التي كان يشنها عليها الفراعنة خصوصاً رعمسيس الثاني .

رعمسيس الثالث سنة ١١٩٨ ق . م ا

ظل متبعاً سياسة سلفه رعمسيس الثاني ، وجعل همه تشجيع التجارة مع السودان والامتناع عن الحروب فلم يترك وسيلة صغيرة ولا كبيرة للتجارة مع السودان إلا اتبعها . وابتكر طرقاً جديدة لجلب خيرات ذلك الإقليم .

فأبدل القوافل التي كانت ترسل إلى جهات السودان المختلفة لجلب المر والبلسم والحجارة الكريمة . . الخ بسفن خصوصية لشحن تلك المحصولات إلى مصر عن طريق البحر الأحمر .



---

(١) في زمنه ولد موسى عليه السلام واشتهر رعمسيس الثاني بتعذيب بني إسرائيل .

(٢) مصر في عصر البطالمة للدكتور ابراهيم نصحى .

في عصر البطالسة

لما استولى على القطر المصري بطليموس الثاني المسمى فلادلفوس[1] Ptolemy Philadel phus سنة ٢٨٥-٢٤٧ قبل الميلاد .أرسل البعثات لاستكشاف سواحل البحر الأحمر . فلما وصلت سواكن أعجبت بموقعها ، وكتب رئيسها بذلك إلى بطليموس [2] فأمره باحتلالها ، وأسس فيها محلاً تجارياً عظيماً لحاصلات السودان والحبشة ، وحفرت إحدى البعثات عدة آبار بين سواكن وبربر وشندي ومروي وأم درمان وسوبة[3] ، وكل ذلك لكي يتسنى له أن يكون على اتصال دائم بصيادي الفيلة وتجار السودان والحبشة الذين يؤمون سواكن بالعاج والرقيق والذهب وريش النعام . وفي أيامه بلغت سواكن الدرجة القصوى في الأهمية التجارية ، ويؤسفنا أن بعضاً من المستشرقين اعتبروا ميناء العقيق هي مدينة سواكن التاريخية ، ونحن نخالفهم في ذلك لأننا أدرى ببلادنا وأحوالها وسكانها من الأجانب الذين يكتبون - حسب أهوائهم بلا تمحيص أو تدقيق عن بلاد يجهلون لغة أهلها وعاداتهم - ببعض نتف يجمعونها ويصيغونها في قالب إنشائي يروق لدى أبناء وطنهم ويحط من كرامتنا[4] ، ويطمس معالم ما بلغناه على يد سواهم من الرقي في مضمار الحياة العلمي والاجتماعي ، أو ما نالته بلادنا من الشهرة التجارية في غير هذا العصر الذي حكم فيه على سواكن بإخفاء آثارها ، واسدال ستار كثيف على تاريخها وموقعها الجغرافي الجميل . وأهم ما كان يستورد ملوك البطالسة من شرق أفريقيا البخور والمر والقرفة والعاج ، ومن الهند الأرز والأصداف واللآلىء والأصباغ وأنواع البهار والأخشاب والنباتات الطبية

---

(١) احتل البطالسة مصر سنة ٣٠٥ ق . م .

(٢) أوصى اسكندر المقدوني أن يلقب كل قائم في اليونانيين من بعده بلقب بطليموس وتعريبها - الحربي - تهويلاً للأعداء وكان اسم رئيس بعثته الاستكشافية - أرستون Ariston .

(٣) تاريخ السودان لنعوم بك شقير .

(٤) من نوادر هؤلاء الكتاب أن أحدهم قال في كتابه: لم أذق في حياتي أحلى من بطيخ سواكن .

والقطن والحرير. وكانوا يستخرجون المعادن وخصوصاً الذهب من جبال قبائل البجة ووادي العلاقي وغيره.

وبطليموس هذا هو الذي أمر بإعادة حفر القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر[1] لربط البحرين. وبتوسيع التجارة مع سواحل أفريقيا وسواحل جزيرة العرب والهند، وبتكثير الأصناف التي كانت تستورد من المناطق الحارة، وبذلك اتخذت تجارة مصر والبلاد العربية وأفريقيا شكلاً لم تعهده من قبل.[2]

وقال الدكتور جنكر إن بطليموس فيلادلفي أرسل مائة من الخيالة كي يأتوه بفيلة أحياء. ولكنهم لم ينجحوا لأن البجة رفضت أن تتعاون معهم. فاستعمل معهم الشدة، وازدادت جنود الاحتلال، وكثرت سفن الأسطول التجاري وخضعت لسطوته القبائل، وانقادت لأوامره، حتى أنه تمكن من إنشاء فابريقة للعاج، واحتكر تجارة هذا الصنف في ضفة البحر الأحمر الغربية.

وعصر البطالسة اشتهر بالازدهار في التجارة حتى في أيام كليوباطرة، فإن سلطانها بلغ سواحل مدن وجنوب الجزيرة.



(١) العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي العراقي.

(٢) قال المؤرخ - ديودورس إن آخر محاولة جرت لوصل البحر الأحمر بالنيل كانت في أيام بطليموس الثاني وسميت القناة باسمه.

فِي عَصْرِ الرُّومَان

تضاءلت أهمية سواكن منذ استيلاء الرومان على القطر المصري (سنة ٢٨٤ م) . وشجر خلاف بين ملك قبائل البجة المقيم بسواكن ومندوب ملك الرومان بمصر بسبب استيلاء الرومان على مناجم الذهب والزمرد واللآلىء . ودافع البجة عن أراضيهم ، ومعادنهم ، وحا لوا دون استعمارها ، فجند نائب ملك الرومان جيشاً عرمرماً لقتال البجة سنة ٢٨٤ م وانتصر عليهم بعد قتال عنيف . ولكن قبائل البجة توالت غاراتها وانتقاماتها من قوات الرومان التي كانت معسكرة حول المعادن وعلى أطراف الحدود بدون انقطاع حتى سنة ٣٢٣ م ، فكتب المندوب الروماني بكل حوادث العصابات المتكررة إلى روما . فعلم الإمبراطور ديو قليشيان الروماني أن لا راحة لنائبه بمصر أو جنوده مالم يتفق مع ملك البجة (المقيم بسواكن) . ولذلك أمر نائبه كي يعقد معاهدة صلح مع ملك البجة يتعهد فيها الأخير على حفظ الأمن في مملكته ويمنع أي اعتداء من رعيته على الرومانيين ، أو على البلاد المصرية مقابل مبلغ من المال يدفعه نائب الملك الروماني لملك البجة . فوافق الأخير على الهدوء ، والكف عن الغارات نحو ربع قرن (حتى سنة ٤٥١ م) . وفي أيام الإمبراطور مارشيان تحالف ملك البجة مع ملك النوبة على غزو بلاد مصر العليا (الوجه القبلي) . فأقلقوا سكان الحدود من المصريين ، وذبحوا الرومانيين وعمالهم الذين كانوا ينقبون في المناجم عن المعادن . فاستاء القائد الروماني (مكسينيوس) حاكم طيبة (لُقْصُر) وأعلن التجنيد العام ، وجمع الجيوش وابتدأ في حشدها على حدود المملكتين ، ثم أمر بالزحف على المتحالفين ، وانتصر عليهما واسترد منهما كثيراً من الغنائم والأسلاب التي استولت عليها تلك العصابات من البلاد المصرية . وكان مارشيان يدبر القتال بنفسه ، فعاد إلى طيبة بعد انتصاراته . وأرسل في طلب مندوبين من البجة والنوبة للاتفاق معهما على شروط صلح جديدة لعلمه بأنه لن ينال حاجته من معادن الذهب التي ببلاد

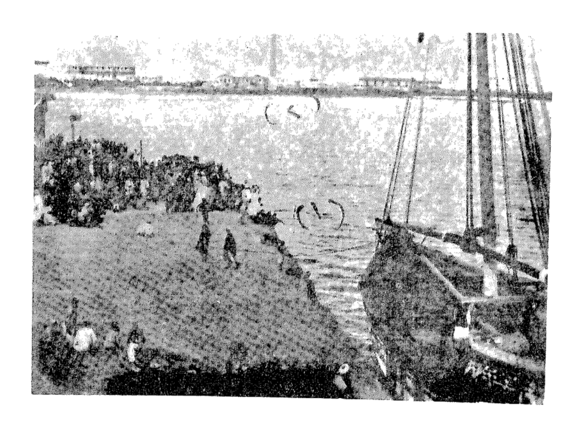
إقليم البجة .[١] فاتفقوا وحافظوا جميعاً على المهادنة إلى أن دالت دولة الرومان على يد قائد الجيش العربي الإسلامي وذلك في سنة ٢٠ هـ إذ أنعم الله على أهل شمال افريقيا بنشر لواء الإسلام . وبدأ الخراب يدب في سواكن ، كما بدأ العمران يتقدم في ميناء عيذاب بدلاً منها[٢] . واضطر ملك البجة للرحيل من سواكن إلى جبل هجر (هقر) Hagar ، وهو جبل شاهق جداً تسكنه اليوم بيت عوض بني عامر ، وإليه لجأت قبيلة بيت معلا لما اشتدت عليها وطأة هجوم أبناء هاسرى ، وفي هذا الجبل قضوا على العلاويين وحصدوا من شوكتهم . وبدأ نزوح العرب إلى مناجم الثروة المعدنية ، واستمر القتال بين العرب والبجة حتى ضعفت شوكة الآخرين واستسلموا للسيادة العربية .

قال الدكتور جواد علي : عند استيلاء الرومان على مصر أسسوا خطوطاً رومانية لمباشرة التجارة البحرية بين مصر والهند ، وقد ألحق هذا الاكتشاف أضراراً فادحة بالتجارة العربية أثرت أثراً كبيراً في الوضع السياسي العام .



(١) وفي أرض الأمارأر والبشاريين والهدندوه توجد عدة مناجم للذهب وسائر المعادن . وهؤلاء الأجانب خصوصاً الرومانيين امتدت فتوحاتهم إلى منابع نهر عطبرة والقاش وخور بركه وحدود أثيوبيا ، وأطلقوا على كثير من المدن أسماء إفرنجية مثل أزوما ـ على روما وعلى خور ونترى Wintry من كلمة Winter وتعريبها الشتاء .وخور لنقيب Longeib من كلمة Long وتعريبها الطويل ، وخور وندى Windy من كلمة Wind وتعريبها الهواء ، الخ . .الخ .

(٢) تاريخ عيذاب .



١ ـ رصيف الجمرك وقد استعد فيه السنبوك الحجازي لنقل الحجاج المصطفين بصغارهم ـ الذين لن يعودوا معهم ـ . للسفر ـ علناً ـ إلى جدة ، وسراً إلى أي جهة بالحجاز .

٢ ـ منظر الكندانة والمستشفى والورشة بجزيرة عبد الله الجبرتي . وهذه المباني هي من مخلفات الجيش البريطاني الذي كان يقاتل الأنصار بقيادة الأمير عثمان دقنه . ثم ارتحلوا عن طريق سواكن بعد أن عجزوا عن إنقاذ الجنرال غردون عن طريق جبال قبائل البجة . وأخذت هذه الصورة سنة ١٩٠٥ م نقلا عن مذكرات ومدونات السودان للدكتور بلوص . لم يبق من هذه المباني إلا المدخنة والميناء الجميل في شمالها حيث يسع أكثر من عشر بواخر حربية ونقالة مؤن وجنود . وكان بالمستشفى مائة وخمسون سريرا وثلاث سفن لجرحى القتال هي ، وعدة دكاترة وثلاث ممرضات .

سواكن في صدر الإسلام

انتشر الدين الإسلامي في جزيرة العرب ، وهاجر بعض من المسلمين إلى الحبشة عن طريق البحر الأحمر فراراً من عذاب كفار قريش حتى تم فتح مكة المكرمة . وجاءت ذرية أربعة من الصحابة إلى سواكن لنشر تعاليم الدين الإسلامي[1] بين أهلها فنجحوا في دعوتهم واستطاعوا الإقامة فيها ، ولا شك أنهم اندمجوا في سكانها . وقد اقتفت آثارهم في الهجرة عدة قبائل خصوصاً في عصر المماليك[2] وما قبله وبعده ، وأصبح التهافت على سكنى مناجم الذهب كثيراً جداً . هذا ، ولم يهدأ القتال بين العرب والبجة إلا بعد أن تضعضعت شوكة الآخرين . واستسلموا للسيادة العربية سنة ٢٥٥ هـ . وفي سنة ٢٧٠ هـ ٨٨٣ م هاجرت قبيلة الأرتيقة من حضرموت إلى سواكن[3] ، ولم يكن لهم اهتمام إلا بالتجارة وارتياد موانىء البحر الأحمر . واندمج كثيرون منهم في قبائل البجة التابعين لنظارة الهدندوة وبني عامر وغالبيتهم اليوم من البوشاب والحنسيلاب والعَلْمَنْوياب وغيرهم ، ولهم مواشٍ كثيرة من البقر والضأن والإبل . ولم يتخلف منهم عن مبايعة الأمير عثمان دقنة إلا من حوصر بسواكن من الكرباب فقط .

ذكر السائح اللوزاني بورخهارت أنهم من أشهر تجار الرقيق . وكان هذا دأب كل البجة وسائر عرب داخلية السودان .

---

(١) عثمان دقنة للمستر جاكسون .

(٢) مثل الأرتيقة وجهينة ورفاعة والبشاريين والأمارأر والملهتكناب والحلنقا والسيقولاب والهدندوه والحسناب والكميلاب والرشايده الخ . . الخ .والأخيرة هي آخر من هاجر من جزيرة العرب سنة ١٨٦٩ م .

(٣) سنوضح فيما بعد تاريخ الأرتيقه إذ أنه مرتبط بتاريخ سواكن فحياتهم مرتبطه بحياة سواكن كما وأن خرابها يضر بحياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والصناعية .

سَوَاكِن ـ سَنة ٣٤٦هـ ـ ٩٥٧م

قال أبو الحسن المسعودي عند ذكره لمدينة سواكن :

وجزيرة سواكن اقل من ميل في ميل وبينها وبين البر الحبشي[١] بحر قصير يخاض . وأهلها طائفة من البجة تسمى الخاسة[٢] وهم مسلمون ولهم بها ملك[٣] .

وقال القلقشندي في صبح الأعشى : إن سواكن بفتح السين المهملة والواو وكسر الكاف ونون في الآخر . وقد أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم (الأحمر) من جهته الغربية قريبة من البر يسكنها التجار . وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة (بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر) . والمشهور لدى العرب والبجة والتيجري أن الحاء والدال مكسورتين والهاء الأخيرة محذوفة والمفرد حِدِرْبي و ـ حِدِرْباي ، والجمع حدراب ، وله مكاتبة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية . ويقال في تعريفه : الحدْربي ، وهو لقب لعموم أمراء البجة .

المجلس السامي الأميري الحدربي :

قال أبو الفداء : وصاحب سواكن من البجة المسلمين . وله ضرائب على التجار . وسواكن صغيرة جداً . وبينها وبين عيذاب نحو سبع مراحل . وحكى لي بعض المسافرين إليها أنها بقدر ضيعة صغيرة في جزيرة صغيرة قريبة من الساحل . ويخاض إليها من البر . وهي وما حولها للبجة .

---

(١) وأحيانا تسميه العرب ـ برعجم ـ لتكلم سكانه بغير العربية .

(٢) ارتحلوا إلى توكر وضواحيها تحت ضغط القبائل التي زاحمتهم على سكنى سواكن . فمن بقاياهم أبناء عمير بن محمود وفيهم اليوم رئاسة القبيلة (العمدة الشيخ أبو محمد محمود حمد) .

(٣) كان ملكهم من قبيلة ـ بَلِيّ (بلويب) التي هاجرت من أقصى الشحر وحضرموت إلى الحجاز ثم إلى سواحل شمال البحر الأحمر وذلك قبل الإسلام . وهم أول من تكلم اللغة العربية ببلاد البجة وأول من استعبد البجة (السكان الأصليين) ولذلك نسبت إلى عنصرهم السيادة العربية أيضاً .

سَواكن في عصر المماليك

لم أجد أي ذكر لمدينة سواكن في أوائل عصر دول المماليك بمصر إلا بعض حوادث تافهة لأنه منذ انتشار الإسلام ظهرت مدينة عيذاب . وكانت الطريق الوحيد لحجاج مصر والمغرب . فقضت عيذاب على البقية الباقية من شهرة سواكن التي كان يقيم بها ملك البجة . ويرسل سراياه منها إلى مصر . وفي سنة ٦٦٢ هـ أرسل سلطان مصر إلى أمير سواكن وجزائر دهلك[١] مندوباً يمنعهما فيه من التعرض إلى أموال من مات من التجار[٢] بالمدينتين .

وفي سنة ٦٦٣ هـ اشتكى تاج الدين بن القرطبي من قاضي القضاة إلى السلطان لتساهله مع صاحب (أمير) سواكن . وقال : « إن الأمراء الذين ماتوا أخذ ورثتهم أكثر من حقوقهم » . فأمر السلطان بإحضاره زيارة وأراه لمن حضر . وقال : « من يصبر على هذا الزيار يستكثر عليه إقطاع أو يستكثر على ورثته موجود يخلفه لهم » . ثم أمر بسجن ابن القرطبي . فتعلم مما تقدم أن أمير سواكن كان موضع ثقة السلطان . حتى أنه قطع لسان من طعن فيه . ويلوح لنا أن السلطان أمر والي قوص بإرسال بعثة عسكرية إلى سواكن . ففر أميرها إلى البادية سنة ٦٦٤ هـ ١٢٦٥ م[٣] حالما وصلت الجنود . وكان الغرض من مجيء الجيش هو للتحقيق معه عما اقترفته يداه .

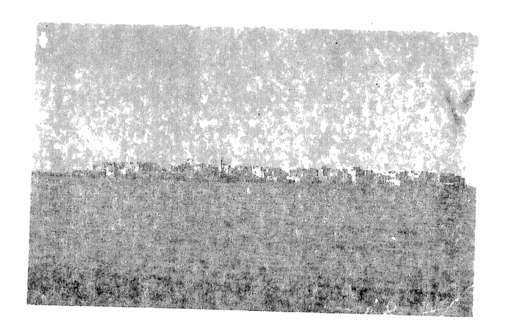
ثم عزل وولي مكانه أحد الأرتيقة . وهو الشريف علم الدين من علمونياب (علمن) Almanoyab . ولأول مرة في تاريخ سواكن تنتقل الإمارة من

(١) السلوك للمقريزي .

(٢) العادة المتبعة بإقليم البجة أن الملك أو الأمير هو الوارث الشرعي لكل غريب أو أجنبي (مهما كانت جنسيته أو ديانته) . كما وأنه يندر أن ترث إناث البجة من آبائهن أو امرأة متزوجة في قبيلة أجنبية أباها أو ذا قرباها ، ولا شك أنها ستزول يوماً ما وينتشر العدل والإنصاف .

(٣) كان من البليين (بلويب) .

البليين (الحدارب) إلى الأرتيقة . وعلم الدين هذا هو الذي حدثت في أيامه واقعة صحراء عيذاب بين عرب جهينة ورفاعة قتل فيها جماعة منهم . استاء السلطان[1] من سماعها وسنوضحها عند ذكر (الصلح بين المتخاصمين) . وفي السنة المذكورة أنشأ الصليبيون فابريقة لصنع السفن في خليج العقبة . وغزت هذه السفن موانىء البحر الأحمر مثل سواكن وعيذاب[2] وجدة وينبع . وألحقت بالمسلمين أضراراً جسيمة سنذكرها في عيذاب .



وفي سنة ٦٦٥ هـ أمر السلطان استخراج الزكاة من أهل سواكن ومن الجزائر المجاورة لها . ومن المؤسف أن كتاب ابن سليم[3] الأصواني (الذي نقل عنه المقريزي تاريخ البجة والنوبة) . لا يزال مفقوداً . وبفقده ضاع منا أكثر تاريخ البجة بل معظم

(١) وضع يده على مكة المكرمة والمدينة المنورة كما استولى على سواكن وغيرها من المراسي البحرية وقد خضع لسلطته عرب الصحراء الشرقية .

(٢) كانت خسائر البجة كبيرة جداً ستوضحها عند ذكر عيذاب .

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن سليم الأصواني مؤلف كتاب ـ أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل . ـ يقول المستر بروخهارت اللوزاني أنه بحث عن هذا الكتاب سنة ١٨١٤ م طيلة إقامته بالقطر المصري فلم يعثر عليه وكذلك فعل غيره من المستشرقين ونعوم بك شقير .

تاريخ السودان . ولم يبق لدينا إلا نتف صغيرة في كتب متفرقة نادرة الوجود . ولولا خطورة السير في هذه البوادي بين أهلها النائين عن المدينة والحضارة في العصور المظلمة لما حرمنا مؤرخو العرب المسلمون والغربيون من رحلاتهم المتعة .

ولا يتسنى لمؤرخي اليوم التدوين الصحيح لتاريخ أي قبيلة ما لم يكن من أبنائها الذين يجيدون لغتها ، ويعلمون عاداتها الداخلية والخارجية ، فبيدهم وحدهم زمام الحقائق ، لأن عادات سكان إقليم البجة تقضي عليهم بعدم الاطمئنان لغير بني جلدتهم مهما كان البحاثة الأجنبي صديقاً أو مخلصاً ومقرباً . ولذلك لا يعتد بكتابة الأجانب في كثير من الشؤون الداخلة في صميم حياة البجاويين خصوصاً ما كان خاصاً بالخلافات القبلية ، أو الحروب أو الثورات فإنهم يخفونها لئلا يحاسبوا هم وأحفادهم بموجبها . ويجب على الرحالة أن يكون حافظاً لأكثر أشعار السكان وأمثالهم ، وبنفس لغتهم فإنها النبراس أو الضوء الوحيد الذي يعينه وينير السبيل أمامه على كثير مما حدث في الزمن السالف ، واليوم لا خطورة على من كان معروفاً لدى القبائل إلا من الوحوش[١] وهي قد بدأت في الانقراض (إلا في حدود أرتريا) .

وكان أمراء جزر البحر الأحمر خصوصاً أمير سواكن وأمير دهلك يعترضون على السفن المحملة ببضائع التجار التي تؤم عيذاب وترسو خطأ في أو بقرب باضع (مصوع) أو سواكن ، ومن ذلك ثلاثة سفن محملة بالبضائع وهدايا من أمير اليمن إلى سلطان مصر استولى عليها أمير سواكن بين ٧١٦ / ٧١٧ هـ (الشريف علم الدين) ، وأمر السفن بأن تستأنف سيرها بعد أن أفرغت حمولتها فلما وصلت عيذاب أخبرت نائب السلطان بما حدث ، وهذا بدوره نقل النبأ إلى السلطان الذي أرسل خمسمائة فارس تحت قيادة الأمير علاء الدين مغلطاي فساروا إلى قوص ثم إلى عيذاب ومنها إلى سواكن[٢] فالتقت الخيالة بقبيلة تدعى الهلبكسة[٣] وكانوا نحو الألفي راكب على

---

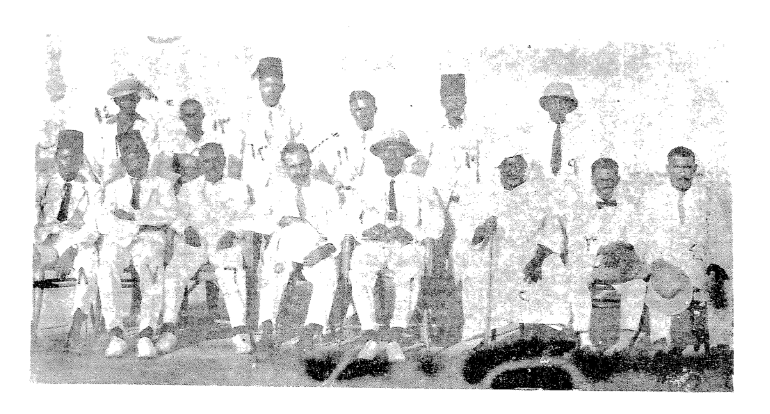
(١) قضيت زهرة شبابي وكهولتي وأنا أرتاد القرى والبوادي في الجبال والسهول الواقعة بين عيذاب شمالاً ومصوع جنوباً وشرق نهر النيل حتى سنار وأم حجر بالحبشة .

(٢) سمع الشريف علم الدين بما أضمره له السلطان فأخلى سواكن .

(٣) الغالب أنهم بنو هلبة سكان مديرية دارفور الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى السودان ، إذ أنني لا أعرف قبيلة بهذا الاسم المحرف . وقد تخلفت عائلة من بني هلبة وانضمت لقبائل الحباب بشرق السودان .

الهجين بحراب ومزاريق في خلق من المشاة عرايا الأبدان فلم يثبتوا لدق الطبول ورمي النشاب ، وانهزموا بعدما قتل منهم عدد كبير . وسار العسكر إلى ناحية الأبواب ، ثم مضوا إلى دنقلا ، وعادوا إلى القاهرة بعد أن طهروا سواكن من دكتاتورية وقرصنة الشريف علم الدين الذي هرب من سواكن إلى طوكر بقضه وقضيضه ، وأهله وعشيرته . أما الأمير علاء الدين فقد نزع الإمارة من ألمنوياب سواكن وردها إلى أصحابها (الحدارب) وتفرقت ذرية الشريف علم الدين في كل أنحاء خور بركه وعطبرة والقاش .





اول لجنة لفريق السواكنيين الرياضي ببورتسودان سنة ١٩٢٦ م

١ ـ أحمد أفندي محمد (رئيس) ٢ ـ الشيخ أوشيك حسين (عضو) ٣ ـ جعفر أفندي إبراهيم (سكرتير) ٤ ـ صالح أفندي جمعة دبور (أمين صندوق) ٥ ـ حسين ملاسي (عضوا) ٦ ـ محمد صالح ضرار (مستشار) ٧ ـ ياسين إبراهيم الفنى ٨ ـ عطية محمد سعيد ٩ ـ محمد الشاذلي ١٠ ـ مصطفى الشنباوي ١١ ـ عبد ربه عارف (كلهم أعضاء) ١٢ ـ حسين عبد الرحمن الجرتلي (الحكم) ١٣ ـ عبد الدايم حسن شكور (مراقب الحدود) ١٤ ـ أمين شاذلي (الحكم الاحتياطي) .



فريق السواكنيين الرياضي ببورتسودان سنة ١٩٢٦ م

(١) محمد فهمي طوهيو (حارس مرمى) (٢) شرف الدين عبد الله (دفاع أيسر) (٤) عبد الرحمن عبد الله (قلب دفاع) (٨) أحمد الدمياطي (قلب دفاع) (٥) حسين امام (دفاع أيمن) (١٠) علي ماقيت (وسط الدفاع) (١١) الله جابو الدروبي (وسط الدفاع) (٧) يوسف كردي (قلب هجوم) (٦) عمر ادريس (قلب هجوم) (٣) ابراهيم فضل (جناح أيسر) (٩) رجب بازرعة (جناح أيمن)

البرتغاليون بسواكن

زار الأسطول البرتغالي فجأة ميناء سواكن سنة ٩٢٢ هـ ١٥١٦ م أياماً ثم أقلع منها قاصداً من زيارته معرفة حالة الموانيء في البحر الأحمر. إذ علم أن الأسطول المصري لا محالة سيشتبك وإياه في موقعة حربية. وفي هذه الأثناء كانت جيوش السلطان سليم تتقدم نحو أرض الشام لاحتلال القدس ثم مصر.

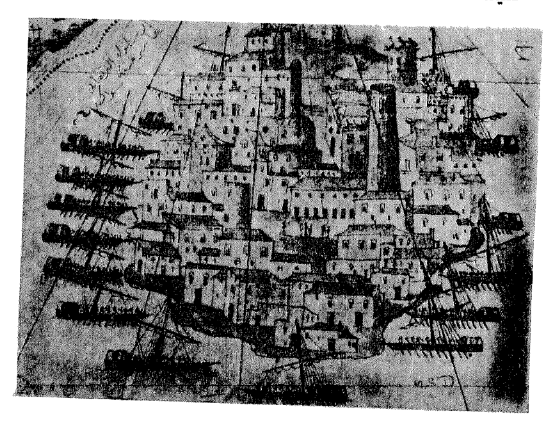
كان سلطان مصر (الغوري) بعيد الهمة شجاعاً جداً. فأكمل استعداده وأرسل أسطولاً ضخماً لقتال الأسطول البرتغالي وتحطيمه أينما يجده. وأعطى سفينته الخاصة لأميرال أسطوله فأبحر الأخير يرتاد موانيء البحر الأحمر الرئيسية مؤملاً العثور على خصمه. فلما لم يجده خرج من باب المندب إلى المحيط الهندي[1]. وهنالك التقى الأسطولان ونشبت بينهما معركة بحرية انتهت بانتصار البرتغاليين الذين غنموا سفينة السلطان الخصوصية واستولوا على كل ما كان يحمله الأسطول المصري من الميرة والعتاد الحربي وقتلوا رجاله الشجعان وابتلع اليم بعضهم.

وتعزى أسباب الهزيمة إلى بعد الأسطول المصري عن قواعده، ومبادرة البرتغاليين في اختيار محل ميدان القتال المجاور لمستعمراتهم الهندية (مقاطعة جُوا)، حتى يسهل تموينه وترميم ما يصيبه من العطب. هذه رواية بعض المؤرخين الذين يقولون أن الواقعة كانت في المحيط الهندي إذ أن الأميرال فرنسيس ألِمَيدَه (قائد أسطول البحر الأحمر البرتغالي) شعر بقوة الأسطول المصري فأرسل إلى أميرال أسطول الهند البرتغالي مستنجداً به. فلما اجتمع الأميرالان رسما الخطط البحرية التي بمقتضاها يقضيان على خصمهما وأولها اختيار المحل الذي يريدان أن تكون فيه المعركة الفاصلة. وهؤلاء البرتغاليون ظهرت سفنهم وتجارتهم في البحر

(١) مصر الظافرة سنة ١٩٤٦ م (مجلة الجيش المصري).

الأحمر في القرن الخامس عشر (بعد سنة ١٤٩٧ م) واستولوا على بعض أجزاء الهند الساحلية وشواطىء الصومال ، وشرقي أفريقيا ، وأرتريا ، كما حاولوا فتح مدينة عدن مرتين ، انتصر فيها عليهم إمام اليمن وطردهم منها نهائياً . وامتلكوا ناصية التجارة بين الشرق والغرب .

وبينما هم في هذه الانتصارات والغزوات سمعوا بأن فتوحات السلطان سليم العثماني بدأت في التقدم إلى الشام متجهة نحو القطر المصري . ولا شك أن هذا النبأ كان سيقض مضاجع البرتغاليين وأسطولهم الذي بيده ناصية موانىء البحر الأحمر والمحيط الهندي . وذاع في الشرق والغرب أن السلطان سليم إذا عزم على شيء لا بد من تنفيذه .



الاسطول البرتغالي يحاصر جزيرة سواكن في القرن الخامس عشر للميلاد .
نقلا عن صورة في كتاب بمملكة الفونج ؛ للمستر كروفورد والصورة من رسم دي كاسترو البرتغالي الذي كان في أسطول ستيفانو دى جاما البرتغالي الذي جاء بنجدة لإمبراطور الحبشة في حروبه ضد الإمام أحمد قران .

وتحقق لدى البرتغاليين أنه لاريب أن سيستولي السلطان سليم على مصر وهذا ما لا يريدونه أن يتم، ولذلك اتصلوا بملك إسبانيا كي يرسل جيشاً وأسطولاً لاحتلال ميناء زيلع الصومالي. كما عرضوا على ملك فرنسا الاستيلاء على سواكن (باب السودان) وتحصينها، وهم (البرتغاليون) يتولون احتلال مصوع (باب أثيوبيا) خوفاً من ظهور الأسطول التركي في البحر الأحمر (في المستقبل) فيمحون أعلام الصليب وسفنه منه. وكان عمانويل ملك البرتغال قد أرسل خطابا إلى البابا يوليوس الثاني في سنة ١٥٠٥ م يستأذنه في الجهاد في سبيل المسيحية حتى يجعل أرض الحرمين هدفاً لمدافعه وجنوده[١] عن طريق البحر الأحمر. أما الأميرال ألميده البرتغالي فقد أخذته نشوة النصر وبدأ في تعزيز أسطوله وتقويته استعداداً للصدام المتوقع، وكانت قاعدته مدينة مصوع التي أرسلوا منها النجدات العسكرية إلى النجاشي حينما توالت انتصارات المسلمين بقيادة الإمام أحمد قران على مسيحيي أثيوبيا[٢].



---

(١) The Romance Of Me Portuguese In Abyssinia By Charles F. Rey

(٢) ذكرنا نبذة من حياته وحروبه في كتابنا تاريخ ارتريا والصومال.

سُكَّانُ جَزِيرَةِ سَوَاكِنَ

كان يسكن جزيرة سواكن في القرن السابع عشر الميلادي[1] كقول البرتغالي[2] « إن جزيرة سواكن يسكنها مائة من الترك ويقيم بها الباشا (المحافظ) خارج نطاق الإمبراطورية العثمانية » .

وسواكن في الأصل تابعة لملك قوي محارب تسمى مملكته دولة بلو ، وجميع سكانها من العرب ويؤيد ذلك الأب لولو[3] بأن مملكة بلو الإسلامية كانت منتشرة إلى الغرب من سواكن في القرن السادس عشر الميلادي . وكان بينهما وبين الأتراك نزاع طويل انتهى بالاتفاق بينهما على اقتسام الأموال التي تجبى من تجارة جزيرة سواكن . وأمة البلو أمة عربية ممتازة استوطنت بلاد البجة لحكم سكانها من قبل ظهور الإسلام الذي كانت هجرة معتنقيه من أكبر أسباب زوال ذلك السلطان الذي لم تبق من آثاره إلا القليل في مدينة مصوع . وقال مونزنجر باشا[4] حكمدار شرق السودان وقنصل دولتي فرنسا وانجلترا سابقاً في مصوع،عندما استولى الترك على مصوع في القرن الخامس عشر[5] وجدوا البلو حكاماً لها ، ولما حولها ، وقد خلفوا (الترك) حامية من الجند لم تلبث أن اختلطت بالسكان مثل أهل سواكن الذين توالدوا في الأتراك .

---

(١) (يقصد القرن السادس عشر الميلادي حين حاصر البرتغاليون سواكن ، ولكن لم يذكر اسم الكتاب . وقد حاصر سواكن ستيفانو دي جاما أميرال الاسطول البرتغالي في البحر الأحمر وشواطيء الحبشة آنذاك) (ض)

(٢) حذف المؤلف اسمه من الكتاب وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية .

(٣) السودان الشمالي للدكتور محمد عوض محمد .

(٤) دراسات عن شرق أفريقيا .

(٥) استولى الترك على مصوع في القرن السادس عشر بعد ظهور البرتغاليين ومساعدتهم لملك الحبشة . وكان احتلالهم لمصوع في عام ١٥٥٧ م . (ض)

سواكن في عصر الفونج سنة ٩١٤هـ - ١٥٠٨م

امتدت سلطة السلطنة الزرقاء إلى سواكن أيام الملك عمارة (دونقس) واشتبكت جيوشها مع أمير سواكن وهومن الحدارب ، وانضمت قبيلة الأرتيقة إلى جيوش الفونج ، وقاتلت الحدارب الذين انهزموا ورحلوا من سواكن وتفرقوا في البوادي المحاذية لجبال سنكات وأركويت . فعين قائد جيش الفونج (وهو من العبدلاب) - الأمير عبد الله بوش الأرتيقي - أميراً على مدينة سواكن ، وكان قد أبلى في القتال أحسن بلاء ، وكذلك أهله . فاستعادت سواكن شهرتها التجارية وبدأ العمران والحياة يدبان في شرايينها . وظهر عليها الانتعاش والتقدم ، وخضعت بادية إقليم البجة للسلطنة الزرقاء ، إلا الهدندوه فإنهم تحصنوا بالجبال من خيالة الفونج . واستمرت فتوحات القائد نحو الجنوب حتى وصل مصوع . أما مملكة (نظارة) بني عامر فقد خضعت لسنار ، وسافر ملكها (دقلل) - Diglal - همد بن موسى ومعه شيخ مشايخ سواحل بني عامر (الشيخ جمع بن عجيل بن علي محمد شرار) ، وشيخ مشايخ جبال بني عامر (الشيخ همد بن إدريس هاسري)[1] إلى سنار لتقديم الطاعة والتعهد بتحصيل الزكاة ممن تحت سلطتهم من القبائل . وكانت هذه الزكاة تسلم سنوياً لمندوب ملك سنار . كما كان هذا المندوب يحمل كساوي شرف (من الدمور) وسيوفاً[2] ويقدمها هدية من الملك للمشايخ والعمد والزعماء .

وزار سواكن حوالي ٩٧٠ هـ ١٥٦٠ م الشيخ عجيب المانجلوك ابن الشيخ عبد الله

---

(١) وعند قرب عودتهم أدركهم الشيخ حمد حسال عميد بيت معلا وكذلك الشيخ عمر شوم زعيم الحماسين وقد وهب له الملك نحاساً وفصله عن بني عامر ، والأول بقي في محله .

(٢) وغيرها مثل الخيول العربية والرقيق والنحاس والأوتار التي تضرب في الربابة لكل قبيلة ، فأعطى للشيخ جمع وتر ، بيطاي ، والثاني سَبَبْ Beital And Sabab وهما محظوران على أي قبيلة أخرى غيرهما لليوم .

جماع[1] كبير وزراء مملكة الفونج قاصداً أرض الحرمين . وحال وصوله نزل هو وحاشيته ضيوفاً على أمير الأرتيقة (الأمير عبد الله بوش) . ثم طلب مصاهرة أبناء عمار بن محمد كاهل . فأرسل الأرتيقة في طلب الشيخ فاضل بن عمار من عاصمة نظارته (أكْرَ رِبَاي Akra - Ribai) وتعريبها « الجبل القوي » بجوار محطة كُمُسانا Kamosana، فحضر ومعه أخوه عشيب[2] ووافقوا على المصاهرة بقران الشيخ عجيب بمريم بنت الشيخ عِشِيبْ[2] . ثم تفقد الوزير المدينة وأحوالها . فعلم الصعوبة التي يلاقيها أهلها في الحصول على ماء الشرب[3] . فأمر بعمل حفير في جهة الفولة جنوب المدينة . واستغنى الأهالي عن المياه المرة والبعيدة . ثم أبحر الشيخ عجيب إلى الحجاز وهنالك أنشأ رواقين للسودانيين (السناريه) أحدهما بمكة المكرمة والثاني بالمدينة المنورة . وكان يصرف عليها وعلى الثالث وهو بالأزهر الشريف بمصر من خزينة السلطنة الزرقاء حتى دالت دولتها سنة ١٨٢٠ م على يد الخديوي محمد علي باشا . ففقد القطر السوداني استقلاله الذي لم يرده إليه إلا الإمام محمد أحمد المهدي فحرر البلاد من الاستعباد وسقطت على يده الخرطوم في يناير ١٨٨٥ م بعد مقتل الجنرال غردون الذي تنصل من قتله كل الذين هجموا على السراي . ولكن المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الرحيم أشار تلميحاً بأن قاتليه كانوا من السواكنيين والباركوين (وهما المرحومان دقليل [أبو زينب] وعيسى كرشون بن باركوين الهدندوى والأول من البلويب والباريا). والأستاذ محمد عبد الرحيم يكتب بصدق وأمانة عن تاريخ السودان وهو عندنا أكبر مرجع بلا منازع . وقد عاصر الحرب الاستقلالية منذ فجر المهدية .

وبهذه المصاهرة توثقت عرى الولاء بين السلطنة الزرقاء والأمارأر والكميلاب ، الذين تزوج الشيخ عثمان عجيب بابنتهم (إِيلَقَدْ) وتعريبها « ذو الرجل البيضاء » إذ

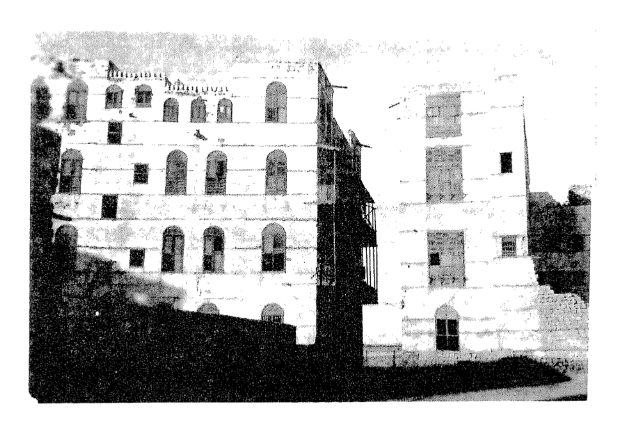
---

(١) كان يلقب بالسيد . وكذلك ابنه الشيخ عجيب الذي والدته بنت الشريف أبو زنانة .

(٢) هذه كانت عادة وزراء العبدلاب إذ يصاهرون القبائل ثم يجعلون النظارة في ابنهم من بنت القوم . وهذا ما حدث في الحلنقا والأمارأر إذ بعد أن رزق الشيخ عجيب ولده عثمان من مريم عشيب أرسل إليه سيفا صقيلاً وممتازاً ونحاساً وطاقية من الذهب السناري وككرا (كرسي الحكم) وثياباً من الدمور والخيل العتاق وأمر بأن يكون ناظراً على عموم الأمارأر .

(٣) كانوا يأتون من مسافة يومين من الجبال شرق أركويت كما هو الحال في محمد قول اليوم .

كان يلبس في رجله اليمنى سواراً من الفضة حتى تكون ثقيلة تعوقه عن الجري من الأقران في ساعة القتال. واستفاد من مصاهرة الأمارأر أيضاً الأرتيقة إذ تزوج الشيخ قول ـ Goul بابنة عشيب الكبرى قبل مجيء الشيخ عجيب، ورزق منها ولداً، ثم ارتحل إلى ميناء ـ بأيديب Baideib وافتتح فيها محلًا تجارياً كبيراً جلب إليه البضائع من سواكن وجده ومصر. فلما توفي استمر ابنه محمد في تحسين المحل حتى أطلق عليه اسم محمد قول. ولولا مراعاة الأمارأر لهذا النسب لما نجحت تجارة الأرتيقة في تلك الأنحاء لأن التعصب القبلي كان على أشده في تلك العصور[1].



وفي سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م أرسل السلطان سليم العثماني خطاباً إلى الملك عمارة دونقس (ملك سنار) يدعوه إلى الطاعة. فأجابه عمارة «أني لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي. فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله ﷺ. وإن كان لغرض مادي

(١) لم يبق من ذريته إلا ثلاث بنات ليس لهن عقب من الذكور.

فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية ، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق ، ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية » . وأرسل له مع الخطاب كتاب «أنساب العرب » جمعه له الإمام السمرقندي (أحد علماء سنار) . فلما وصل الكتابان إلى السلطان سليم أعجبه ما فيهما وعدل عن حرب سنار ولا يزال هذا الكتاب في خزانة كتب الأستانة[1] . وكانت فتوحات الملك عمارة دنقس[2] تناولتها الركبان ، وانتشرت أنباء انتصاراته في الشرق والغرب وامتدت من أقصى منابع النيل إلى ضفاف البحر الأحمر وعبرت أنباء ميلاد دولته الإسلامية البحار النائية والأصقاع القاصية .



(١) قال شقير بك بحثت عن نسخة من هذا الكتاب في السودان فلم أجدها ، ولكن العبد الفقير (مؤلف هذا الكتاب) تحصل على نسخة خطية من هذا الكتاب في مدينة شندي وسننشرها في تاريخ بني عامر والفضل في ذلك يعود إلى الهمة التي بذلها الأخ محمد أحمد أبو الدهب والشيخ محمد إبراهيم بك ناظر عموم الجعليين .

(٢) كان يلقب بملك الشمس والظل وقد دام ملكه اثنين وأربعين عاماً .

سَوَاكِنُ وَرِحْلَةُ رُوبِيْنِي سَنَةَ ٩٢٧هـ - ١٥٢٠م

David Reubeni

يحدثنا المستر هليلسون أن أول رحالة إفرنجي كتب رحلته إلى سنار عن طريق سواكن هو داود روبيني ، إذ قال:« قمت من جدة وأنا مريض ومعي خادمي الأصم الأبكم[1] . فبلغنا سواكن بعد ثلاثة أيام بلياليها في البحر على ظهر سفينة :

غدوليَّـة أو مـن سـفين ابن يامـنٍ يجـور بهـا المـلاحُ طـورا ويهتـدي

واستأجرت منزلاً بها حتى لا يكون عليّ رقيب يطلع على حقيقة حالي . ثم علمت أن جماعة من التجار يريدون السفر إلى مملكة سوبة . فاتصلت برئيسهم وهو من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ويدعى عمر أبو كامل . فاستأجرت لرحلتي جملين وأخبرت عمر بأنني سأرافقهم فوافق . ثم تحركت القافلة المؤلفة من ثلاثة آلاف جمل . وأظهرت التقوى كما تظاهرت بصوم التطوع فسرنا في غابات وأودية وسلاسل من الجبال ، وأنهار . ثم بعد شهرين بلغنا مملكة كوش بن كنعان (الفونج) وكان ملكها يدعى عمارة . فلما لقيته أعطاني منزلاً . ووجدت منه كل عطف واحترام خصوصاً لما علم أني شريف مكاوي[2] . فكان يصطحبني معه في كل رحلاته الشهرية . وقد وهبني أربعة من العبيد ومثلهم من الجواري ، أهديتهم بدوري للملكة لكي أنقذ نفسي من كشف حالي وافتضاح حقيقتي . وبقيت في سنار عشرة أشهر جاءنا في أثنائها (أنا وأبو كامل) شريف ثالث يريد أن يصحبنا . قال داود : وأخذت من الملك خبيراً وفرسين حتى وصلت سوبة[3] . فوجدت بها صاحبي (أبو

---

(١) ولولا ذلك لافتضح أمره لأول وهلة كيف لا وهو اليهودي الحريص . انظر كيف اختار لخدمته الأصم الأبكم . (راجع مقالته في السودان في مذكرات ومدونات العدد « ١٦ ») ض.ص . ض .

(٢) كل الذين يفدون علينا بالسودان من أمم الشرق وبعض الشمال دائماً يدعون الشرف أو السيادة . وهذا اليهودي ادعى الشرف زوراً وبهتاناً وانطلت حيلته على المسلمين لكثرة الدجل والنفاق وإظهار المحبة للملك وكثرة الدعاء له بطول العمر .

(٣) أدركها بعد أن دمرتها جيوش عمارة دونقس وبدأ الناس في الرحيل عنها إلى سنار (العاصمة الجديدة) .

كامل) الذي استاء من الملك عمارة لما لم يعطني شيئاً من الهدايا . وقال لي « أقمْ أنت هنا بمنزلي هذا وأنا آتيك منه بالهدايا » . ثم رجع عمر إلى الملك عمارة ولكن داود روبيني ادّعى أنه رأى والده في المنام يقول له « اهرب بجلدك من هذه البلاد » . ففر من ليلته قبل عودة عمر الذي أبت عليه شهامته أن يعود صديقه بخفي حنين . وهي خصلة عامة يتحلى بها أكثر الأرتيقة فإنهم نعم الأصدقاء عند الشدائد والملمات لا يتوانون عن بذل نوالهم ، أو دمائهم في سبيل إنقاذ صديقهم مهما كلفهم الأمر . ومما يؤخذ عليهم أنهم لا يحبون أن يتقدمهم في مضمار الحياة أي إنسان ينتمي إلى قبيلة أخرى من قبائل إقليم البجة . خصوصاً في المدن الحضرية . ولولا أن ليست لهم أراضي في البادية لأنشأوا نظارة مثل الهدندوة وبني عامر والأمارأر فأهل البوادي منهم اليوم تابعون للأولى إذ أكثر مواشيهم ترعى في أراضيها .

ولو التفتوا كأسلافهم وأعطوا العلوم والمعارف قسطها بدلاً من حصر همهم في التجارة والزراعة[1] لما شُقّ لهم غبار . وكل مدينة صغيرة أو كبيرة يتخذونها محلاً لإقامتهم يصاهرون رئيسها . ولذلك تجدهم يأمنون غائلة الخصوم والأعداء . وقد أنشأ الأرتيقة نادياً بمدينة بورتسودان لم يشترك فيه أحد من أبناء البجة الذين يرجعون في أصولهم إلى النظارات الخمس (بني عامر وهدندوه وأمارأر وبشاريين وحلنقة) . ويكاد أن يكون خاصاً ببعض أهل سواكن ممن نزحوا إلى بورتسودان في طلب العيش . وسنذكر بقية الأندية في تاريخ بورتسودان .



(١) لا يزاحمهم في هذين المضمارين إلا الهدندوه . ويمتازون عنهم بإقدامهم واندفاعهم نحو طلب العلم ويعود الفضل في ذلك إلى ناظرهم الشيخ محمد محمد الأمين ترك الذي أخذ على كاهله نشر المدارس للبنين والبنات في جميع بوادي الهدندوة . ولن تدرك شأوهم أي قبيلة إذ قطعوا شوطاً بعيداً في عصر ناظرهم الزاهر . وقد تغنى كثيرون من شعراء البجة بمآثره الخالدة وأعماله التليدة .

سَوَاكِنُ وَالْفُتُوحَاتُ الْعُثْمَانِيَّة

تطلق هذه على زحف الجيوش التركية من أوروبا والأناضول على شمال أفريقية بقيادة السلطان سليم العثماني حوالي سنة ٩٢٣ هـ ١٥١٧ م . فبعد انتهائه من فتح الشام توجه نحو مصر بجيوشه الجرارة . ففتحها بعد أن قتل السلطان قانصوه الغوري[١] . وتعزى أسباب تفوق الأتراك الحربي إلى المدافع والأسلحة النارية التي كانوا يستعملونها ضد خصومهم . وبعد أن استتب له الأمر في مصر طلب حضور الخليفة المتوكل على الله (آخر خلفاء العباسيين) وأخذ منه الآثار النبوية وهي الراية والسيف والبردة ومفاتيح الحرمين وعاد السلطان ومعه الخليفة إلى اسطنبول[٢] بعد أن ترك القيادة العامة لسنان باشا[٣] الذي بدأ بإنشاء أسطول في مدينة السويس لفتح اليمن . وتطهير البحر الأحمر من الأسطول البرتغالي الذي كانت قاعدته مصوع[٣] . ففي سنة ٩٣٧ هـ خرج سنان باشا بأسطوله إلى البحر الأحمر لمنازلة الأسطول البرتغالي . فانتصر الأول على الثاني وهزمه وكسر شوكته . وفرت فلول السفن البرتغالية من البحر الأحمر . فاحتل سنان باشا سواكن وجدة ومصوع وزبيد اليمن والحديدة وموخا (موخع) وزيلع . وعين في كل مدينة موظفاً تركياً ينوب عنه ومعه حامية من الجنود ، وجعل الجميع تحت سلطة والي (حاكم عام) الحجاز . أما السلطة الإدارية فتركها بيد الوطنيين . ولم يكن للمحافظ التركي إلا تحصيل الرسوم الجمركية . وكانت أسواق سواكن التجارية تحت سلطة الأرتيقة الذين كانوا يتحصلون الزكاة من حصة الجمرك وأموال الأهالي . ويدفعون منها لمندوب ملك الفونج نحو ألف ريال تركي سنوياً .

---

(١) دائرة معارف وجدي .

(٢) لها أسماء كثيرة أشهرها القسطنطينية والآستانة والدار العلية ودار السعادة .

(٣) قبل الفتح التركي كان الأميرال استيفاو دى غاما Dom Estevao Da - Gama محتلاً لمدينة السويس والأميرال - دون جوان دى كاسترو Don Joan De-castro محتلاً لثغر سواكن ،وكانت سفنهم التجارية تنقل البضائع من الهند إلى السويس ثم بطريق البر إلى الاسكندرية ،ومنها بحراً إلى البرتغال .فكانوابمأمن من تعطيل تجارتهم بسبب احتلال الموانىء المذكورة .

سواكن والعصر التركي

لما تعين المحافظ التركي على سواكن بأمر الأميرال سنان باشا[1] ترك معه مائة جندي تركي[2] لحفظ السلطة والنظام الإداري في كل مايرد من البحر . إذ أن الداخلية كان مسؤولاً عنها أمير الأرتيقة الذي استصدر فرماناً (وثيقة من السلطان) بهذا التقسيم[3] . واتفق المحافظ مع الأمير على أن تكون إقامته هو والحامية بالجزيرة لأن الأمير هو المسؤول عن القيف وسائر ضواحي سواكن . وعلمت من مشايخ الأرتيقة أن أول من تولى منهم الإمارة هو الشريف علم الدين ، ثم البوشاب ، ثم الدّسّيابْ ثم الكُرباب [4] . وهم الى اليوم أمراء سواكن (١٩٥٥ م) وحكومة الحكم الثنائي لم تعترف لهم بالإملرة حتى أنها لما حكمت على سواكن بالخراب وبدأت في تعمير الشيخ برغوث (بورتسودان) ، وهاجر إليها كل من بسواكن لم تفكر في ترحيل أمير الأرتيقة إلى المدينة الحديثة ولو من قبل العدل أو الإ نصاف . واليوم نحن في عهد الحكم الوطني الزاهر ونريد أن ينظر لهذه العائلة بغير عين الاستعمار السابقة .

وأول محافظ تركي اشتهر بالعدل والتقوى هو نور الدين باشا . هذا وقد مر على

---

(١) أصله طلياني التحق بخدمة السلطان بعد أن اعتنق الدين الإسلامي .

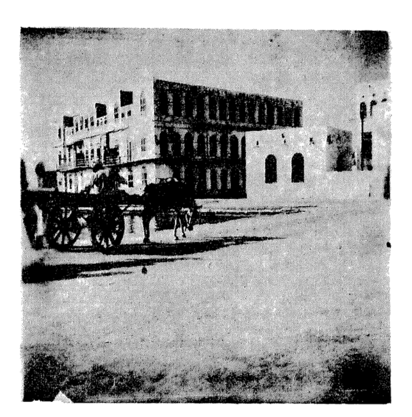
(٢) يقيمون بالمدينة نهائياً ويتزوجون من أهلها ويندمجون فيهم ولذلك لن تجد قبيلة من البجة إلا وفيها من نسل هؤلاء الأتراك . ويتوظف بنوهم حالما تخلو الوظائف بحكم الوراثة .

(٣) كانت هذه الوثيقة تجدد كلما تعين أمير جديد على سواكن . ولما جاءت الحكومة الثنائية احتال أحد قضاتها المدنيين في سنة ١٩٠٣ م على الأرتيقة وانتزعها منهم بقصد ترجمتها ثم ردها . ولكن للأسف ماطلهم في إعادتها حتى تقرر نقله فقبضوا عليه ولكنه استنجد بالأميرلاي محمد بك أحمد (قومندان بوليس البحر الأحمر) وادعى بأنها ضاعت منه وسيبحث عنها ثم يردها على يد سعادته فتركوه .

(٤) غير كرباب الامارأر وكلمة كُرْبْ تعريبها ـ الفيل ـ أو الضخم ، توجد عدة وثائق ثمينة عند الشيخ حسن جيلاني بك أرتيقة وعند الشيخ الأمين محمود بك أرتيقة .

سواكن كثيرون من الحكام الأتراك ولكنهم للأسف لم يتركوا لنا سجلاً أو كتاباً يصف حالة سواكن أثناء حكمهم غير الرحالة الذي كان في القرن السابع عشر الميلادي واسمه « أوليا شلبي Evliya Gatabi - سنة ١٦١١/ ١٦٨٢ م باللغة التركية (سياحة عالم) في عشرة أجزاء طبع في اسطنبول سنة ١٩٣٨ م .

ففي الجزء العاشر من هذا الكتاب وصف لسواكن وسنار وقد زارهما المؤلف في سنة ١٦٧٢ م - ١٦٨٣ م . وسمعت أخيرا أن هذا الجزء سيعرّب في مصر قريباً، ولكن مضت عدة سنين ونحن في انتظار هذا التعريب . وسمعت بكتاب آخر من تأليف الرحالة ابن حوقل[1] الذي زار سواكن وما حولها في سنة ١٠٠٠ من الميلاد . وذكر أسماء عدة قبائل اعتراها التحريف من الإفرنج ولقي في سواكن الأرتيقة والكرباب



قصر علي شاويش في جزيرة سواكن

(١) نقل عن كتاب هذا الرحالة المستر كروفورد O. G. Crawford في كتابه مملكة الفونج . Fung _ Kingdom

والحدارب كما التقى بالرقبات والمنسع وغيرها . فمن مؤلفات ابن حوقل التي لم نعثر عليها كتاب المسالك والممالك ، وكتاب صراط الأرض ، وهو في الجغرافيا . وعنه أخذ علي فهمي بك في كتاب « قوة المسلمين البحرية في شرق البحر المتوسط » وتزداد قيمة المراجع لو أمكن الحصول على مثل هذه الكتب .

ومن أنظمة التوظيف في أيام العصر التركي ألا يقبل في دخول المعاش أي موظف وطني أو أجنبي . فكان الوطنيون يضيفون اسم أي مدينة تركية بعد اسم أبيهم مثل : محمد زكي ميشلي ، وموصلي ، واسطنبولي ، وكورْكُتْلي . نسبة إلى مدينة ميش والموصل واسطنبول وكركوت . وبهذه الطريقة نال أهل سواكن المعاشات حتى انضمت سواكن في سنة ١٨٦٥ م إلى السودان . فلغي نظام الخدمة التركي .

ولم يهتم الأتراك بسواكن وأحوالها التجارية أو العمرانية . بل جعلوها هي ومصوع وزيلع قواعد حربية يجب أن تبقى تحت يد الدولة العلية وأن يخفق فوقها العلم التركي . وبقيت كذلك حتى نشب القتال بين تركيا واليمن . فأصبحت هذه الموانئ استراحات للجيوش الذاهبة للقتال والجرحى العائدين من حومة الميدان . ويبقى الأخيرون نهائياً بمحل شفائهم . وحرب اليمن استمرت بينهم وبين الأتراك عدة قرون . حتى كانت سنة ١٩١١ م حيث عقدت معاهدة صلح بينهما اعترفت فيها تركيا باستقلال اليمن وإمامة يحيى حميد الدين .

ونظام تجنيد الجندرمة (البوليس) في تركيا عند إرسال الشبان الترك إلى المستعمرات العثمانية . هو أن تأخذ الحكومة من كل عائلة شاباً من متطوعيها ويتألف من العائلات التي في كل مدينة ما لايقل عن ثلاثين متطوعاً . ثم يرسلون إلى إحدى المدن مثل سواكن ، أو مصوع ،أو ينبع ، ويقيمون فيها نهائياً . وكل منهم يدعو صاحبه بكلمة همشري Hamshari وتعريبها ابن بلدي . أو بلدينا .



سواكن في عصر محمد علي باشا

زار مدينة سواكن السائح السويسري بورخهارت اللوزاني سنة ١٨١٤ م وقد انتدبته الجمعية الجغرافية البريطانية لرحلة يقوم بها في شمال السودان وشرقه ، فدرس اللغة العربية في سوريا ومصر . ثم بارح مصر مع إحدى القوافل إلى السودان حتى وصل شندي ، وهو يدون كل صغرى وكبرى يسمعها من أفواه الناس ، أو يشاهدها في الطرقات . وهذا هو ديدن الأوربيين فإنهم يعدون عدة الاستعمار واحتلال الأقطار بإيفاد مثل هذا الرحالة ، واعتماد كل مدوناته وإرشاداته حتى يتم استيلاؤهم على القطر الضعيف . فاحتلال الإنجليز لمصر والسودان لم يبدأ سنة ١٨٨٢ م أو ١٨٩٨ م . بل بدأ العزم على احتلال الأخير منذ أن طاف بالبحر الأحمر والحبشة ثم بالسودان من منابع النيل الأزرق حتى مصر ذلك الرجل الشجاع المدعو «مستر جيمس بروس أو يعقوب الحكيم[1] James Bruce».

وقد احتفل الأسطول البريطاني بإطلاق المدافع إجلالاً لتحيته ، ووداعاً لشخصيته[2] عندما ركب السفينة التي أقلته إلى مصوع (باضع) ثم منها إلى داخلية الحبشة ، ثم إلى سنار لدراسة حالة مملكة الفونج حتى عاد إلى القاهرة ، ينتقل في الممالك الحبشية والسودانية متحملاً تلك الصعوبات والخطورات خدمة لأبناء وطنه ، حتى يقتفوا آثاره والاستعداد لاستعمار ما يسهل هضمه من الأراضي المكتشفة . وقد تم احتلال مصر والسودان ، فغزا نابليون مصر واستعمرها ، ولكن عثرت انكلترا على أسطوله فدمرته ، وقضت على قوة فرنسا وأخرجتها من القطر المصري ، ثم جاء محمد علي باشا وحافظ على استقلال مصر . وقد تنبأ الشيخ فرح ولد تكتوك[3] بجميع الحوادث في السودان ، وله في كل حادثة أبيات كثيرة حققتها الأيام . وقد أدى فريضة

---

(١) هكذا كان يدعو نفسه .

(٢) كان بعضهم يظنه من أفراد العائلة المالكة البريطانية . وقد استغرقت رحلته خمس سنوات تقريباً .

(٣) هو بطحاني كان من أولياء الله الصالحين الذين اشتهروا بالألغاز الشعرية .

الحج ومعه جماعة كثيرة من السودانين . وقد تمت الأحداث التي تنبأ بها فمن قوله[1] :

أنا البطحاني العارف باطن الزمان
اسمعوا من لساني ولا تروحوا بالهوان

وقال عن الإنجليز :

آخر الزمن يجوكن الانقليسا وعساكرهن البوليسا
يمسحوا الارض ديسا ديسا مافي فرج إلا عيسى

وقال عن مشروع الجزيرة :

بحر النيل الجاري مسكن الحوت والحواري
باكر يطلعوك بالضهاري حكامك فوقك تباري
وشغلك يبقى بالطواري

وقال عن أسلاك التلغراف والتلفون والقطارات واللواري :

يجيكن زمن السفر فيه بالبيوت والنضم بالخيوط

هذا بخلاف مرثياته لعلماء وزعماء السودان وأخيه بليل التي أولها :

وين دشين قاضي العدالة إلى ما يميل للضلالة
نسله نعم السلالة أوقد نار الرسالة

إلى أن يقول في نهايتها :

وين بليل صاحب المروة لامّ الشجاعة مع الفتوة
الدنيا ضربتنا بقوة ومحل الأنيس بقي لي هوه

وين بليل صاحب المعارف من هو صغير فوق راسنا شارف
بطالة الدنيا دار الزوالف تيبسنى بعد المخاوف

Sudan Arabic Texts By Mr. S. Hillelson (١)

ولنعد إلى الخديوي محمد علي باشا . فإنه بدأ في بناء دولته الحديثة ، وتوطيد أركان ملكه . وإذا بالسلطان محمود العثماني يصدر إليه أوامره سنة ١٢٢٦ هـ /١٨١١ م كي يخرج الأمير سعود بن عبد الله آل سعود من أرض الحرمين لأن السلطان محمود عجز عن قتال السعوديين . بعد ذلك الجيش اللجب الذي أرسله لقتالهم سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م حيث قابلوه بيقين ثابت وقلوب كلها قدّت من حديد . ويُؤثَرُ عن أمير السعوديين (عبد العزيز) أنه وقف بين يدي ربه ، وقال « اللهم يامن تجيب الدعاء ولا تخيب الرجاء ، اكفنا السوء من مكر هؤلاء ، وأنزل غضبك على العصاة وبدد شملهم يارب العالمين ». فانتصروا وقطعوا الطريق بين العراق والحجاز (وتدور الأيام دورتها ويستولى في سنة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م على الحجاز والعسير) خادم الحرمين الشريفين إمام مكة المكرمة والمدينة المنورة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود أيد الله ملكه بنصر من عنده ، وحفظه هو وولي عهده سمو الأمير سعود ذخراً للإسلام والمسلمين . فطلب الخديوي محمد علي باشا أن يضم إلى أملاكه سواكن ومصوع ، فوافق السلطان[1] على شرط أن تعود إلى الحجاز بعد وفاة الخديوي الذي اتخذهما قاعدتين حربيتين وتجاريتين لتصدير كل حاصلات السودان والحبشة إلى الحجاز ومصر . وعين في كل من المدينتين محافظاً من قبله . وأمرهما باستعمال نقوده فيهما مع النقود السلطانية التي كان الأهالي يفضلونها على المصرية . وبينما الخديوي مشغول بحرب الوهابيين قام من دنقله حسن بك جوهر كاشف أحد المماليك في سنة ١٨١٢ م قاصداً مكة المكرمة للانضمام إلى الجيش السعودي لقتال عدو المماليك الأول محمد علي باشا الذي أبادهم ومحا سيطرتهم من القطر المصري حتى فروا إلى السودان ، وأقاموا بمدينة دنقله ، فركب حسن جوهر سنبوكاً من سواكن إلى جدة[2] وتولى قيادة الجيوش السعودية ، وأبلى بلاء حسناً في واقعة « تربة »[3] وانتزعها من المصريين ، وسار إلى المدينة المنورة ، وحاصرها ، وفي يوم ٢٦ ربيع الثاني

(١) صدر بذلك منشور عثماني سنة ١٢٦٣ هـ / ١٨٤٦ م تقريباً .

(٢) كان الشريف غالب قد خضع للسعوديين ، وهو الذي ساعد القائد حسن جوهر على الفرار من جدة إلى مكة المكرمة للقاء الأمير سعود بن عبد الله وتسليم حسن بك القيادة ونظم الفرق والألوية .

(٣) وهي قرية شرق مكة المكرمة - وكانت قيادة الجيوش المصرية بيد الخديوي نفسه ، فهزمت شر هزيمة ، واضطرت لإخلاء ما كان بيدها من مدن الحجاز فاستعان الخديوي بالدينار الأحمر وأغدق به على رؤساء القبائل الحجازية فمالوا إليه وتنحوا عن السعوديين .

سنة ١٢٢٩ هـ توفي الأمير سعود، فخلفه ابنه عبد الله بن سعود واستمرت الحرب بينهما سجالاً حتى قتل حسن بك جوهر. وأخذ الأمير عبد الله بن سعود أسيرا إلى مصر سنة ١٢٣٣ هـ، ثم أرسل إلى إسطنبول، وهنالك قتلوه. وهدأت الحالة في الحجاز وفكر الخديوي في فتح السودان وادّعى أنه يطارد المماليك والحقيقة أنه يريد من السودان أربعة أشياء[1].

الأولى: توسيع الرزق لمناصريه من الأتراك والألبانيين الذين قهر بهم المماليك وحل قوتهم.

الثانية: استئصال شأفة المماليك الذين لم تزل بقيتهم سائدة على مديرية دنقلا في السودان.

الثالثة: الاستيلاء على معدن الذهب في سنار الذي طارت أخباره إلى جميع الأقطار، وكثرت فيه الأقوال الموضوعة والقصص المصنوعة ولا سيما في مدينة القاهرة.

والرابعة: إمداد جيشه برجال السودان وكان للسودانيين يومئذ شهرة وصيت بعيد في البأس والشجاعة. والجندي السوداني هو أشجع من سكن أفريقيا، وكفاه فخراً أنه هو الذي فتح السودان ١٨٩٨ م، أما دعوى الخصوم بأن الجيش المصري والإنجليزي هما اللذان فتحا السودان فباطلة إذ لم يسترد البلاد من أهلها الشرعيين غير تلك الفيالق من السودانيين التي كان يقدمها اللورد كتشنر وضباطه في الصف الأول من النار ثم المصريين ثم بعدهم الإنجليز، فأخمدوا نار استقلالنا. ليت بني وطني يعلمون أن الإنجليز جردوا لقتال السودانيين في سواكن كل جيوشهم وجيوش مستعمراتهم كالهند واستراليا والاسكوتلانديين والإيرلنديين والمصريين والمرتزقة من المغاربة والأتراك، وكان الغرض من جلب هذه الجيوش الجرارة إدراك غردون باشا وفك حصار الخرطوم

فباءت جميعها بالهزائم والفتك الذريع برجالها فوق سهول سواكن وبطاح توكرْ، وقرّ، قرارهم أخيراً أن فتح السودان مستحيل مالم يجندوا كل سوداني بالقطر

---

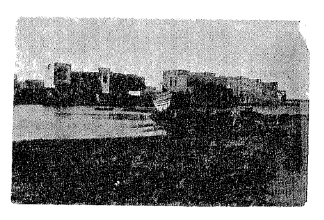
(١) تاريخ الحرب السودانية لجبرائيل حداد الطرابلسي.

المصري إذ لا يفل الحديد إلا الحديد . ولولا ذلك لبقي استقلال السودان سليماً إلى اليوم سنة ١٩٥١ م ولما رزحنا تحت الاستعباد الأجنبي الذي نئن من شدة وطأته علينا وهو جاثم كالكابوس على صدورنا ونحن في اختلافاتنا عنه لاهون ،وبما يقدمه لنا من الفتات قانعون . ولن نتخلص منه إلا بالاتفاق وتوحيد الجبهة للمطالبة بحقوقنا الشرعية كسائر الأمم الحية .

فلما كانت سنة ١٨٤٩ م انتقل سمو الخديوي محمد علي باشا إلى جوار ربه . وبدأ ضغط الإنجليز على تركيا يشتد وفي كل حركة ينزعون منها مقاطعة مثل عدن وقبرص وكمران والكويت(١) وأخيراً مصر . أما سواكن ومصوع بعد وفاة الخديوي فإنهما عادتا إلى ولاية الحجاز ، مع أن باديتهما تابعة للقطر السوداني .

قال المستر نيكولز في كتابه الشايقية (The Shaikia-by W . Nicholls) :

« وكانت سياسة الخديوي محمد علي باشا(٢) الاستيلاء على ضفاف نهر النيل وجزائره ، وأن يكون هو السيد على كل من يشرب من مياهه ابتداء من الحبشة حتى البحر الأبيض المتوسط . وقد أعد لهذه الفتوحات عشرة آلاف جندي وبستة من المدافع بقيادة ابنه البرنس إسماعيل الذي قال أثناء قتاله للشايقية أنه يدفع خمسين قرشاً لكل من يأتيه بأذني شايقي لإرسالها لوالده . ولذلك لم يكتف جنوده بقطع آذان الأموات والجرحى بل الأحياء . لأن هذه القبيلة عاقت تقدمه واستبسلت في قتال جنوده المدربين» .



---

(١) وبربرة وزيلع . ودمروا استقلال هرر وسلموها لإثيوبيا .

(٢) كانت معه مائة وخمسون سفينة .

سَوَاكِنُ وَعَطْبَرَة

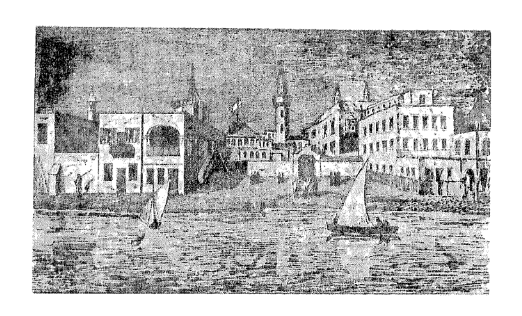
انتدب سمو الخديوي محمد علي باشا جناب المسيو لينان لكي يرسم طريقاً لنهر عطبرة يخترق بادية قبائل الهدندوة وسهولها وجبالها ووديانها ، حتى يصب في مدينة سواكن . إذ أن في هذا النهر أهم الروافد التي تأتي بمياه الري محملة بالغرين الذي يخصب الأرض[1] .وكان المسيو لينان يرى أن من الميسور جداً تحويل مجرى نهر عطبره حتى يصب في البحر الأحمر عند مدينة سواكن ، إذ يجري هذا النهر عبر سهول وأراضي رملية ، كما أن بين عطبره والبحر الأحمر آثاراً تدل على أن يد الإنسان حاولت أن تشق مجرى أو قناة . وفي أثناء طوافي بين ضفتي هذا النهر سنة ١٩٥٥ م رأيت أن وزارة الزراعة انتدبت بعضاً من المساحين لمسح تلك الأراضي الواقعة على الضفة الغربية لإرواء أراضي البطانة حتى تكون صالحة للزراعة مثل أراضي الجزيرة . وطبعاً هذا يسبب حرماناً كبيراً لقبائل البجة عموماً والهدندوة خصوصاً (سكان الضفة الشرقية) ويتنافى مع الإنصاف البشري والعدالة الوطنية ، بل إذا تم فإنه هو الغبن والظلم بعينه . ولا توجد أي فوارق بين تزبة الضفتين سواء في الخصوبة أو المساحة أو كثرة السكان . فحصر الفائدة في جهة واحدة وسكانها ليس فيه أي انصاف إذ يجب أن تكون المساواة رائد الحكومة بين جميع القبائل السودانية . ونحن نحذر الحكومة من تفضيل زيد على عمرو في مصالح الملايين من السكان ، بل يجب أن تمسح الأراضي الشرقية أيضاً ثم توزع المياه بالقسطاس الحكيم .

وفي أحد اجتماعات أروما نبهت رجال الزراعة بالقاش كي يعنوا بهذا الموضوع الحيوي ، ويفكروا في مد قناة من أقرب نقطة بين نهري عطبره والقاش حتى يتصلا ببعضهما ، ويستفيد الأهالي من اتساع الري في القاش وامتداده . في تلك السهول

---

(١) بناء دولة محمد علي باشا لعبد المقصود العناني .

الواسعة التي امتلأت بالسكان بسبب هجرة القبائل من الشمال والشرق إلى الغرب طلباً للزراعة والمرعى لقلة الأمطار بمساكنهم. وأمر الخديوي إسماعيل مدير كسلا كي يجربوا زراعة القطن على ضفتي سهول نهر عطبرة. فنجحت نجاحاً باهراً حتى أن الخديوي أمر بإنشاء محلج في قوز رجب سنة ١٨٧٢ م. وبدأ في إرسال آلاته عن طريق سواكن، وكذلك آلات محلج كسلا وتوكر، وكل هذه الآلات باقية إلى اليوم خارج سور سواكن لم يتمكنوا من إرسال أجزائها لصعوبة النقل والمواصلات.



مرسى سواكن في ١٨٨٥ م كما رسمه جوسايا

عمار سواكن قديماً

قال مؤلف كتاب دول البحار «اشترك في تعمير سواكن عناصر عديدة غير البجة وأولهم العرب ، خصوصاً في القرن الخامس عشر ، وقصدها تجار من حضرموت واليمن والهند والبرتغال» .



منظر مدينة سواكن من الجنوب



منظر جزيرة سواكن من الشرق

الحكومة الوطنية بسواكن

كانت مدينة سواكن (الجزيرة والقيف) عبارة عن مستعمرة عثمانية تابعة للدوله العلية منذ احتلال سنان باشا لها . ولم يكن لتركيا أي سلطات على ضواحيها النائية وباديتها التي كانت تابعة للسلطنة الزرقاء كسائر القطر السوداني . ولما افتتح الخديوي محمد علي باشا السودان سنة ١٨٢٠ م وقضى على دولة الفونج أصبحت جميع البلاد السودانية تابعة لحكمدارية الخرطوم ماعدا مدينتي سواكن ومصوع ، وقد اضطر سلطان العثمانيين على منحها مؤقتاً للخديوي محمد علي باشا . ولم يكن للأتراك أي غرض في الاستيلاء على غير الموانىء حتى لا تتخذها الدول الأوربية قواعد تغزو منها الأقطار الاسلامية خصوصاً الجزيرة العربية . بل أرض الحرمين بعد أن لقب سلطانها « بخادم الحرمين الشريفين[1] » ولذلك منح السلطان أهل الحرمين عدة امتيازات . (أولاً) عدم تجنيدهم . (وثانياً) عدم تحصيل أي رسوم أو عوائد أو ضرائب سواء من الأهالي الحضريين أو أهل البادية . (ثالثاً) جعل مرتبات سنوية للأشراف وزعماء العشائر ... الخ . وكذلك كان الحال في سواكن ومصوع لأنهما معتبرتان من مدن الحرمين .

الأمن العام :

يتولى مسؤوليته أحد زعماء الأرتيقة . ومعه ثلاثة ضباط مساعدين من أقاربه يعينون البوليس والخفراء . ويسهرون على نشر السلام والاطمئنان بين الأهالي جميعهم على اختلاف جنسياتهم وأديانهم ومعتقداتهم .[2] وإذا حدث أي اضطراب يتولون تهدئته بطرقهم المتعارفة .

---

(١) لما عاد السلطان سليم من فتح مصر والحجاز وحضر صلاة الجمعة في جامع حلب فختم الخطيب دعاءه بقوله، اللهم انصر خاقان البرين وسلطان البحرين . خادم الحرمين الشريفين . ارتاح السلطان للقب وسجد شكراً لله . واستمر هذا الدعاء في جميع المستعمرات التركية بما في ذلك مصر والسودان حتى سنة ١٩١٥م إذ دخلت تركيا الحرب ضد إنجلترا فأمرت بإلغاء الدعاء للسلطان التركي نهائياً .

(٢) كل أجنبي يقيم في سواكن أكثر من سنتين يعتبر (سواكني عثماني) وقد لغي العمل بهذا القانون بعد سنة ١٨٦٥ م إذ انضمت سواكن إلى السودان فأصبح السواكنيون جميعهم سودانيين .

المالية :

كان يتولى الإدارة المالية سر التجار (شاه بندر تجار) وهو من الأرتيقة . وله خمسة مساعدين وكتبة . يشرفون على كافة المرافق المالية . فيقيم جماعة منهم مع المندوب التركي بالجمرك لتحصيل الرسوم على كافة البضائع الواردة من الخارج عن طريق البحر بالبواخر أو السنابيك . وإذا زاد الإيراد عن أربعين أوقية من الذهب أو ما يعادل ثمانمائة ريال إسباني (أبو مدفع) سنوياً[1] . فإن المندوب التركي يتنحى عن العمل لأنه قد جمع الجزية المقررة على أمير الأرتيقة وهي كما سبق ذكرها . وكل مازاد عنها يدخل في الخزينة الوطنية .

الدخولية :

كل ما يرد إلى سواكن من البادية وسائر أنحاء السودان الأخرى تتحصل عليه رسوم بسيطة . بمعرفة هيئة خاصة تضم أعضاء من أهل كسلا وشندي وبربر ووكيل من قبل نظار قبائل إقليم البجة برئاسة أحد تجار الأرتيقة . وكل عضو مسؤول عن توريد رسوم نزلائه إلى خزينة الدخولية . ويتساهل أمير الأرتيقة مع التجار في تحصيل الرسوم لأن أكثر التجار من أقاربه وأصدقائه . وأكثر الرسوم هي على الرقيق والخيول . فالرسم على العبد ريالان . والحصان ثلاثة ريالات . لأمير الأرتيقة نصف ريال للضيافة والباقي يورد في خزينة المالية .

الصلح بين الناس :

الأرتيقة هي القبيلة الوحيدة الموفقة في الصلح بين المتخاصمين في هذا الإقليم . ورجالها مستعدون لبذل أموالهم في سبيل إرضاء المتخاصمين ولو كانوا من قبيلتين مختلفتين . ويعترف لهم كل من له معرفة أو إلمام بعادات أهل هذا الإقليم . ويتمثلون دائماً بمثلهم « وهو أن القضايا المعقدة التي يصعب حلها اثنان . تقدير قيمة الجروح . ومعضلة الزوجين المختلفين » . أما ما عداهما فإنه سهل الحل . ولهم ماض مجيد في الصلح . تشهد لهم به مدونات التاريخ . وأكثر شاهد على كلامنا هذا هو أن سلطان

---

(١) في موسم الحج تكون الجزية ثلاثة آلاف ريال . ولا يتمسك أمير الأرتيقة مع التجار الأجانب لئلا تنتقل الأعمال التجارية من والي داخلية السودان عن طريق كسلا ثم مصوع أو طريق أبو حمد ثم أصوان .

مصر في سنة ٦٨٠ هـ[١] أرسل خطاباً إلى الشريف علم الدين أمير سواكن يطلب منه فيه أن يوفق بين عرب جهينة ورفاعة ، وألا يعين طائفة على أخرى خوفاً من فساد الطريق . وقد حدثت حروب متوالية ووقائع متعاقبة بين هذين الرهطين سفكت فيها دماء غزيرة بين عيذاب وبادية سواكن . فحالما تلقى الشريف علم الدين كتاب السلطان أرسل رسله إلى رؤوساء القبيلتين كي يحضروا إلى سواكن ، فامتثلوا ، وتم عقد الصلح بينهما بدون أي مشقة ، وارتحلا من إقليم البجة إلى ضفاف النيل وهما على أتم اتفاق .

وأول شيء يبدأ به الأرتيقة عند اجتماع المتخاصمين هو أخذ العهود والمواثيق ، ويسمونها (قَلَدْ Galad) على عدم الاعتداء . وكل الأهالي في هذه البادية يخشون من الحنث في القَلَدْ أو العهد ، وهو بمثابة الأيمان الغليظة . والقضايا مهما تعقدت لا ييأسون من البت فيها بصلح يرضي الفريقين المتخاصمين حتى يصادفهم التوفيق ، فيحلونها بدون كبير عناء ، خصوصاً إذا طالت عليها المدة مادام القَلَدْ باقياً ومانعاً للخصمين من إتيان أي شيء يَشتمُّ منه رائحة نقض العهد . والأرتيقة نِعْمَ الأصدقاء عندما تدلهمّ الخطوب وتتساقط الملمات والنوائب على صديقهم ، فينجدونه بالمال والنفس والنفيس حتى تنقشع عنه تلك المصائب والنكبات . إن ما دونتُهُ من أخلاق هؤلاء الغطاريف ما هو إلا عن معرفة حقيقية وخبرة تامة ، إذ نشأتي بسواكن كانت بينهم وأنا ابن ثمان سنين ، وهأنا اليوم نيفت على الستين ، فكل ما دونته عنهم ما هو إلا عن دراية تامة ودراسة مستوفاة عن كثب يندر أن يعلمها غيري ، لا سيما وأنني خبرت بيئاتهم ودخائلهم وخصوصياتهم وعمومياتهم في سواكن وتوكر وكَسلا والعقيق . فهم القوم الذين يضرون أنفسهم في سبيل منع الأذى عن صديقهم . انظر الى ذلك اليهودي (داود روبيني) الذي ادّعى النسب الهاشمي ، كيف أن السيد عمر أبو كامل وهو من أعرق عائلات الأرتيقة[٢] أكرمه ونال شهرة واسعة في كل أنحاء السودان ، وهو الحامي لكل القوافل الذاهبة والآيبة من مدن القطر السعيد ، ولا بأس أن نستشهد فيما بعد بما قاله المستر بروخهارت عن الأرتيقة وما اتصفوا به من حميد الخصال في التجارة والاجتماع .

---

(١) السلوك للمقريزي .

(٢) تعريبها . شريف أو نبيل . ولا تطلق على سواهم من رؤساء القبائل الأخرى .

الصحة العامة

لم يكن بالمدينة طبيب لأن أهلها لا يميلون إلى أدوية الأطباء. وإذا احتاجوا إليه فينتظرون طبيب البواخر الخديوية. ويندر وجود أمراض خطرة اللهم، إلا الجدري، ولا يهتمون به كثيراً لأن سكان المدينة كانوا دون العشرة آلاف نسمة.

المجلس الأهلي.

ينعقد هذا المجلس برئاسة أمير الأرتيقة، وعضوية رؤساء كل المصالح من الوطنيين. ويحضره المحافظ التركي للنظر في كافة شؤون المدينة ولأعمال لجان المصالح الأخرى. وهذا التنسيق في العمل كان مستمراً حتى استأجر سواكن سمو الخديوي إسماعيل باشا من سلطان تركيا، فعين لكل مصلحة أحد الموظفين المصريين، وأمر بتخفيض رتبة الإمارة إلى العمودية. وبدأ الوطنيون يشعرون بالاستعمار والحيف الذي أصابهم وانتزعت السلطة من أيديهم، ولم تترك لهم إلا الدخولية التي كان يشاركهم في إيرادها وكيل نظارة الهدندوة[1]. حتى هذه أيضاً تضاءل إيرادها منذ أن أمر الخديوي إسماعيل بمحاربة ومنع تجارة الرقيق.

في سنة ١٨٧٩ م شجر خلاف بين الأرتيقة والشيخ دفع الله حسيب. سافر الأخير بسببه إلى مصر شاكياً للخديوي، فأنعم عليه برتبة البكباشي ومنحه إيرادالدخوليةعن ثلاث سنوات، ثم أعيدت إلى الأرتيقة، ولكن أصبح إيرادها للحكومة والنصف الباقي للأرتيقة.

ولم تشترك الحكومات المتعاقبة على سواكن مع الأرتيقة في الشؤون الداخلية أو الاجتماعية أو القبلية إلا بعد انضمامها لسلطة الخديوي إسماعيل، وجاء الحكم الثنائي فانتزع منهم البقية الباقية بما أنشأه من المصالح[2].

---

(١) سواكن هي السوق الوحيد لجميع حاصلات ومواشي الهدندوة.

(٢) فجعل أمير البحر إنجليزياً وعين قاضياً مدنياً للقضايا المالية والجنائية. وجعل رسوماً جمركية على الصادر والوارد وأنشئت مصلحة للأشغال العمومية بدلاً من المجلس الوطني.

إمارة البحر

كان يتولى رئاسة مصلحتها أحد كرباب الأرتيقة ويلقب بأمير البحر، وهو يرأس الهيئة البحرية المؤلفة من أدلاء البواخر وغيرهم.

وهم مسؤولون عن كافة ما يرد من البحر أو يخرج إليها من سواكن. وقد أنشأ الخديوي محمد علي باشا ست بواخر تسير في موانىء البحر الأحمر بين السويس وعدن تمر على كافة الموانىء والثغور التي على جانبيه. أما رسوم أمير البحر فهي ريال على كل سنبوك في الدخول، وخمسة ريالات على البواخر، ومثلها عند خروجها، وتدفع الشركات الرسوم المذكورة.

كسوة شرف

كانت الحكومة التركية والمصرية تهديان ملابس خاصة لأمراء الأرتيقة (ورؤساء المصالح الأخرى). مثل الطربوش المغربي والشال الكشميري، والمركوب الأحمر والعباءة والشاهية (لبس الشاه) والقفطان، كما أن للأمير لبساً خاصاً في المواسم والأعياد وهو عبارة عن كسوة شرف حمراء أو بنفسجية، وسيف وحزام حرير.

الاستقالة

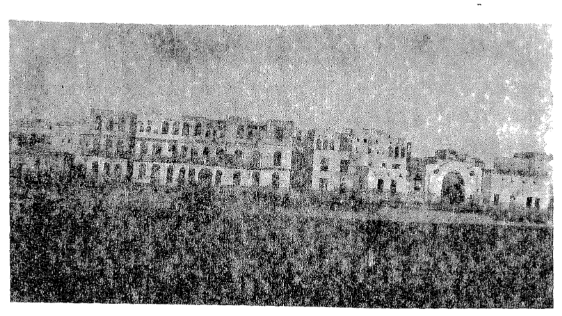
كل من يريد الاستقالة من منصبه (من الأرتيقة) يضع كلّ ما لديه من هبات الحكومة بمكتب الحاكم ويضع معها مهرة (ختمه)، ولا تكون هذه إلا في الأمور التي يستعصى حلها. وفي سنة ١٩٢٢ م زار سواكن مدير المعارف واجتمع بالأعيان وتباحث معهم في نقل مدرسة سواكن الوسطى إلى بورتسودان. فرد عليه محمود بك عثمان أرتيقة (عمدة سواكن) بقوله: «سواكن عبارة عن دجاجة كبيرة جميلة شبعتم من أكل بيضها، ثم ذبحتموها ونتفتم ريشها، وأكلتموها وقذفتم إلينا بعظامها». فقال له: «ماذا تعني؟» فقال: «أعني إنكم اتصلتم بكل المديريات السودانية عن طريق سواكن، فهل يصح أن تخربوها؟». فرد عليه: «نحن فتحنا السودان عن طريق مصر، أما أنتم فقفلتم أمامنا طريق إنقاذ غردون باشا، ثم إن بورتسودان مدينة عصرية زارها اللورد كرومر، والخديوي عباس باشا حلمي، وجلالة ملك بريطانيا

وإمبراطور الهند (جورج الخامس) . لذا ستكون لها أهمية كبيرة بين موانىء العالم الحديثة » .

وجاء بعده المستر تبتس في سنة ١٩٢٣ م واجتمع بالأعيان والتجار وقال لهم : إن أحدكم ضرب بالدجاجة مثلاً لخراب سواكن . فرد عليه محمود بك :« أنا الذي رددت عليه بذلك وهذا أقل ما يجب علي أن أقوله دفاعاً عن بلدي وموطن آبائي وأجدادي » . فقال له :« طلبنا منكم الرحيل إلى بورتسودان وتعهدت لكم الحكومة بمنحكم أي مساحة تريدونها من أراضي بورتسودان منحة من الحكومة فرفضتم إلا أقلية من المستوطنين . ولا يزال هذا الامتياز باقياً لكم » . وانتهز بعضهم تلك الفرصة ونال الامتياز ولكن بأسعار اسمية .

وأهل سواكن بحكم الفطرة يميلون إلى الأعمال التجارية أو العمل في البيوتات التجارية .

ولبعضهم ولع شديد بالسفر في البحار للتجارة بالسنابيك . وكانوا يجازفون بأرواحهم في التجارة المحظورة مثل الرقيق والتمباك وخلافه[1] .



(١) يقول بورخهارت إن أبناء سواكن جميعهم يحسنون العوم في البحر على طريقة السويسريين . وهي رفع الصدر عن الماء ومد اليدين إلى الأمام والرجلين إلى الخلف وبهذه الطريقة يمكنهم قطع المسافات البعيدة بسرعة .

التجارة بسواكن سنة ١٢٣٠هـ - ١٨١٣م

قال بورخهارت:« إن أركان التجارة في السودان هم الحدارب[1] سكان سواكن، وهم في الأصل من حضرموت. ودائماً تلقى جماعة منهم في أي مدينة بالسودان، فتراهم ببضائعهم في بربر وكسلا وشندي وسنار والأبيض والفاشر. وأثناء إقامتي بشندي شاهدت قافلتين قامتا منها إلى سواكن التي وصلت منها قافلة كبيرة جداً. ولا يمضي شهر إلا وترد فيه قوافل من سواكن وتصدر إليها بالمثل. وكذلك دأبهم في سوق سنار التي يسافرون إليها إما عن طريق شندي أو جوز رجب ». ولهؤلاء الأرتيقة معرفة تامة بجميع سكان السودان. وذلك مما يبرهن على أنهم من أعرق الأمم التجارية بالسودان. ولولا ما تحلوا به من الصدق والأمانة لما نالوا هذا الصيت الحسن، الذي عززته فيهم الرحلات المتوالية في البلاد المترامية الأطراف. ولا يبالون بما ينتابهم في الدفاع عن صديقهم أو جارهم. أما شجاعتهم فحدث عنها ولا حرج، إذ لا يتساهلون في أي حق لهم إلا باللين واللطف. أما بالعنف فإنهم يقفون كالصخرة الصماء ولو أمام حاكم قاهر فمحال أن تلين قناتهم. وسرعان ما يتألبون على من يمسهم بسوء، أو يحاول امتهان كرامتهم، فإنهم أباة الضيم. وهؤلاء التجار يسافرون ببضائعهم من سواكن حتى يصلوا سنار ودارفور، ثم يعودون بالرقيق والذهب وريش النعام والعاج والخيول العربية[2]، ويسافرون بها إما إلى اليمن أو الحجاز أو السويس. ولكل جهة بضائع خاصة تدر على أصحابها أرباحاً طائلة.

وقد بنى محمد بك الشناوي سراي كبيرة جداً سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م تقريباً

(١) كان يطلق على ملوك البجة من البلويب. ولكن اليوم أصبح لقباً خاصاً بالأرتيقة ومن يسكن معهم من سائر قبائل البجة (الهدندوة والأمارأر وغيرهما).

(٢) قيمة الحصان في شندي خمسة وعشرين ريالاً إسبانياً ثم يباع في اليمن بمائة ريال أو مائة وخمسين. أما الجمال البشارية (جيدة جداً) فتباع في جدة بستين أو سبعين ريالاً. وكل هذه الحيوانات ترحل بالسنابيك باعتناء شديد، ونولون كل من الحيوانين هو عشرة ريالات.

بالقيف[١] عند نهاية الكوبري مؤلفة من ثلاثة أدوار. وبها ثلثمائة وست وخمسين غرفة (بعدد أيام السنة الهجرية) بنظام هندسي جميل. فكان الدور الأعلى للنوم في الصيف. والثاني[٢] للسكن. والثالث أو الأسفل لخزن بضائع التجار. أما الساحة الفسيحة فهي للبيع والمزاد مثل البورصة. وتسمى هذه السراي وكالة الشناوي بك أو بورصة سواكن. ومساحتها لا تقل عن مائة في مائة متر مربع تقريباً، وكان بها معروضات الذرة وسن الفيل والصمغ والسمسم والقطن والسنامكي وكل محصولات السودان. وأما الواردات فهي من الهند وأوربا ومصر. وقد كانت شيئاً كثيراً جداً خصوصاً الدبلان والشاش (واردات مانشستر) ، هذا بخلاف الأقمشة الحريرية التي ترد من الهند في صناديق السيسم الأسود. وتجار سواكن هم الوحيدون الذين يشترون الأقمشة الحريرية من أسواق الحجاز ويصدرونها إلى أسواق السودان.

وتوجد بسواكن وكالة أخرى أيضاً لخزن البضائع تَعلُّق الشيخ عبد الله باحيدر[٣]. وهي أصغر من وكالة الشناوي بك. وتوجد مخازن أخرى للأهالي أيضاً.

لقد خلقت هذه المدينة للتجارة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب. وزاد في شهرتها التجارية موقعها الجميل. فتجاور الحبشة وأرتريا والحجاز واليمن ومصر وداخلية السودان. فكانت كافة البضائع تجتمع فيها إما للتصدير إلى داخلية السودان أو بالسفن إلى خارجه كمصر والحجاز واليمن والهند.

أما أهل سواكن فإنهم لم يجدوا من يزاحمهم على الأخطار التجارية في عصر مضطرب الأمن غير أهل بربر. فكانوا لا يقلون عنهم همة وأمانة. فكنت ترى

---

(١) اشترى أرضها من الشيخ محمود محمد التنكيرابي (هدندوة).

(٢) جعل الدور الثاني في الجهة الشرقية والجنوبية على شارعين رئيسيين وترك الجزء الشمالي والغربي كمخازن للتجارة.

(٣) وله مسجد لإقامة الصلاة بسواكن وكان كريماً جداً إذ قضى على ماله بالإنفاق على المساكين في سنة ١٣٠٦ هـ.

قوافلهم جميعاً تسير بين البلدين في الطريق الذي وصفه إبراهيم الفراش[1] . ولتجار بربر مكانة سامية عند أمير اليمن إذ كانوا يوردون له الخيول الجيدة . ويحدثنا بعض المؤرخين أنهم في القرن السابع عشر للميلاد كانوا يشترون الخيول من كافة أنحاء السودان ، ويبْحِرون بها إلى ميناء موخا اليمنية . ويصحبون معها سائر حاصلات قطرهم مثل الريش والعاج والرقيق والذهب . أما الخيول فكان يستلمها نائب إمام اليمن (الشريف حمود ملك اليمن) ، وتعرض سائر البضائع على التجار المقيمين بموخا من كافة أنحاء العالم . وكان بها سفراء للدول الكبرى كأمريكا وأنجلترا وفرنسا . وأحياناً يتنقلون ببضائعهم إلى سوق الحديدة واللّحية ، ولكل مدينة يوم خاص لعرض البضائع الأجنبية والوطنية فيقال:« سوق الخميس بالحديدة ، وسوق الاثنين بموخا » ، وأكثر التجار يسافرون إلى الحجاز للتجارة وأداء الفريضة .

---

(١) مطلعها ،

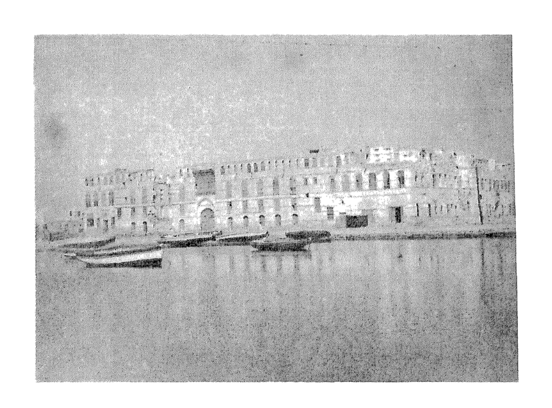
من بربر مرقنا على العديلة — وتبارك الخطوة يافارق النتيلة
جيت غاشي أب تغره المويه شيله — مبيت أم عطفه قاسى على مقيله

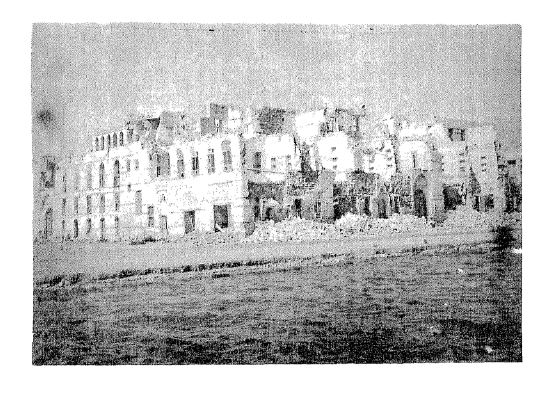
إلى أن دنا من سواكن فقال ،

من اللايميب سمّح وجيلو — وجاته الحاله دوماته بيسيلو
قال لي العلوق ياسيدي شيلو — الوعد ماسك له في كوكريب مقيلو
من كوكريب العيش أباه — يكربت بي سمح فرحان في غناه
أباداب الجبل جدعه بقفاه — جيت في هريتناديت زولا سقاه
من هريت حطيت فوقه حطه — يغمز بي كمان ياخد له نطه
جبل أودروس بدا وجيت هافّه هفّه — نزلت توبلال هناك فوق المحطه
من توبلال سلك خلى الغطاطه — وجاته الحاله سقرب بتلاته
بديت اسقيه انا وقاصد به شاطه — عصر هندوب سواكن بدرى باته

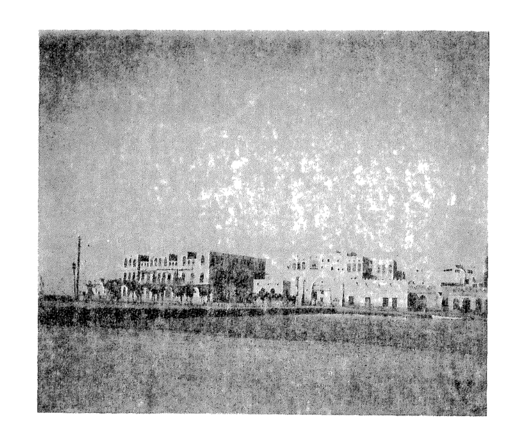
منظر للقيف المقابل للجزيرة

١ ـ وكالة الشناوي ٢ ـ الجامع المجيدي ٣ ـ جامع الاستاذ الكبير محمد عثمان تاج السر الميرغني ٤ ـ جامع الشناوي

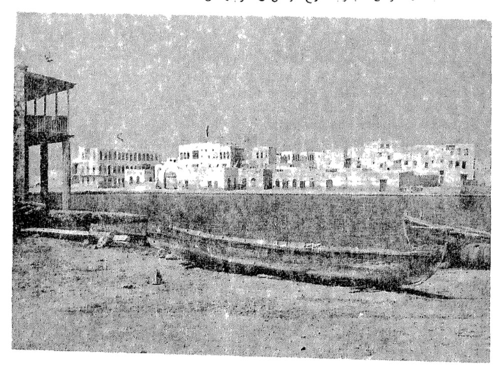




وكالة الشناوي كيف أخذت تتداعى على مرّ الأيام



احدى القوافل التجارية تبرح سواكن فى طريقها الى مدينة كسلا سنة ١٩١٩ م



منظر جزيرة سواكن من الغرب ١ ـ منزل محمد احمد شمس ٢ ـ منزل علي شاويش ٣ ـ مدرسة سواكن

التجارة بسواكن سنة ١٨١٣ :

قال بورخهارت: إن أحسن تجار تستفيد منهم سوق شندي وسنار وكردفان هم السواكنيون . لأنهم أغنياء جداً . وهم كثيرون . ويعاملون الناس بكل حرية ونزاهة . وكل تاجر منهم ينتمي إلى عائلة عريقة في المجد . ويمتازون عن تجار الوجه القبلي بحميد خصالهم وأمانتهم أثناء البيع والشراء . وصدقهم في أحاديثهم . كما أنهم ينتقمون بسرعة لأقل إساءة تمس كرامتهم أو شرفهم أو صديقهم أو جارهم[١] . وهم محترمون عند ملك شندي (الملك نمر) . أو ملك سنار لاحتياجهما إلى هداياهم القيمة . وميناؤهم (سواكن) هو أشهر وأهم ميناء لتصدير الرقيق .[٢] والخيول . والتنباك . والعاج . والصمغ . والذهب . والريش[٣] . وبعد عشرات السنين[٤] من هذا التاريخ كانت صادرات السودان عن طريق سواكن هي القطن[٥] والرقيق . والجلود . والذرة . والدخن . والسنامكي . والعاج . والبروش . والعسل . والشمع . والسمن . والسمسم . والصمغ . والزباد . والبن[٦] وسائر المحصولات السودانية .

التجارة بسواكن سنة ١٨٧٢ م :

وقد أحصى ما صدر من سواكن في هذا العام (١٨٧٢ م) فكان ٤٣٣١ طناً من الحاصلات . و ٣٤٦٠ قنطاراً من الصمغ صدرت إلى السويس . و ١٣٦٧ قنطاراً إلى جدة . وذلك بخلاف ٣٠٠٤٢ كيلو جراماً من العاج[٧] . و ٤٥١٤ أردب سمسم صدرت إلى جدة . يقول المستر أوغستوس وايلد: إن العاج الذي يشحن من الخرطوم يصل إلى سواكن في

(١) كان يتبع تجار سواكن بعض من تجار ينبع وجدة واليمن ومصوع فكانوا في حمايتهم حتى يعودوا إلى بلادهم سالمين .

(٢) كان عدد الرقيق الذي يصدر سنوياً من ميناء سواكن هو نحو ألفين وخمسمائة شخص .

(٣) تباع الأوقية من الذهب في سواكن بعشرين ريالاً إسبانياً وفي الحجاز باثنين وعشرين ريالاً .

(٤) أي حوالي سنة ١٨٧٢ م .

(٥) كان القطن يزرع في توكر والقاش وخور أودي الخصيب .

(٦) البن الحبشي يؤتى به من الحبشة عن طريق كسلا .

(٧) بيعت الأقة منه بنحو أربعة وخمسين قرشاً . وكذلك أردب السمسم يتراوح سعره من سبعين إلى مائة وأربعين قرشاً .

ظرف ستة أسابيع ، ثم يباع في انجلترا في ستة شهور أي قبل الذي يرسل من الخرطوم في نفس المدة عن طريق حلفا ـ مصر . ويرد إلى سواكن من الحبشة العاج والبن والصمغ . وأما الذهب فمن سنار . والسنامكي وريش النعام والصمغ من دارفور وكردفان . ومن مديرية كسلا وضواحيها يرد القطن والجلود وزيت السمسم والسمن والمواشي .

لقد فرغنا من صادرات القطر السعيد عن طريق سواكن . وها نحن نورد أهم الواردات من الخارج إلى سواكن ، السكر ، والشمع والصابون والأرز والأقمشة المصنوعة في مانشستر ، والحديد الوارد من بيرمنجهام ، وكل هذه الأصناف تصدر رأساً من سواكن إلى بربر لأنه أقرب طريق إلى داخلية السودان . وتسير القوافل ثلاث مرات في السنة . وكل قافلة لا تقل جمالها عن الألف والألفين وأحياناً ثلاثة آلاف جمل . وكانت رسوم الصادرات في تلك الأيام نحو ستين ألف جنيه . وكان يُقيم بسواكن جماعة من التجار الأجانب (هنود ومصريين وحجازيين وألمان وطليان وفرنسيين) .

تجارة الوحوش :

منذ أن فكر الغربيون في إنشاء حدائق الحيوانات ، تفرق صيادوهم في البلاد الآهلة بالمتوحشة أو الأليفة منها ، وقد سبقهم على ذلك البطالسة الذين اتخذوا عدة مخازن في سواكن وجزائر العقيق (باكَيّاي وما حولها) وبهدور (جزيرة ابن عباس) وعيري ومشاتيري ومصوع ودهلك . وأول غربي اطلعت على رحلته هو الدكتور ولهلم جنكر Dr . Wilhelm Junker[1] الذي سافر من سواكن إلى كسلا التي وجد فيها أحد الألمان المدعو (مستر شومترز Schmutzer) وكانت له زريبة جمع فيها حيوانات كثيرة من أرض الجمران[2] بنهر سيتيت كما لقي فيها جماعة أخرى من الأوروباويين لهم زرائب أيضاً بقرب التومات[3] . (أشهر الحيوانات التي يصطادونها هي: الأسود

---

(١) المطبوعة بالألماني سنة ١٨٧٥ م وترجمها إلى الإنجليزية المستر أ ـ هـ ـ كين Mr. A. H. Keane سنة ١٨٩٠ م .

(٢) رهط تاجوج والمحلق وهم فرع من الأرتيقة .

(٣) هما الدبتان الباقيتان إلى اليوم منذ مئات السنين ويقال لهما ـ تومات Toumat ود زائد ناظر عموم قبائل الضبانية .

والفيلة والزراف وحمار الوحش والنعام وفرس البحر والنمر ووحيد القرن) . وأسعار الجميع متقاربة فمثلاً الفيل الصغير كان الحمران والضبانية يبيعونه لهؤلاء الصياديين بمائتي ريال نمساوي .

الصناعة بسواكن :

لقلة المواصلات الداخلية والخارجية كان اعتماد أهل سواكن على صناعتهم المحلية كبيراً جداً ، فكان منهم الحدادون والنجارون والصائغون والبناؤون والنحاتون وهذا بخلاف صناعة الحصير (البروش) والشمل والبطاطين من أصواف البهائم ، ومن جلودها السروج والنعال والجرابات[1] .

عاصمة القوافل :

كانت مدينة شندي أكبر سوق للتجارة خصوصاً الرقيق في كل القارة الأفريقية . وترد إليها القوافل من مصر ودارفور وكردفان وسنار والحبشة والمغرب وجزيرة العرب (عن طريق سواكن ـ بربر أو سواكن ـ كسلا) ، وأرتريا (عن طريق مصوع ـ كسلا) ، فكان تجار هذه الأقطار يجتمعون فيها ، ويعرض كل منهم بضائعه ، ويستعيضون عنها بما يلزمهم من حاصلات الأقاليم الأخرى مثل الرقيق والتمباك والريش والعاج والخيل والذهب الخ الخ . . فإن السواكنيين ومن معهم من تجار الحجاز واليمن كانوا يشترونها ثم يصدر بعضها إلى الهند أو عدن ومنها إلى أوربا ما عدا الرقيق فإنه لا يتعدى الجزيرة العربية أو القطر المصري .

وفي سوق شندي تجتمع الأجناس الإفريقية والآسيوية وجميعها في حماية ملك شندي وهو من الجعليين[2] . وإذا توفي أحد التجار وليس له أقارب في القافلة فإن أمواله وبضائعه تحفظ وديعة في بيت المال تحت حراسة الملك ، وقد حدث في سنة

---

(١) دول البحار .

(٢) قال ابن سليم الأصواني أن هجرة العرب بدأت في القرن الثامن للهجرة وأول من هاجر كان من بني العباس وجهينة .

١٨٠٥ م أن توفي رجل إزميري اسمه بكير أغا جاء من مصر بقافلة لا تقل عن عشرين جملًا مملوءة بالبضائع التركية والشامية . فلما وصل شندي وأقام فيها أياماً توفي . وأمر الملك أن توضع بضاعته وجميع مخلفاته لدى أمين بيت المال . وأن تكون الجمال تحت مراقبة البوليس لمدة سنة[1] . ثم حضر أحد أقاربه بعد ستة شهور واستلم الأموال .

قال بورخهارت:« راقبت أصناف التجارة التي تأتي من سواكن فرأيت الدبلان والشاش (على أنواعه) والبنوه وهو نوع من القماش يحضرونه من مدراس وسورات (الهند) . وهذه الثياب لا تلبسها إلا الطبقة الأرستقراطية في شندي وسنار وكردفان . ولم يكن للسواكنيين مزاحم غير المصريين . وأما العطور الهندية والحرائر فهم وحدهم موردوها . ويتحكمون في أسعارها . كما وأنهم كانوا موردي الخرز والسوميت على أنواعه وخصوصاً الكهرمان . وكلها من واردات سورات . ويبيعونها في دارفور ودار صالح والبرقو لأن تجار هذه الجهات يفضلون هذه الأصناف على غيرها وقيمة الألف حبة من الكهرمان تباع في كردفان بست جوار مع أن ثمنها في شندي نحو مائة وعشرين ريالاً إسبانياً . وهو أروج تجارة لخفة حمله وغلو ثمنه .

أسعار الرقيق :

كان تجار سواكن يبعثون بالرقيق الذي يشترونه إلى وكلائهم بخطابات فيها أسعار كل من الرقيق والأسعار دائماً بالذهب . وكانوا يستعملون الأوزان الآتية وهي :

القمحة ثم القيراط وهو يساوي أربع قمحات . والدرهم يساوي ستة عشر قيراطاً . ثم المثقال ويساوي درهم ونصف والأوقية تساوي اثني عشر درهماً .

ولقد عثرت على خطاب مرسل من أحد تجار سواكن إلى وكيله بجدة بتاريخ غرة رمضان سنة ثلاثة ومائتين وألف هجرية يوضح فيه أسعار بضاعته من إناث

(١) تضاف إلى بيت المال إذا لم يحضر أهل المتوفى .

الرقيق فقال : [1]

الاسم	السعر بأوقية الذهب
آمنة	ثلاثة أوقية ونصف
خادم الله	ثلاثة أوقية
حليمة	أوقيتان ونصف
فضل العزيز	أوقيتان

* * *

(١) هذا يدلنا على أن التعامل بالريالات لم يكن منتشراً في ذلك العصر لقلته وثقل حمله .

الخديوي إسماعيل باشا[1]

هو الخامس من ولاة مصر من سلالة محمد علي باشا، والثاني من أولاد إبراهيم باشا ابن محمد علي.

ولد في سنة ١٨٣٠، وتولى سنة ١٨٦٣، وخلع سنة ١٨٧٩، وتوفي سنة ١٨٩٥.

وقد عني أبوه وجده بتربيته. وأرسل إلى باريس مع بعض الأمراء وأولاد الأعيان، فأتقن اللغة الفرنسية والطبيعات والرياضيات وشغف بفن تخطيط المدن وتنسيقها. وعاد إلى مصر في عهد عباس باشا الأول. ووقع بين أفراد الأسرة نزاع بشأن ميراثهم. فبقي إسماعيل باشا في الأستانة إلى أن توفي عباس الأول وتولى سعيد باشا. فرجع إسماعيل إلى مصر وتولى رياسة مجلس الحكام.

ولما أفضت إليه ولاية مصر بوفاة سعيد باشا سعى سعياً حثيثاً في الأستانة حتى نال رتبة الخديوي، ولقب خديوي وأصبحت ولاية مصر إرثاً صريحاً لنسله ينتقل منه إلى أكبر أولاده وهكذا على التعاقب.

ويضيق المقام عن أن يسع الإشارة إلى ما أتمه الخديوي إسماعيل من الأعمال الجليلة لترقية شؤون البلاد. وأهم هذه الأعمال الاحتفال بافتتاح قناة السويس، وتنظيم مدينة القاهرة، وإنشاء الأوبرا، والمتحف المصري، والمكتبة الخديوية، والجمعية الجغرافية، وجر الماء بالأنابيب إلى بيوت العاصمة، وتقسيم القطر إلى ١٤ مديرية، وتأسيس مجلس النواب والمحاكم المختلطة، ومصلحة البوستة، ومدَّ كثير من خطوط سكك الحديد والتلغراف، وأقام مرصد العباسية، وسور حديقة الأزبكية، ومهد الطريق إلى أهرام الجيزة... الخ.

---

(١) نقلاً عن إدارة دار مجلة الهلال.

وكان الإنفاق على هذه المنشآت سبباً في إثقال كاهل مصر بالدين واتفاق الدول على عزل الخديوي ، فخرج عن مصر سنة ١٨٧٩ وأقام زمنا في إيطاليا . ثم سافر إلى الأستانة وقضى بقية أيام حياته .

ولما توفي عام ١٨٩٥ نقلت جثته إلى مصر ، واحتفل بتشييعها في احتفال عظيم سار فيها حفيده الخديوي عباس والأمراء والوزراء .

سواكن في عصر الخديوي إسماعيل باشا

لما تولى سمو الخديوي إسماعيل باشا أريكة مصر في يوم ١٨ يناير سنة ١٨٦٣ م / ١٢٨٠ هـ . بذل جهده في إنشاء الإمبراطورية المصرية التي حققها فغرست راياته على جميع بلاد كينيا وأوغندة وأرتريا وبلاد الصومال (الإنجليزي والإيطالي والفرنسي) حتى حدود سلطنة زنجبار . وكاد أن يصل أسطوله وجنوده إلى ممباسا ودار السلام . وأمر بتصدير جميع حاصلات مديريات خط الاستواء عن طريقهما إلى المحيط الهندي ثم البحر الأحمر ، ولكن إنجلترا حالت دون تحقيق أغراضه هذه . ولولا دسائس الحكمدار إسماعيل باشا أيوب لامتدت فتوحات الزبير باشا إلى أقصى السودان الفرنسي ونيجريا . ولكن أراد الله أن يسلم الزبير باشا فتوحاته للحكومة المصرية ، وأن يعيش معتقلاً بمصر طيلة أيام الخديوي توفيق . وسجن بجبل طارق بعد احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ م بأمر سري من الجنرال غوردون وجمعية تحرير الرقيق البريطانية . وأخيراً حالوا دون قيادته للجيش السوداني المصري الذي جمعه بنفسه في مصر لقتال الأمير عثمان دقنة . فتولاها الجنرال فالنتين بيكر[١] في فبراير سنة ١٨٨٤ م .

وهذا كان عازماً على تخليص توكر من حصار الأمير خضر بن علي الحسنابي

---

(١) أصيب هذا الجيش بهزيمة منكرة وفرّ قائده، وبعض ضباطه إلى ساحل ترنكتات حيث ركبوا الزوارق إلى البواخر تاركين جنودهم لسيوف الأنصار تقطع الرقاب وتفري الهام .

العمري ، ثم سنكات[١] من حصار الأمير فكي علي حامد الكنجاري الجميلابي (هدندوه) ، ثم تأمين طريق سواكن ، بربر . وكان هذا حلماً جميلًا من الجنرال بيكر المسكين وممن انتدبوه لتحقيقه . فما أحلى الأحلام والأماني إذا اصطدمت بالحقائق والواقع ، إذ يتلاشى كل ما بني عليهما عند تلاقي الأقران في الميدان .

فانتدب الخديوي إسماعيل باشا أحد أعوانه وهو أحمد ممتاز باشا (مأمور مصلحة الأشغال) تمهيداً لاستلام مهام سلطة مدينة سواكن عندما يوافق السلطان التركي على تأجيرها لسموه . فجاءت البرقيات[٢] بالموافقة . ولكن الفرمان (المنشور السلطاني) لم يصدر إلا يوم ١٧ مايو سنة ١٨٦٦ م الموافق ١٢٨٣ هـ على ضم سواكن ومصوع إلى أملاك سمو الخديوي مقابل إضافة سبعة آلاف من الجنيهات على الجزية التي تدفعها مصر[٣] للسلطان العثماني[٤] . فاستلم ممتاز باشا سواكن من المحافظ التركي ودعا كل الموظفين وعرض عليهم البقاء تحت الحكم المصري أو الاستقالة واستلام معاشاتهم ومكافأتهم ، فاستقال كل الأتراك وبعض العثمانيين من العرب واستبدلوا بوطنيين ومصريين . فشمر ممتاز باشا عن ساعد الجد وأمر الأهالي بتحسين بناء منازلهم وبدأ هو ببناء المحافظة الحالية ، وكذلك سائر المصالح كالجمارك والكورنتينة والبريد والبرق والضابطية والقمندانية وثكنات الجيوش . وبنى محلجين بالجزيرة[٥] وجلب التجار من مصر واتفق مع شركة بواخر إبراهيم بك فهمي أن

---

(١) كان مكاوى بك مأمور توكر محصوراً . وفي سنكات محمد بك توفيق محافظ سواكن أيضاً محصوراً . فسقطت المدينتان بعد هزيمة بيكر باشا وقتل ضباط أركان حربه في التِّيبْ واضطر الخديوي لبيع أسهمه في شركة القنال لبريطانيا العظمى .

(٢) كانت مراسلات الخديوي متوالية معه خصوصاً عندما أرسل الأورطة السودانية لكي تحارب في المكسيك بأمريكا حباً في سواد عيون فرنسا ، وقد عاد عشرة رجال من هذه الأورطة واستفاد أهلهم بكتاب بطولة الأورطة السودانية في المكسيك لعمر باشا طوسون إذ خلد لهم أحسن الذكرى .

(٣) وفي سنة ١٨٧٥ م استأجر الخديوي أيضاً بربرة وزيلع بمبلغ ثلاثة عشر ألف وثلاثمائة وخمسة وستون جنيهاً سنوياً .

(٤) بعد نوفمبر ١٩١٥ (الحرب الكبرى) أعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، وحلت محل الحكومة التركية في كل امتيازاتها ، واستلمت الجزية من المالية المصرية (وهي ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات).وأخيراً تقرر دفعها لتحسين حالة السودان المالية ثم أبطلتها حكومة الوفد المصري بعد التوقيع على معاهدة ١٩٣٦ م مع إنجلترا .

(٥) بجوار منزل المرحوم الشيخ سعيد عبد الله باعشر سكرتير الأمير عثمان دقنة . وكانت كتاباته وخطبه آية في البلاغة والحماسة وهذه من مقتضيات منصبه .

تسير بواخرها في البحر الأحمر وكذلك الشركة الخديوية وشركة روباتينو الإيطالية[1]. كما أمرهم بأن يشتروا الأراضي الفضاء من الأهالي (العاجزين عن التعمير) كي يقيموا عليها منازل لسكناهم ومكاتب لأعمالهم التجارية. وبدأت هجرة المصريين والحجازيين إلى سواكن خصوصاً التجار منهم والموظفون[2].

وظهرت قطع الأسطول الإنجليزي الحربي والتجاري بكثرة في سواكن بعد افتتاح قنال السويس سنة ١٨٦٩ م. وأما قبله فكانت البواخر الهندية تأتي ببضائعها إلى سواكن. وأول بواخر يرويها لنا التاريخ هي التي قامت من كلكتا بالهند سنة ٨٢٤ هـ / ١٤٢٢ م. وكان بسواكن بعض التجار الهنود، ويتقاضى منهم المحافظ وأمير الأرتيقة جزية باهظة، فلما أرهقوهم بكثرة الضرائب اضطروا لبيع بضائعهم بأبخس الأثمان وعادوا إلى ديارهم بإحدى السفن سنة ١٦٦٣ م، ولم يستأنفوا التجارة إلا

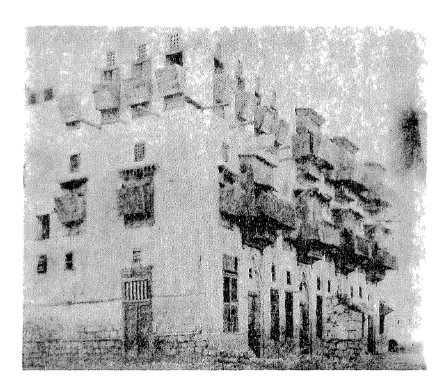


منظر لبعض المنازل الواقعة بالقرب من بناء المحافظة بسواكن.

---

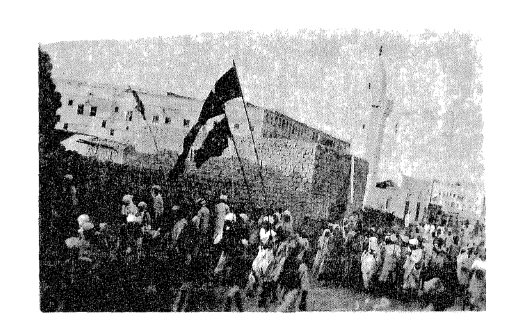
(١) هذه الشركة كانت تسير بواخرها شهرياً بين السويس وجدة وسواكن ومصوع والحديدة وعصب، وتولى إدارة فرع الشركة بسواكن محمد بك الشناوي.

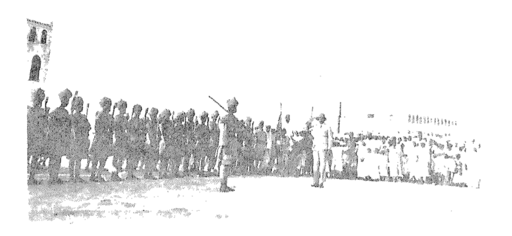
(٢) رحلوا من سواكن عقب الثورة العربية ولم يبق منهم إلا بعض أنصار عرابي باشا (السياسيين) المعتقلين.





قصر سعادة محمد بك الشناوي الذي بناه خصيصاً للأعيان من الضيوف
الشرقيين والغربيين بجزيرة سواكن بجوار منزله العائلي





موكب الاحتفال بالمولد وهو يمر بجوار الجامع المجيدي والوكالة بسواكن
(خارجا من الجزيرة إلى القيف)

حوالي سنة ١٨٨١ م حيث حضر اثنان منهما إلى سواكن[١]. ونزلا ضيفين عند الشناوي بك عميد تجار المدينة حيث كانت له اتصالات ومعاملات تجارية بالهند والعراق وشواطىء بلاد العرب وأندونسيا والملايا وغيرها. ثم بدأ سيل التجار الهنود يتدفق إلى السودان خصوصاً بعد ربط سواحل البحر الأحمر بداخلية القطر وزاحموا الوطنيين في التجارة مزاحمة هائلة فازدهرت سواكن بكثرة العمارات كما قال الدكتور جنكر[٢] الألماني:

إنها ستكون يوماً من الأيام عروس البحر الأحمر. فردم ممتاز باشا البحر ثم بنى رصيفاً حول الجزيرة ترسو فيه السفن الشراعية والبخارية الصغيرة. وأمر أهل القيف بأن يبنوا على قدر استطاعتهم ولو غرفة واحدة. أما الجزيرة فقد كان البناء فيها على الطراز الشرقي وألا تقل عن ثلاثة أدوار كلها بالحجارة البحرية المرجانية. وبعضها بأحجار المنقبة (المستخرجة من بر الشيخ أبو الفتح والفولة). وكل موظف بسواكن بنى لنفسه داراً لأن أدوات البناء وتكاليفه زهيدة جداً. وللدور الأرضي والمساجد تستعمل أحجاراً خاصة مربعة ومستطيلة نحو سبعين في ستين سنتمتراً. وأحيانا تكون مساحتها أكبر. وتستخرج من البحر (شرق الشيخ غريب) وتسمى (سيف). وأجمل مباني سواكن هو المنزل الذي بناه محمد بك الشناوي للفقراء. كما وأن منزله الخاص بنى فيه صهريجاً (خزاناً) كبيراً لخزن مياه الأمطار عند اللزوم، وهو نظيف جداً وبين آونة وأخرى يكشف عليه مفتش الصحة. وبيت الجديد ذو الأربعة أدوار بناه لضباط (نحو مائة) الجيش الإنجليزي[٣]، كما بنى السيد عثمان الليثي[٤] منزلاً حسب رسم وزارة الحربية المصرية. وكان مقر قيادة

---

(١) هما المستر لوسن وسوندرجي Mr Lavchand ß Soonderejee ثم جاء بعدهما ماؤجس وبوبث زمشند. وهركسنداس خوسال. وبند علي. ورامجي سامجي واخوانه وغيرهم.

(٢) Travels In Africa By Junker

(٣) كانت بالواجهة الشرقية من بيت الجديد (ترسينتان) فوق بعضهما تشرفان على البحر يتناول فيهما الضباط طعامهم والشاي. وفي أحد الأيام أرسل الأمير عثمان دقنة سرية من الأنصار حملة البنادق لتقلق راحتهم الليلية. وبينما هم على مائدة الطعام انصب عليهم الرصاص من شبه جزيرة أبو الفتح ففروا إلى غرفهم بعد أن أصيب جماعة منهم.

(٤) هو شقيق السيد عبد الرحمن الليثي. قتل في واقعة شيكان (١٨٨٣/١١/٥) إذ كان سكرتيراً لعلاء الدين باشا. واليوم المنزل هو ملك للمرحوم محمد السيد البربري.

شرق السودان[1] ورئاسة أركان حرب الجيش المصري . وللشناوي بك منزل يطلق عليه دار الضيافة . وهو عبارة عن قصر شرقي عربي جميل جداً بجوار منزله حيث ينزل فيه جميع التجار الأجانب الذين يحضرون من كافة الأنحاء . وهذا القصر توفرت فيه وسائل الراحة للشرقيين والغربيين . وجميع شبابيك هذا القصر مرصعة بالزجاج الملون . ومن المنازل المشهورة منزل السيد عمر الصافي والدروبي وباحيدر والسيد الحضري ومنزل الشيخ علي عبيد وإدريس بك محمد ومحمد بك أحمد . وفي القيف منازل محمود بك أرتيقة والشيخ مصطفى جيلاني والشيخ باكاش محمد والشيخ محمد طاهر نور الدين والوجيه أبو زينب محمد يوسف والشيخ محمد نور موسي وإخوانه والمشايخ عثمان نصر وعبد الكريم الكابلي ، وإبراهيم بك موسى . والسيد ماجد ومحمود البخاري . ومن المنازل الجميلة ، منزل الشيخ عبد الله مسلم . وسعيد عبد الله باعشر ومحمود بك علي ومحمد ناصر باعفي . والشيخ محمد صالح بازرعه ، والشيخ دفع الله حسيب ، والسيد الخميسي ، وغيرهم من أعيان سواكن . هذا بخلاف منازل أنشئت حديثاً مثل منزل باحفظ الله ، وأحمد شمس ، وعبد الله شمس ، ومحمد سعيد صيام ، ومنازل القاضي عبد القادر حسين التي أجرت أرضها الحكومة للبنك الأهلي المصري بسواكن فهدمها وبنى دار البنك على أنقاضها . وكلما طلب الورثة أرضهم قيل لهم أن مدة العقد لم تنته ، ولما قفل البنك أبوابه باع البناء وامتنع عن بيع الأرض إذ ليست ملكه .

وقد أخنى على هذه المنازل الذي أخنى على لبد ، إذ أصبحت كلها إلا منازل الحكومة أثراً بعد عين وما بقي منها قد تهدم .

والحقيقة أن سواكن ازدهرت في مصر سمو الخديوي إسماعيل باشا الذي ولد يوم ٢١ / ١٢ / ١٨٣٠ وأسندت إليه الأريكه الخديوية سنة ١٨٦٣ م ، وخلع عنها يوم ٢٦ / يونيو سنة ١٨٧٩ ، وتوفي يوم ٢ مارس سنة ١٨٩٥ م . وانتشرت إصلاحاته العمرانية في كافة أنحاء الإمبراطورية المصرية . وقد حاربته الدول الأوربية بعد أن

(١) أول القواد هو محمود باشا طاهر فلما انهزم في التيب يوم واقعة شيكان أقيل وخلفه سليمان باشا نيازي وهو من قواد الأتراك الخبيرين بأصول الخطط الحربية .

استعانت بالسلطنة التركية . والتاريخ حافل[1] بجليل عمله رحمه الله . وإسماعيل باشا الخديوي هو أول من فكر في ربط السودان بشبكة من السكة الحديد . فأرسل إلى سواكن إسماعيل بك الفلكي ناظر المهندسخانة والرصدخانة . وسنأتي على بيان ذلك في تاريخ المحافظ أحمد ممتاز باشا .

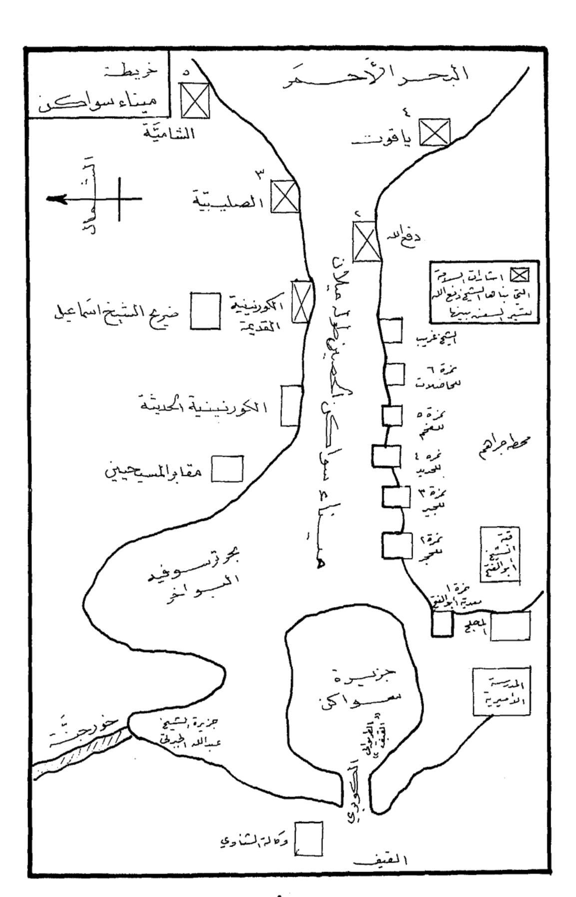
وجملة المبلغ الذي تعهد سمو الخديوي إسماعيل باشا بدفعه للسلطان العثماني نظير تنازله عن سواكن ومصوع وزيلع وبربرة هو سبعة آلاف كيس ، أي سبعة وثلاثين ألفاً وخمسمائة جنيه مصري[2] يدفعها سنوياً لصندوق ولاية جدة لتعمير طريق مسجد بيت الله الحرام والقيام بشئونه [3] .

* * *

(١) لا تزال آثاره الخالدة بمصر والسودان وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي حتى حدود زنجبار .

(٢) تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا تأليف إلياس الأيوبي .

(٣) يقول الدكتور جنكر إن أمير الأرتيقة بسواكن كان يدفع في السنة لمحافظ جدة نحو أربعين أوقية الذهب نظير العوائد والرسوم .



خريطة
ميناء سواكن
البحر الأحمر
الشامية
ياقوت
الصليبية
دفع الله
الكورنتينة القديمة
ضريح الشيخ اسماعيل
الكورنتينة الحديثة
مقابر المسيحيين
الشيخ غريب
قبة الشيخ أبو الفتح
المدرسة الأميرية
جزيرة سواكن
جزيرة الشيخ عبدالله
وكالة الشناوي

رحلات الرواد والتدوين سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م

أول رحالة سنبدأ بتدوين رحلته هو ابن بطوطة [1] . قال : « ركبنا البحر من جدة في مركب يسمونه الجلبة . (جمعها جلبات وجلاب وتطلق على السفينة الشراعية وتسمى أيضا سنبوك أو زعيمة) . وكانت لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل . وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه ، فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال ، فخفت من ذلك ، ولم أكن ركبت البحر قبلها . ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين . وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ، ودخلت أمواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ، ولم نزل في أهوال حتى خرجنا في مرسى يعرف برأس درائر [2] . فيما بين عيذاب وسواكن ، فنزلنا به ووجدنا بساحله عريش قصب على هيئة مسجد ، وفيه كثير من قشور بيض النعام [3] مملوءة ماء ، فشربنا منه وطبخنا ورأيت بذلك المرسى عجباً وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر ، فكان الناس يأخذون الثوب ويمسكون بأطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكاً كل سمكة فيها قدر الذراع ويعرفونه بالبوري (وهو السمك العربي) ، فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا ، وقصدت إلينا طائفة من البجاة وهم سكان تلك الأرض سود الألوان لباسهم الملاحف الصفر ، ويشدون على رؤوسهم عصائب حمراً في عرض الإصبع ، وهم أهل نجدة ، وشجاعة ، وسلاحهم الرماح والسيوف ، ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج ، فاكترينا منهم الجمال ، وسافرنا معهم في برية كثيرة الغزلان ، والبجاة لا يأكلونها فهي تأنس بالآدمي ولاتنفر منه . وبعد يومين من مسيرنا وصلنا إلى حي من العرب يعرفون بأولاد

---

(١) هو أبو عبد الله محمد اللواتي الطنجي كانت رحلته سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م .

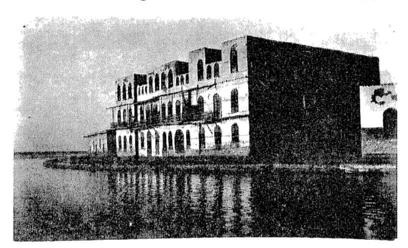
(٢) هو مرسى درور DAROUR الواقع شمال بورتسودان .

(٣) يكثر هذا البيض في صحراء البشاريين قرب أبو حمد والمراسي الواقعة جنوب العقيق .

كاهل[١] مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم . وفي ذلك اليوم وصلنا إلى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر (الجبال)[٢] ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر ، والماء يجلب إليها في القوارب (من القيف) ، وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهي جزيرة كبيرة .

وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش . والمعزى عندهم كثير والألبان والسمن ، ومنها يجلب إلى مكة المكرمة . وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذره كبير الحب يجلب منها أيضاً إلى مكة المكرمة .

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولي إليها الشريف زيد بن أبي نمي ، وأبوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده . وهما عطيفة ورميثة وصارت إليه من قبل البجة فإنهم أخواله .[٣] ومعه عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة ، وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن . وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وإنما يسافرون فيه من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويرسون وينزلون إلى البر . فإذا كان الصباح صعدوا إلى المركب وهم يسمون رئيس المركب (الربان[٤]) ولا يزال أبداً في مقدم المركب ينبه صاحب السكان (الدفه) على مواقع الأحجار ».



قصر علي شويتن الجداوي بغرب جزيرة سواكن

---

(١) هم الكميلاب أبناء محمد بن كاهل من ذرية مصعب بن الزبير بن العوام .

(٢) المسافة بين الجزيرة والشاطىء أقل من مائة متر . (ض)

(٣) وهم الأرتيقة عائلة باصفار .

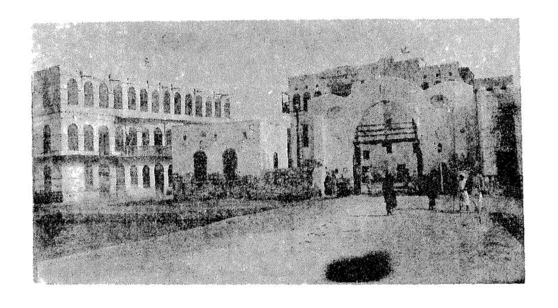
(٤) هو ما يسمى عندنا في ضفة البحر الأحمر الغربية « المُقَدَّم » .

ولأهل سواكن معرفة تامة بالبحار والسفن الشراعية ومراسي البحر الأحمر منذ أقدم أزمنة التاريخ . وكذلك كان أهل جدة ومصوع وينبع واليمن . وأشهر حوادث البحار هي ما كان في القرن الثامن عشر . وقد رواها لي الرباس علي داخله[1] وكان مقيماً معي أكثر من سنتين أنقل عنه كل ما وعته ذاكرته من حوادث البر والبحر (في سنة ١٩١٦ م . وكان عمره أكثر من تسعين عاماً) . قال : (اشتهر في البحر الأحمر رجل كان يرعى أغنامه في جهة ينبع بساحل الحجاز (شمال جده) فشاهد ساعية (سنبوك) راسية بالساحل وحولها بحارتها يجهدون أنفسهم في إزاحتها إلى داخلية البحر العميق فلا يقدرون بسبب اختلافهم عندما يزيحونها . فكان الواحد منهم يسبق أخاه في الدفع أو بعضهم يقف والبعض يدفعها عساها تزحزح من مركزها (المنزك Manzak) فلا يقدرون ، وحميد ينظر إليهم مستاء من عدم تضامنهم في إخراج السفينة من المنزك . فأخذته النخوة وانضم اليهم وقال لهم : تعالوا هلموا واسمعوا ندائي ثم رددوه معاً . فقال : الله الله يا الله فحال انتهائي من الكلمة الأخيرة ادفعوا جميعكم الساعية معي إلى البحر كرجل واحد) فامتثلوا وأزاحوها من منزكها إلى الباحة (البحر العميق) ثم أقلعوا بالسفينة والرجل معهم إذ ائتمروا على الاستفادة منه لشدة ذكائه ونباهته في رحلاتهم البحرية . فدرس حِمِيد (Himeid) البحار وطرق المراسي والأنواء والسير في الظلام الدامس على اتجاهات النجوم المختلفة . وأصبح مغرماً بارتيادها واستسهال ويلاتها ومصائبها . كما درس بحر المحيط الهندي والخليج الفارسي حتى أصبح رباناً واشترى سفينة لنفسه يتنقل بها في الموانئ ناقلاً من كل مرفأ بضائع التجار إلى سائر الثغور . فرست سفينته ذات يوم في المحل الذي اختطفوه منه . فنزل إلى الساحل وأخذ جولة في تلك الأنحاء وإذا به يشاهد بنتاً في الحلقة الثانية من

---

[1] هو رجل من أهلنا الإفلندة شديد الذكاء كان يسافر من الخليج الفارسي حتى خليج السويس بسفينة كبيرة تعلق الشيخ طاهر الشنيطي سر تجار مصوع.وفي سنة ١٩٠٣ م كانت ساعيته مشحونة بالتمباك الصرتي (من صرات الهند) ميممة إلى جدة فعثر بها بوليس خفر السواحل الذين كانوا في سنبوكين برئاسة محمد وصالح أبناء حسين بحراي بن البهدور فأحضروا سفينة علي داخلة (لأن التمباك والرقيق والأفيون من الممنوعات) إلى سواكن فاستاء كل الإفلندة من عمل الأخوين وطلبت الحكومة أن ينزل العلم الإيطالي من السفينة فرفض وقال إنهما أحضراه من خارج حدود بحر السودان ، فأخذ منه أمين الجمرك (المرحوم خالي إدريس بك محمد) اعترافاً بذلك وأطلق سراحه بسنبوكه .

عمرها فدنا منها ، وبدأها بالحديث عن أهل تلك الناحية فتبسطت معه لما علمت خبرته بالديار وأهلها ، ثم لاحظت تغيير اتجاهه أغنامها ، فأخذت حجراً ثم قذفتها لتردها . فقال لها حميد بن منصور : يابنت عاليها كسافلها ؟[1] فأجابته : غنم بلا راعي لمن أرعاها ؟[2] فقال لها : كلي الثمر وادفني النوى[3] فأجابته أكل التمر قبل الرجال عيب ، ودفن النوى كبرى المصائب[4] فقال لها حسبك الله ابنة من أنت ؟ فأجابته : إن صح كلام أمي قالت حميد بن منصور ، وإن كذبت فالله أعلم .



١ ـ بوابة غردون عند مدخل جزيرة سواكن ٢ ـ غرفة الحراسة للمساجين . ٣ ـ منزل الشيخ أحمد محمد شمس ٤ ـ منزل علي شاويش الجداوي ٥ ـ مدفع حجة فاطمة ٦ ـ الحاج شاذلي أفندي مسرور يقود أحد العميان (كلساي) ، إلى منزله بالقيف

(١) لما قذفت الحجر لاح له شعر إبطها فقال لها الجملة وهو يعني شعر الإبط كشعر العانة .

(٢) تعني أنه ليس لها زوج حتى تزيل من أجله الشعر (ليس له مالك فعلام أزيله) .

(٣) يعرض عليها الزنا فإذا حملت تدفن الجنين .

(٤) تعني الزنا قبل الزواج عيب ، أما دفن الأجنة فهو من المصائب العظمى .

فقال لها هل تعرفينه ؟ فقالت ويحك كأنك هو ؟ فأجابها كلا . ثم أعطاها بعض ريالات وخاتماً كان في يده وقال لها سلميه لأمك وهي تخبرك ، ثم افترقا . وعادت هي إلى أمها وأخبرتها بما حدث فلما رأت الخاتم . قالت لها هذا أبوك حميد يا حميدة . فأجابتها أنكر لي ذلك . فقالت لها إنه لا يريد العودة إلى عيشة البادية .

وقد تغنى الربان حميد كثيراً في وصف موانئ البحر الأحمر الشرقية والغربية . غير أن أشعاره أقرب إلى السجع ولم يبلغنا منها إلا النزر اليسير الخاص بمراسي السودان التي كنا نمر بها ، ولو كان التدوين كثيراً لما فقدت ، وقد انتقل كل الذين روينا عنهم مثل هذه القصص إلى دار البقاء . واشتهر حميد بأنه هو الربان الوحيد الذي كان يدخل بساعيته ميناء جدة من مضيق (بوغاز) أبو حمامة لكثرة شعبانه[1] وتعريجاته . وما أكثر السفن التي تتحطم على صخوره . وقد حظرته الحكومة التركية ولكن جاء جلالة الملك عبد العزيز آل سعود فجعل ميناء جدة من أعظم موانئ الدنيا (انظر جدة) .

ويروى عن حميد بن منصور أنه لما كبر سنه دعا كل الرؤساء بسواكن وقال لهم - إني أريد اعتزال البحر وسأقضي بقية حياتي مع أهلي في ينبع . فقالوا له : اعمل لنا دستوراً بحرياً يخلد ذكرك الطيب . ويكون قانوناً بيننا وبين التجار ، وأصحاب السفن . والتجار (أصحاب البضائع) . فوعدهم خيراً ثم شحن سفينته بضاعة من سواكن إلى العقيق . فلما قرب من مراسي الشيوخ (جنوب سواكن وهما الشيخ هابوني Habouni والشيخ سعد) اتجه نحو الشرق واتخذ طريق الشُبُكْ[2] (الشائك) ، وهو في منتهى الخطورة ، وهو عبارة عن أرخبيل من عدة جزائر وصخور تحتاج السفينة للسير فيه إلى ربان ماهر جداً . فلما دنا حميد من آخر جزيرة قاد سفينته إلى صخورها فارتطمت بها وتكسرت وتفرقت البضاعة وطلب كل امرىء النجاة بروحه . فوقف حميد على ظهرها وقال قوله المأثور : إذا غرقت السفينة وما عليها من مال وبضاعة فحكمه إلى قضاء الله وقدره ، والقبطان غير مسئول عما

(١) قيل ذات يوم أن ابنه دخل بساعيته من نفس المضيق . فلما قابله أبوه أجابه يابا كَبُرنا العمامة ، ودخلنا من بوغاز أبو حمامة .

(٢) هو طريق ملتو بين الجزائر ذهبت فيه عدة سفن .

تحمله . فصار قوله هذا شريعة يعمل بها إلى يومنا هذا[١] . وفي أخريات أيامه كف بصره وأحبَّ بعض النواخيد (قباطين والمفرد ناخوده) أن يداعبوه . فأحضروا اليه قطعه يابسة من الطين البحري . وقالوا له : من أي البحار هذه الطينة . فعركها جيداً ثم شمها مراراً . ثم قال : إن صحت فراستي فالطينة من ميناء موخع (موخا) اليمانية . وقد عجنت بماء من بحر جزيرة سقطره الواقعة بالمحيط الهندي (بقرب عدن)، فقالوا له صدقت . ومن أعماله اختراعه شراع الفتيني[٢] (Fiteini) . هذه الأسماء هي التي سمعنا استعمالها في البحر الأحمر . وربما تكون لها أسماء في البحار الأخرى . وقد جعل حميد حصة من حمولة السفينة بأن تقسم كالآتي :

نصف النولون لصاحب السفينة . ويخصم منه كافة لوازم السفينة حتى أواني أكل البحارة . وصيد السمك للركاب . والنصف يقسم على عدد البحارة . وللرئيس أن يأخذ حصة أربعة من البحارة . وللمقدم (سهمان) أي حصة بحارين . وللسفينة الشراعية هنا ببحرنا عدة أسماء تكاد تكون حسب الأحجام . فيقال للصغرى : قطيره . زعيمه ناورى . وسنبوك . جلبة . زاروق (نوع مصنوع للتهريب وهو سريع جداً) وللكبرى : غنجة . داو . بغلة .

وكذلك عدة أسماء للريس فيقال له الناخودة . الربان،القبطان واشتهر في البحر الأحمر بالقرصنة صاحب سفينة (زاروق) اسمه ابن غبيش Ghobeish، ينهب السفن الشراعية . وكان معه نحو عشرين رجلاً مسلحين بالبنادق اشتبك معهم الريس علي ابن وجبة من الأرتيقة بمثل سلاحهم . وكانت سفينته تحمل رقيقاً وتمباكاً منعهم من مس أي شيء فتركوه وهربوا ومات ثلاثة من بحارته وجرح هو عدة جراح . واستمر في رحلته إلى الحجاز ببضاعته ورقيقه .

وأرسلت حكومة الحجاز باخرتين لمطاردة ابن غبيش بدون جدوى وأخيراً في سنة ١٩٠٤م قتله عبيده غيلة وغدراً . فاطمأن أصحاب السنابيك من إزعاجه .

---

(١) كان في الزمن السابق يدفع القبطان قيمة البضاعة والسفينة التي ترتطم على يديه وأكثر القباطين يقضون عمرهم كرهائن للتجار إذا حدث منهم هذا الضياع وبعد سنبوك حميد في الشبك لغيت العادة القديمة .

(٢) للسفينة شراعان كبير وقلمي (Galami) (صغير) فاخترع حميد وابنه الثالث (وسط) بأن أخرجوا من قماش الكبير نحو متر ونصف لاستعماله عندما تشتد العواصف والأنواء لدخول السنبوك إلى أقرب مرسى .

ملحوظة :

وها نحن نذكر ماوعته الذاكرة من سجع حميد بن منصور . قال

رأس كسار يدور ربان شوير .

طروبه ومندروبه لا يغرنك سمد علّام (حوض ماء)

وقدوا لي وقيده حسبوني هريده (سمكه)

أنا حميد بن منصور بجاه الرسول يدور

عقيق استقى من البير عمارات نعم سرير

الله يلعن رأس عسيس

يدور مفاوله كتير (تقلبات حينما يكون الهواء معارضاً). ترمبو وترنكتات ، وقطعة الهاوي ،

مع الشاتات (كلها أسماء مراسي) خل عنك جزيرة أمير وادخل دفوت بلا خبير

شيخ سعد نور أبو نورين في السماء مثل السماكين

شيخ ها بوني خياري وخيار المراسي تدخله بالليل وقلبك قاسي

فوت هيدوب ولقاق وأخرج قبل الرقراق

سواكن سنية (ميناء) الكبان الممدودة في وسط الشام

الغشيم يقول الرواشين بأن

(القادم من البحر [1] يرى مباني سواكن من بعيد)

قاد الرقيق ودامات سموك بلاش زمنك فات

عين هريس وجزيرة عبد الله كلها مراسي خلق الله

شيخ برغوت وتورتيت سمعنا بالليل رقيص

عسى سواكن سمنه رخيص

---

(١) كنا نشاهد سواكن بعد مبارحتنا لترنكتات بأربع ساعات ونقضي أربع ساعات أخرى ونحن نرى تلك القصور البيضاء الشاهقة ثم نصل إليها . أما إذا وقف المرء على أي جبل من جبال أركويت فإن سواكن تظهر كأنها رقعة بيضاء جداً .

دروور مهمـــــــــــة وفجـــة •مثـــل الرمـــة
أويتــيردل همـــــي أراكيـــاي شـــد عضمـــي
ســلك صغير مرســاه دافي أمــا الكبير جــاء على خلافي

ولما وصل حميد بسفينته جبل مقرسم (Magarsam) (بقرب محمد قول) اتجه نحو الشرق ميمماً مدينة جدة وهي حزاه . قال :

يبــالله ســاري شــروم الله يعينك ياخشب اليوم[٢]

والمسافر في البحر إلى جدة لا يرى بعدها إلا البحر وموجه والسماء والسحاب ولقد صدق من قال في البحر : « الداخل مفقود والخارج مولود » .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يكره أن يفصل بينه وبين المسلمين البحر .

ومن السفن الكبيرة في سواكن (غنجة الشناوي) التي كانت تسير بين سواكن والبصرة في أيام الشتاء تنقل إلى العراق حاصلات السودان ، وتعود وهي مملوءة بعجوة البصرة والحلة مدينة قرب البصرة تمتاز بجودة عجوتها . ويقولون في الأمثال : (التمر المحلاّوي ، يجرح ويداوي) . وقد أصيبت هذه السفينة في عودتها إلى سواكن بانقلاب هي وبضاعتها في رأس عسيس قرب العقيق . والبحر هناك دائماً في هيجان ، وكل النواخيد تطلب منه السلامة . إذ أن أكثر انقلابات السفن تكون فيه . فحمل مقدمها (أو ما يسمونه الصدر أو القارية الأمامية) إلى سواكن ووضع أمام الوكالة . فجاء المرحوم محمد بك الشناوي وقرع بعصاه الصدر . وقال : إنها دنيا لما أقبلت كانت تشق عباب الماء من أقصى الشرق إلى أدناه بسلام . ولما أدبرت ابتلعها اليم[٢] بجوار

(١) كلمة خشب تطلق على السنبوك .

(٢) أدركنا بحارة هذه السفينة وعمر أصغرهم تسعين عاماً . وكان فيها شاب اسمه علي ندل (ندلاي) دارت بينه وبين رجل من نابتات عمر اسمه خميس (هميس) مساجلات شعرية بالتيجري تغزل فيها الثاني في إحدى بنات عد عمر ثم مدح أبقاره ومراعي بلاده فرد عليه ندلاي بعد أن تغزل في إحدى بنات القيف بسواكن، ذم أبقار خصمه ورعاتها وسوء مراعيها .

دارها . فسبحان الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير . وكانت له ثلاثة سنابيك أخرى هي : القمري . والشاذلية . والمحروسة . التي ابتلعها الموج بين جدة وسواكن . أما الأولى والثانية فتكسرتا على الشعبان (الصخور البحرية) في سنة ١٩٠١ م و ١٩١٩ م و١٩٢٢ بالتوالي .

وتمتاز سفن الشناوي بك بجودة خشبها إذ يجلب لصنعها خشب الصاج أو المنتيق (Manteíg) وهو خشب لايدخله السوس أو الماء ويندر أن تسبقها السفن . وأكثر سباقها مع سنابيك أهل مصوع . أما أهل جدة فاشتهر عندهم سنبوك اسمه (الواقف) أوقفه صاحبه للسباق فقط . واشتهر في سواكن سنبوك اسمه (المتوكل) بسرعة الجري وكان ريس كل من السنبوكين يطلب مجئ الآخر للسباق حتى جاء المتوكل بشحنته إلى ميناء جدة . ففرح صاحب الواقف لمجيئه وأكرمه . وقال له : لابد من السباق إلى سواكن . فبعد أن (نَجَّل) أفرغ المتوكل شحنته ثم أقام أسبوعاً في (المنزك) [1] نزل البحر . وكذلك نزل الواقف حتى كان اليوم المعلوم فقام الواقف قبل المتوكل . وما هي إلا ساعات حتى غاب الواقف عن العيون . وكان الهواء عبارة عن عاصفة شمال شديدة . فلما جاء الليل قال ربان المتوكل للبحارة : « انزلوا الفتيني واستبدلوه بالشراع الكبير » . فنظر البحارة إلى بعضهم . فقال لهم : « إن في ذلك خطورة علينا وعلى السنبوك ولكن اعلموا أننا قاصدون أهلنا . ويجب ألا يسبقنا الواقف » فامتثلوا[2] . وصار المتوكل يغرف من البحر بجانبه إلى داخله . والبحارة بيد كل منهم صفيحة يغرف بها الماء من الساعية إلى البحر . واستمروا يومين على هذه الحال . وفي صباح اليوم الثالث دخلوا سواكن عند شروق الشمس يضربون الطبول والصفافير بصدفة أبو جلمبو الكبرى[3] . وعلقوا عمائمهم على القيارات (حبال الدقل الصاري) كأنها أعلام . فتسابق الناس إلى ساحل الكورنتينه .فعلموا من ربان المتوكل

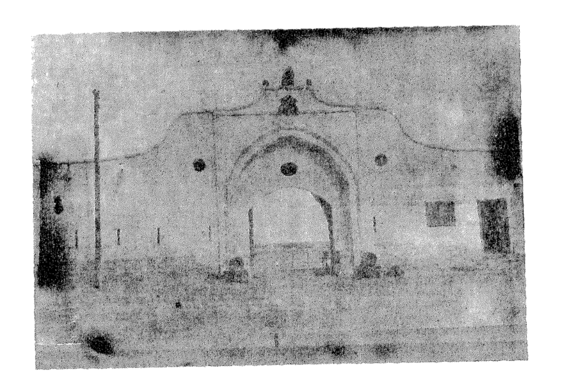
---

(١) وهو محل إخراج السنبوك من البحر للتجفيف ومفافدة العطب وترميمه . ثم دهان أسفله بالجير والشحم حتى يكون سريع السير . وكذلك فعل صاحب الواقف .

(٢) الطاعة العمياء هي شرط أساسي في البحر .

(٣) لها دوي شديد وصوت مزعج .

خبر السباق . فأمر المرحوم الشيخ دفع الله[1] حسيب صاحب السنبوك أن يمنحوا ثوراً وثلاثة خرفان وكيسين من الأرز وصفيحتين من السمن . وبدأوا في الطبخ حتى كان الظهر . فوصل الواقف وكان يظن أنه السابق حتى دنا من الرصيف . فشاهد خصمه المتوكل . فبهت ولم يدر ما يفعل . فاستسلم ورسا بجواره . أما الشيخ دفع الله فقد منحهم كما منح سنبوكه من الهبات .



هذا التمثال الضخم من الحجر الأحمر يمثل أسداً رابضا على يديه ورجليه متحفزاً للهجوم على من يريد اقتحام ديوان الحكومة (مركز) . ويجلس أمام بوابته بعض عساكر البوليس . وكان أسد آخر في مصوع أزاله الطليان بعد احتلالها سنة ١٨٨٥ م . وقد أرسلهما سمو الخديوي إسماعيل باشا .

(١) توفي سنة ١٩١٠ م بعد أن نيف على المائة عام .

وللشيخ دفع الله غير المتوكل أربعة سنابيك أخرى يسافر باثنين منها إلى الشيخ برغوت سنوياً قبل حلول يوم ٢٥ رمضان . ويقضي هناك نحو أسبوعين ثم يعود بأهله لسواكن . فإذا سئل عن ذلك كان يقول لهم : إنني أعتقد في صاحب الضريح خيراً كثيراً . وهذا الشيخ هو الذي تعهد ببناء الكوبري بين الجزيرة والقيف . كما رسا عليه عطاء بناء الإشارات[1] (العلاقات) التي تسير السفن التجارية والسنابيك بينها . وبعد إنجازها دعاه الخديوي إسماعيل باشا لزيارة القاهرة فأكرمه جداً وسأله مطالبه فقال أريد رتبة بكباشي حربي . وأن أمنح نصف إيراد دخولية[2] سواكن . فوافق الخديوي على مطالبه .

ومن أصحاب الغنجات الكبيرة التي تسير بين سواكن وعدن والهند وخليج عمان والفارسي غنجة عبد الله شريف . وغنجة الشاه بندراب (وهم من تجار سواكن المشهورين وينتمون إلى أشراف الهند) وها نحن نذكر رحلة دونها أحد السواكنيين منذ خروجه من سواكن حتى وصل مدينة جده قال :

« توجهت زعيمة الشاه بندراب من سواكن في ٧ رجب الأصم سنة ١٢١٥ هـ ونحن والناخودة إدريس بن الناخودة محمد رحمة وأحمد عاولي وعلي أحمد حسين . خرجنا بالجمال[3] من البر في ١١ رجب سنة ١٢١٥هـ ووصلنا إلى الزعيمة يوم ١٥ في سلك كبير[3] وخرجنا ثاني يوم ودخلنا ، دباديب الرويان . وقيلنا ستة أيام . ونهار اثنين وعشرين رجب خرجنا من دباديب إلى الجبل[4] وقيلنا يومين . وكورنا[5] يوم أربعة وعشرين ورجعنا إلى أبو قدّاف[6] وقعدنا يومين . ويوم سبعة وعشرين كوَّرنا ورجعنا إلى العيقة ولا قيلنا . وخرجنا يوم ثمانية وعشرين (يوم التلوت) كورنا

---

(١) كان ذلك من أول سنة ١٨٧٢ م وسيأتي رسم الإشارات بعد .

(٢) لمدة سنة منح حصة أهله الأرتيقة .

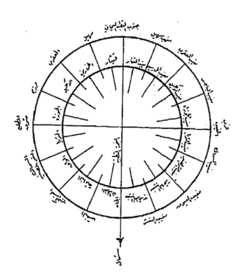
(٣) قامت السفينة من سواكن وتواعدوا أن يجتمعوا في ميناء سلك كبير .

(٤) جبل مَكْوَرْ .

(٥) أي أخرجنا السنبوك إلى البر للنظافة ثم أعيد إلى البحر ويسمى (تكوير) إنزال السفينة إلى البحر .

(٦) أبو قداف والعيقة موانىء صغيرة .

وقضينا في الباحة (١) أربعة ليالي وعدينا (قضينا) نهار الخامس،(٢) ربطنا في شعب زغوان (وهي صخرة في وسط البحر) وخرجنا ضحى ، ثم دخلنا الشعيبة ، وخرجنا من الشعيبة يوم الاثنين خمسة في شهر شعبان المكرم ودخلنا . . .(٣) ودخل علينا سنبوك قاورمه (متوسط الحجم) ، وراحوا إليه الناخوده(٤) والربان وأخذوا منه ثلاث قرب مويه ، وخرجنا مقبلين (نحو القبلة) فواجهنا سنبوك الشريف علي أبوشوك وراحوا له جماعة والناخوذة والربان ، وأخذوا منه سبعة قرب مويه ، ودخلنا مرسى جانب شقارة ، ونهار يوم سبعة في الشهر صروام (٥) . وقيلنا فيها يومين ، واستقوا مويه فيها أربعة زَفَّة (٦) كبار بريال . ونهار الرابع وهو يوم السبت عشرة في الشهر دخلنا بندر جدة » . إلى هنا انتهت الرحلة من سواكن إلى جدة ـ ورسم كاتب الرحلة صورة الديرة (ساعة البوصلة) وقد رسم عليها الكواكب من الشرق إلى الغرب إذ تسير السفينة ليلاً على هذه الآلة في ظلمات الليل والبحار (وها نحن نطبعها نقلاً عن رسمه) .



(١) البحر الكبير حيث السماء والماء (يعني أنهم عبروا من الضفة الغربية للبحر الأحمر إلى الضفة الشرقية في الوصول إلى مدينة جدة) .

(٢) كما قال أبو نواس في غير البحر :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ... ويوماً له يوم الترحل خامس

(٣) الاسم غير واضح .

(٤) الريس الأول والثاني .

(٥) مرسى بالضفة الشرقية يقرب من جدة .

(٦) كل قربتين تسمى زفة .

وممن زاروا مدينة سواكن في القرن السابع عشر الميلادي الرحالة التركي اوليا شلبي Evliya Gatabi (١٦١١ ـ ١٦٨٢) . نشرت رحلته بالتركية واسمها (سياحة عالم) في عشرة أجزاء في إسطنبول سنة ١٩٣٨ م . وفي الجزء العاشر وصف لسواكن وسنار . وقد زارها في سنة ١٦٧٢ م وسنة ١٦٨٣ م وقيل[١] في مصر سنة ١٩٥٣ م وإن هذا الجزء سيترجم إلى العربية[٢] .

وزارها صمويل باشا بيكر سنة ١٨٦٥ م في طريقه إلى مديرية خط الإستواء . ثم زارها ثانيا سنة ١٨٦٩ م في طريقه إلى صيد الوحوش بنهر عطبرة وسيتيت ببلاد قبائل الشكرية والضبانية والحمران . وله مؤلفات في كلتا الرحلتين . وزارها المسيو دي كوسون De Cosson على الباخرة المصرية القصير . وحال وصوله زار المحافظ . ثم أمير البحر أحمد أفندي . ثم عبر على « هورى »[٣] من الجزيرة إلى القيف . فوجد بالات القطن منتشرة في الشمس في انتظار بواخر لتشحنها إلى السويس (سنة ١٨٧٢ م) . وفي أثناء اقامته بسواكن أراد أن ينظف بندقيته التي خرجت منها رصاصة . فأصابت دار أحد أعيان الأرتيقة . فرفع ضده قضية وطالبه بتعويض لأنه اعتدى على حرمة المنزل . فدفع الغرامة وعاد إلى السويس .

وزار سواكن سنة ١٨٧٥ م وسنة ١٨٧٩ م الدكتور جنكر Dr Junker فتوقع أن يكون لسواكن مستقبل زاهر في مؤلفه . وفي سنة ١٨٧٨ زارت سواكن مدام اسبيدي M Me Speedy ومعها بعلها لتمضية شهر العسل بالسودان . فنزلت وبعلها في ضيافة المحافظ (رضا باشا) ووصفته بالكسل . وأنه إذا أراد الصلاة في الجامع يأخذ معه قرقول شرف من الجندرمة (البوليس الوطني) وقد دونت رحلتها .

وفي سنة ١٨٨١ زار سواكن المستر جوسيا وليمز Josiah williams فشاهد نحو ستين رشيدياً في السلاسل والأغلال . ونحو تسعة طن من العاج معدة للتصدير . أما

(١) من محاضرة ألقاها الأستاذ عبد العزيز عبد الحق على الجمعية التاريخية السودانية يوم ٢٩ / ١٢ / ١٩٥٤ .

(٢) أوصى أبناء سواكن بل كل السودانيين بالبحث عن هذا الكتاب الذي يحوي بين دفتيه مآثر السودان الذهبية الخالدة (التاريخ) .

(٣) قارب صغير يستعمله سكان البحر الأحمر في سواكن وبورتسودان .

الرشايدة المساكين فكانوا يدفعون لسجانيهم مائة ريال في الشهر، وكانوا يطوفون بالمدينة في طلب الإحسان لسد رمقهم . وقد دون رحلته بعد عودته من الصيد بأرض الحمران . ومن نوادره في العودة أنه وجد أحد الوطنيين أمينا على الجمرك[1] فلم ترتح نفسه إذ كان قبله بروستر بك Breuster رئيس قلم المخابرات البريطاني بسواكن .

هذا وتوجد عدة مؤلفات أخرى بعد سنة ١٨٨٣ م عن حوادث المهدية في شرق السودان ذكرناها ضمن المراجع التي استعنا بها في إخراج هذا الكتاب .



منظر لجزيرة سواكن

(١) هو المرحوم خالي إدريس بك محمد.

التدوين والمراسلات

أكثر الرسائل التي عثرت عليها في سواكن كانت ترسل من غير ظروف وكانوا يكتفون بطيها وكتابة العنوان هكذا إلى بندر سواكن ، ويسلم ليد أخينا العزيز إسماعيل عامر - بدوح[1] .

ومن الداخل متن الخطاب وها هو :

قدوة الأكابر . وعمدة الأعيان أخينا الحاج إسماعيل عامر سلمه الله تعالى آمين .

بعد مزيد السلام عليكم وكثرة الأشواق إليكم . إنه مضى مدة من حين توجهتم ولم حضر لنا جواب لأجل الاطمئنان عليكم . وإذا كان متحسن بطرفكم بضاعة أرسلوا وعرفونا عنها لأجل إرسالها إليكم وأيضاً السبعة ريال فرنسة ونصف الذي أخذتوها منا قرضة (سلفة) نرجو إرسالها لأنكم تعملون الحال ودمتم .

في ٩ جـ (جمادى الأولى) سنة ١٣٥١ هجرية

الحاج

حسنين الحيدر - بجده

---

(١) قيل إن الأمن كان مفقوداً في إحدى بلاد المسلمين بسبب كثرة العصابات . فاتفق أحد التجار مع رئيس العصابات على أن يضع على خطاباته وبضائعه كلمة - بدوح - (قيل أنه اسم التاجر) أو - بدوح - في نهاية العنوان - فسلمت بضائعه بعد أن جعل للرئيس مبلغاً من المال أو الهدايا . فعلم سائر التجار بالسر المتفق عليه فقلدوا وضع الكلمة السرية . فلاحظ زعيم العصابة كثرة التجارة وقلة دخله فانتدب من يسأل التاجر (صديقه) . فاتفقا على تغيير الاصطلاح وجعلاه بالارقام - ٨٦٤٢ - وهذا الرقم بالأبجدية معناه - بدوح - وصادر اللصوص كل من لم يستعمل الأرقام الأربعة . وأذكر في حرب سنة ١٩١٤ م كتب أحد التجار (بدوح) ثم وضع الأرقام على ظرف خطاب فشدد المراقب على معرفة معنى بدوح والأرقام فرووا له القصة فقال كلا إنها (كود) وشفرة تستعمل مع الأعداء (تركيا والحجاز واليمن) وبعد جدل طويل تمكن التجار من إفهامه الحقيقة .

وهذا أيضا خطاب آخر لناظر هيئة حكومية رسمية

سنيّ الهمم جميل الشيم أفندم ناظر مجلس ومحافظ جدة . نعرض إلى حضرة سعادتكم أن والدي عبد الرحمن صديق بُنْطْ[1] المتوفى في بندر سواكن بأن له دين عند الناس نرجو حضرة سعادتكم العلية إن نحن حولنا على هذا الاستدعاء إلى عبد الله . أنا قائمقام ببندر سواكن وكل من عليها فان . ووالدنا له طلب عند جناب يطلبوا بحيث ماله وإرث غيري ونحن مرادنا نبرىء ذمة أبونا ولا يبقى حقنا إلا بالطريق الشرعي والنظر نظركم أفندم .

ودمتم سالمين أفندم

محرر ٢٦ ص (صفر) سنة ١٢٥٥ هـ

عبد الواحد[2] بن المرحوم عبد الرحمن
صديق بنط بسواكن

وهذه صورة لخطاب مرسل من جده إلى سواكن
« عنوان الظرف »

إلى بندر سواكن
يسلم ليد الأكرم أخينا العزيز
الشيخ محمد شناوي أفندي ب د و ح / ٨٥٤٢[3]

إلى حضرة المحترم المكرم والجناب المعظم أخينا العزيز الشيخ محمد شناوي[4]
دام تقاه آمين

بعد السلام التام مع مزيد التحية والاكرام . إن سألتم عنا فلله الحمد والمنة ، ولم

(١) معناها ـ رصيف ـ وتطلق على أكبر تاجر يورد بضائع بالرصيف (الجمرك).

(٢) هو جد الأستاذ عبد الواحد أبو بكر راجخان البكري .

(٣) وبعضهم اعتبر هذه الحروف والكلمات طلاسم .

(٤) هو زعيم تجار سواكن بعد وفاة علي بك دقنة سنة ١٨٧٢ واشتهر الشناوي بكثرة أملاكه وقصوره بسواكن .

نسأل إلا عنكم وعن سلامتكم . وقد وصلنا بندر جدة بالسلامة لله الحمد يوم الثلوث[1] ٢٦ ش[2] بعد الظهر بخير وعافية . وقابلنا سعادة أفندينا وحصل كل خير وسرور وبركة دعاكم . وبلغوا سلامنا إلى خورشيد[3] أفندي وكافة المحبين ودمتم .

٢٨ شوال ١٢٥٨ هـ ـ ١٨٤٢ م

حسين أغاه

مدير ماليّة وأمين جمرك سابقاً

(الختم) ـ رب وفق أمور

حسين محمد

إن الخطابات السابقة تخالف نظام المراسلات العربية التي كان يستعملها كتاب العرب إذ استنّها لهم رسول الله ﷺ فكانوا يكتبون :

من فلان بن فلان بسواكن إلى فلان بن فلان بجدة . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته الخ[4] .

أما ألفاظ التعظيم والتفخيم فإنها مما أدخله العجم على اللغة العربية . وكان الحكام ورؤساء المصالح في البلدتين يرتاحون لهذه الصيغ إذ يرون أنها من الاحترامات .

وبعض المراسيم التركية تقتبس فيها بعض الآيات القرآنية والكلمات العربية . فقد شاهدت مرسوما تركيا يبدأ : سلطانم

فضيلتلو عزّتلو عاطوفتلو

علو الهمم كثير الجود والكرم ، أفندم حضرتلري

---

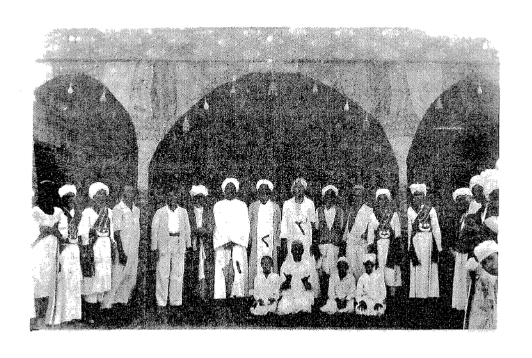
(١) الثلاثاء .

(٢) شوال .

(٣) كان مديراً لمكتب كورنتينة سواكن وله منزل أثري أحضرت أبوابه وشبابيكه من الهند منقوشة نقشاً جميلاً . وهو بجوار منزل القاضي عبد القادر حسين (البنك الأهلي حالياً) .

(٤) وأقصر خطاب رواه التاريخ هو خطاب خالد بن الوليد إلى القائد عياض ، (من خالد إلى عياض . إياك أريد) .

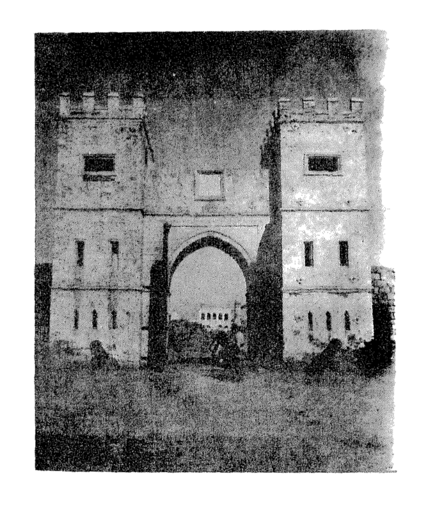
اشبو سند إيوان سلطان ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين أولان روضه مطهرة ده عقيب الدرس ومواجهة معطرة ده الخ .



. لجنة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف

١ ـ الشيخ أحمد عادلي جيلاني ٢ ـ الشيخ أوشيك دقنة ٣ ـ الأستاذ حسن عبد الرحمنالجرتلي

٤ ـ المؤلف محمد صالح ضرار



بوابة كتشنر

١ ـ هذه لوحة تذكارية مكتوب عليها : « باب شرق السودان من دخله كان آمنا ومن خرج منه كان سالما » . أنشأه كتشنر باشا سنة ١٨٨٦ م . ٢ ، ٣ ـ مدفعان جبليان وضعا لقتال الأمير عثمان أبو بكر دقنة ورجاله البواسل .

سَوَاكِنُ المَنْفَى

اتخذ الفونج مدينة سواكن منفى لمن لا يريدون بقاءهم معهم في سنار من ملوك دولتهم ووزرائهم . وأول من نفي إليها هو أشهر ملوكهم شهامة وشجاعة وكرماً وجوداً ألا وهو الملك بادي أبو شلوخ . وقد امتاز برسم الخطط الحربية التي تضمن له النصر على جحافل خصمه ملك أثيوبيا العنيد[1] الذي نصحه أحد مشايخ الجبرت المسلمين في غندار بأنه سيهزم شر هزيمة ويصل هو إلى عاصمته قبل فلول جيشه . فلم يرتدع بل تمادى في غروره لكثرة جنوده ووفرة أسلحته . وأعلن الحرب على دولة سنار سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م[2] (كانت في شهر صفر الخير) فتلقته جنود السلطنة الزرقاء وفرسانها متدرعين بالثبات والصبر في مضايق وغابات كثيفة حملوا فيها عليهم حملة أذهلتهم وشتت شملهم حتى عادوا من حيث أتوا . وخلفوا تيجانهم وذهبهم وكل ممتلكاتهم الحربية لجيش المسلمين السودانيين . والملك بادي هو الذي انتدب وزيره محمد أبو اللكيلك لفتح كردفان ففتحها . ويؤخذ على الملك بادي قتله الشيخ الخطيب عبد اللطيف البغدادي وكان مستشاره الأمين ووزيره المخلص . فاستاء من قتله كل رعاياه خصوصاً أبو اللكيلك الذي زحف إلى سنار واتفق مع بقية الوزراء على عزل الملك بادي وتولية ابنه ناصر . وإخراجه من سنار . ونفيه إلى سواكن التي مات فيها . وكانت مدة ملكه تسعة وثلاثين عاماً[3] . وممن اشتهروا بالبسالة الملك بادي أبو دقن الذي انتصر على ملك الشلك . ثم غزا جبال تقلى وأخضعها للمملكته لأن ملكها استولى على بضائع أحد أصدقائه . وقد مدحه الشيخ المغربي[4] بقصيدته المشهورة نقتطف منها الأبيات الآتية . وهي طويلة جداً .

---

(١) اشتد ساعد الملك بادي بمجيء القائد أبو ريده بن خميس بنحو خمسة آلاف فارس على خيولهم - وصلوا من جهة دارفور إلى سنار في الوقت المناسب وقد أبلوا أحسن بلاء وأفسدوا على ملك أثيوبيا كل خططه الحربية .

(٢) رحلة جيمس بروس .

(٣) تاريخ سنار ومملكة الفونج (خط يد) .

(٤) وكان يرسل إليهم عطاياه بمصر مع خبيره أحمد ولد علوان . قيل أن العالم الجبرتي الذي نهى الملك ياسو عن الغزو اسمه قاضي المسلمين القاضي محمد .

أيا راكبا يسري على متن ضامر　　　إلى الغرب يهدي نحوه طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى　　　ويقتحم الأوعار في المهمه القفر
وينهض من مصر وشاطىء نيلها　　　وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخيران وافيت سناز قف بها　　　وقوف محب وانتهز فرصة الدهر
وألق عصا التسيار في سوح أنها　　　تجد كل ما تهوى النفوس من البشر
واهد سلاماً عطر الكون نشره　　　ألذ من الماء الزلال أو القطر
وأحلى وأهنى من وصال بلا جفا　　　وأغلى وأعلى من عقود من الدر
إلى حضرة السلطان والملك الذي　　　حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور بادي الذي له　　　مناقب قد جلت عن العدّ والحصر
حمى حوزة الدين الحنيفي بالقنا　　　وأصبح صدراً للعلا حايز الصدر
وجرد للإسلام والملك صارماً　　　أياديه جمع للطواغيت والكفر
وجاهدهم في الله حق جهاده　　　وفاز بأنواع المثوبة والأجر
وهدم أركان المظالم عدله　　　فما كان زيد النحو يسطو على عمرو

إلى أن يقول :

هو البر والبحر المحيط حقيقة　　　فناهيك من بر وناهيك من بحر
عماد يلوذ المسلمون بظله　　　وسد منيع للأنام من الغدر
له هيبة ملء الصدور وصولة　　　مقسمة بين المخافة والذعر
سليل ملوك الفونج والسادة الألى　　　على مجدهم فوق السماكين والنسر

وممن نفوا إلى مدينة سواكن من ملوك الفونج الملك إسماعيل وكان ضعيف الإرادة ديناً ومحسناً للفقهاء والفقراء . ولكن وزراء الفونج قرروا التخلص منه فعزلوه وأرسلوه إلى سواكن فتوفي بها ودفن بجوار الملك بادي أبو شلوخ .

اختلفنا نحن أبناء السودان والإفرنج في أصل ملوك الفونج فهم يؤيدون أول انجليزي[1] قال إنهم من الشلك وأيده في استنباطاته وأيده في تخيلاته كل الذين

---

(١) الرحالة جيمس بروس .

جاءوا من بعده . ونحن تؤيدنا كتب مؤرخي العرب التي تقول أن الفونج هم من الأمويين الذين عادوا من دنقلة . فبعضهم ركب البحر عن طريق عيذاب[١] وسكن جزيرة عيري وما حولها والبعض وهم أكثر من أربعة آلاف اخترقوا بادية البجة حتى وصلوا أرض الحباب شرق كرن . واندمجوا في تلك القبائل وتزوج زعيمهم بنت ملك كرن . فساد بنوه على أخوالهم واتصلوا بأهل جزيرة عيري وأقلية منهم وصلت إلى مدينة باضع (مصوع) ثم رجعت إلى الحجاز واشتغلوا حمالين هناك[٢] .

ولما احتلت الحكومة البريطانية القطر المصري سنة ١٨٨٢ م كان المرحوم علي باشا الروبي مصاحباً لعرابي باشا في جميع الحركات الدستورية والحربية ، وهو الذي ألقى في يوم ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ م خطبة في الجمعية العمومية تناول فيها الخديوي محمد توفيق[٣] بالطعن والقدح[٤] . وفي قتال العرابيين والإنجليز كان مرابطاً بجيشه عند بحيرة مريوط . وهو الوحيد الذي رفض أن يقر بخطأه أثناء المحاكمة أو يوكل الدفاع عنه لأحد من المحامين الإنجليز[٥] . ولذلك حكم عليه بالسجن لمدة عشرين عاماً يقضيها في مصوع . قال عنه الرافعي بك : إنه الزعيم الوحيد الذي أجاب أثناء محاكمته بشجاعة وصراحة على ما وجه إليه من التهم ، واحتمل تبعة ما عمل أو اشترك في عمله . ولم يقبل مشاركة زملائه في الاتفاق مع السلطات البريطانية وخطة الدفاع فيها[٤] . ولذلك لم يشمله العفو الذي عومل به زعماء الحركة الوطنية . ونفي إلى مصوع وبعد عامين نقل إلى سواكن حيث كف بصره . وكان محل إجلال واحترام عموم السواكنيين حتى انتقل إلى جوار ربه يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٩ هـ / ١٨٩١ م ، ودفن بمقابر الشيخ أبو الفتح . وقد أرسل ابنه سعيد فهمي بك الروبي بعض قطع من الرخام نقشت عليها آيات قرآنية تثير الحماس الوطني والديني في كل من يقرأها .

---

(١) تاريخ الطبري واليعقوبي والمقريزي .

(٢) قضى محمد علي باشا على دولة الفونج وهم اليوم برئاسة الملك حسن عدلان .

(٣) الحركة القومية للرافعي .

(٤) أحمد باشا عرابي .

(٥) الحركة القومية للرافعي .

وممن اعتقلوا بسواكن السيد قنديل إذ اتهمه الإنجليز بأنه كان متواطئاً مع العرابيين ضد الأوربيين ، واتهم بالإهمال يوم المذبحة التي حدثت في الإسكندرية في ١١ / ٦ / ١٨٨٢ م . والحقيقة التي ذكرها الرافعي أنه غاب عن وظيفته (مأمور بوليس الإسكندرية) لأسباب مرضية ولم يبرح منزله . فلم تثبت عليه التهمة ولكن الأحكام العرفية أدانته بسبع سنوات يقضيها بسواكن . والسيد قنديل من طبقة المصريين الأرستقراطية . وكان له خادمان وملابسه ملفتة للنظر إذ كانت كلها من الحرير والديباج ، ويسامر بقية المنفيين في لعب الكوتشينة والطاولة وشرب القهوة للتسلية وتمضية الوقت ، حتى أصيب بالفالج رحمة الله عليه[1] ونكتفي بهذا القدر عن أسماء بقية المنفيين .



(١) الرافعي بك

سواكن في عصر المهدية أو استقلال السودان

حال احتلال الحكومة البريطانية للقطر المصري سنة ١٨٨٢ م أنشأت لها قنصلية بسواكن للاشراف على البحر الأحمر، وأمرت أحد مهندسيها الملازم أول غردون (هو غير الجنرال) أن يبني سوراً حول المدينة خوفاً عليها من هجوم مفاجيء. فتم بناء سور متين جداً يحيط بالقيف يبدأ من مخازن المهمات (النزل) شمالاً، وينتهي عند السجن جنوباً، أي من ساحل البحر الشمالي إلى الجنوبي. وبنيت حوله من الداخل الثكنات الحربية والقشلاقات العسكرية فصارت المدينة أمنع من عقاب الجو. وارتفاع السور نحو أربعة أمتار تقريباً، وسمكه نحو متر تقريباً.

وفتحت في هذا السور خمس بوابات لمراقبة الداخلين والخارجين، فقوة من الجنود ببوابة الأنصاري[1] الشمالية، والثانية بوابة كتشنر، وقد وضعت عليها من الخارج لوحة كتب عليها:

(باب شرق السودان، من دخله كان آمناً ومن خرج منه كان سالماً). أنشأه كتشنر باشا سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٦ م. والثالثة بوابة أنداره، أو بوابة الأمير (محمود بك أرتيقة) والرابعة بوابة اسفنكس الإنجليزي (أحد قواد الجيش المصري)، والخامسة بوابة المحلج أو السجن الحربي[2] وتوجد على بعد ميلين فأكثر ثمان قلاع كلها مشحونة بالرجال والعتاد، وكذلك الثكنات وسائر الاستحكامات، مضافاً إليها ثلاثة وابورات حربية راسية بالميناء تضيء البادية بكشافاتها ليلاً. ومع وجود كل هذه القوى الضخمة والاحتياطات كانت جيوش الأنصار تهدده وتطرق أبوابه. وقد

---

(١) في داخلها يوجد ضريح لرجل من الصالحين يقال أنه أحد الأربعة (من الأنصار) الذين وفدوا إلى سواكن لنشر الإسلام.

(٢) اشتراه المرحوم الشيخ محمد البربري وأنشأ فيه مصبغة للزراق يتولى إدارتها ابنه الأستاذ إسماعيل عزت، ثم اشترته الحكومة ورممته حتى أصبح سجناً محكماً للمساجين الجنوبيين (في حوادث سنة ١٩٥٥)، وهؤلاء المساجين يعملون في حفر الآبار وأحواض الزراعة للملح في الجهة الشمالية من المدينة.

أمرهم الأمير عثمان دقنة بأن يشعلوا النيران في البوابة الكبرى حتى تضطرب جنود المستعمر وقد حدث ذلك ولولا طلوع نهار ذلك اليوم وبزوغ فجره لاختلط الأنصار بالجيش والأهالي .



إمام الهدى
الإمام محمد أحمد المهدي



أمير الأمراء
الأمير عثمان أبو بكر
دقنة أمير السودان الشرقي

كتاب المهدي إلى أهل سواكن :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، وبعد فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله إلى كافة أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه ومن تبعه ووافقه على إقامة الدين ونصرته . أما بعد فالذي نعلمكم به أيها الأحباب أن الأمر كله لله وإليه المرجع والمآب ، وأنه مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء . كما أخبر بذلك في منشور الكتاب فاتعظوها وتذكروا يا أولي الألباب . وتنبهوا عن الغفلة والغرور بلوامع الدنيا التي هي سراب ، وتفكروا في أنفسكم واعتبروا بفوات دول القرون الماضية وبمن هو أشد منكم قوة وأكثر جمعاً للفانية ، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم الواهية الخالية فاقبلوا نصيحتي وما تبعها إلاّ أذن واعية ، وإنما أنذرتكم بجوابي هذا نصيحة لكم ورحمة بكم وشفقة على عباد الله المؤمنين ، وسبباً لنجاة المسلمين والمستضعفين ، وحيث فهمتم ذلك وعقلتموه فإني موجه إليكم الشيخ عثمان أبا بكر دقنة السواكني لكي تستعينوا به على إقامة الدين ، وجهاد الكافرين ، وجعلته أميراً مباركاً لكم لدلالتكم وإرشادكم ، فاسمعوا له وأطيعوا أمره ونهيه . وبمجرد وصوله إليكم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ومصدقين أني المهدي المنتظر فتحَزّبوا إليه وأتوه أفواجاً من كل سهل وجبل لبيعة الرضوان . ورضاء الواحد الديان ، لأجل إقامة الدين والسنن ، وشمروا في ذلك بغاية الجهد وعلو الهمة ، واجتمعوا على كلمة واحدة باتفاق الجميع . والكلمة الواحدة هي التصميم والعزم على قتال الترك أهل المديرية التي أنتم فيها ، ثم بعد اتفاقكم بأخذ عهودكم ومواثيقكم مع الله ورسوله وأميرنا النائب عنا في إقامة الدين فخذوا حذركم وأهبتكم الجميع . ثم أخبروا أعداء الدين بذلك وبلغوهم أمرنا هذا . واطلبوا منهم في الحال أحد الأمرين : إما التسليم وإما القتال فإن ندموا وسلموا بصدق وإيمان فليسلموكم جميع ما عندهم من الأسلحة ولزومها ، والخزائن بما فيها ومفاتيحها . فإن كان كذلك فاحمدوا الله واشكروه ، ومن الدنيا الساحرة فاحذروا . وإن أبوا أو سلكوا مسالك الحيل فالقتال

القتال لتنالوا مقام الصديقين من الرجال . فاهجموا عليهم الجميع مرة واحدة فأنتم حزب الله الغالبون . وإذا اتحد معهم بعض أهل البلد فجميع من هو موافق للشيخ عثمان أبو بكر دقنة فلينضم إليه واخرجوا عنهم خارج البلد . واجمعوا العربان التي بأطراف البلد واحكموا فيهم الحصار والمغار . واقطعوا عنهم الموارد بالكلية إلى أن يهلكهم الله تعالى كما أهلك أصحابهم . فإنهم قوم كتب الله عليهم البلاء والعذاب . فهم في قبضة الله . ونواصيهم بيده . فلا تخشوهم أبداً فإنهم هالكون بأذن الله تعالى . وعن قريب يورثكم الله أرضهم وديارهم فعليكم بالعدل والإحسان . واعلموا أن من بايع الشيخ عثمان المذكور فقد بايعني . ومن استشهد معه فكأنما استشهد معي . ومن صحبه فقد صحبني . فأعلموا الجميع بذلك وأبشروا بما بشرني به النبي ﷺ وهو أن أصحابي كأصحابه وأن عوامهم لهم رتبة عند الله تعالى كرتبة الشيخ عبد القادر الجيلاني[1] والله ذو الفضل العظيم . وهذا الفضل بشرط الاتباع ظاهراً أو باطناً . وحيث فهمتم ذلك فلا يفوتنكم هذا الفضل العظيم . فاحرصوا على الصدق والوفاء واقتفاء آثار المصطفى ﷺ . واختيار ما عنده تعالى بالجوع والفقر مع الرضا والتسليم . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام . غرة رجب سنة ١٣٠٠ هـ ٨ / ٥ / ١٨٨٣ م (ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين) .

يجب علينا أن نبين للقراء كيف انتشرت المهدية في شرق السودان[2]. فنقول لما سمع الأمير عثمان بن أبي بكر دقنة بأن الإمام محمد أحمد المهدي أعلن الجهاد[3] في سبيل الله أو ما نسميه نحن حرب الحرية والاستقلال . وهاجر إليه كثيرون من المسلمين من أقصى الأقطار مثل الهند والحجاز واليمن ومصر لا سيما وأن الأعناق

---

(١) هو أبو صالح . اشتهر بعدم الرضاعة نهاراً في شهر رمضان ولد في سنة ٤٠٧ هـ وكان يعظ الناس ويقرأ القرآن بالقراءات ويفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما وتوفي في بغداد سنة ٤٦١ هـ .

(٢) أول من هاجر من أهالي شرق السودان إلى لقاء الإمام المهدي في الجزيرة أبا ABA وهو الشيخ محمد طاهر بن عبد الله الحاشي من زعماء الهدندوه الدينيين (خلفاء الطريقة القادرية) . وكان معه أربعين شاباً . واشتركوا جميعهم في واقعة أبا (يوم بدر الكبرى) سنة (١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م) ثم توفوا هناك .

(٣) علم الإمام بثاقب بصره أن إعلان الجهاد هو العلم الوحيد الذي يضم شتات عموم القبائل السودانية (المختلفة الأنساب والألسن واللهجات) لتخلع عن نفسها نير الاستعمار والاستعباد .

كانت مشرئبة لمصلح يظهر يملأ الأرض عدلاً بتنفيذ أحكام الله كما وردت في الكتاب والسنة[1] . وكان الأمير قد مهد السبيل لمهمته العظيمة بسواكن[2] ، حتى كانت سنة ١٢٩٩ هـ ١٨٨٣ م فهاجر إلى كردفان لملاقاة الإمام ومعه جماعة من أصدقائه عن طريق بربر ، ولبث أسبوعاً هناك لدى أصهاره السادة آل الضوي . ثم سافر حتى التقى بإمام الهدى بالأبيض ووجد أن السواكنيين الذين كانوا بمديرية كردفان قد بايعوا الإمام ، ولقلتهم انضموا تحت لواء الأمير عبد الرحمن النجومي بزعامة السيد الماحي الشريف حسين والشريف قبْسه (Gabsa) ، والشريف محمد علي كوار ، والشريف عبد الله حسين القاضي . ومن ويلعلياب الهدندوة الشيخ أونور سليمان ، ومحمد علي ، ومحمد الحاج ، ومن القرعيب الفكي مُقَدَّم ، ومن الشرعاب أبو فاطمة وأخوه محمد وهما من أكبر التجار ، وعمر أبو بكر دقنة[3] (شقيق الأمير عثمان) ، ومن أشراف التنكيراب السيد الأمين هابليَاي . (Tankeirab,Habeiyai) وأخواه محمد وحمد شَمْله ، ومن الأرتيقة موسى الطيب وباونين (Bawanein) وعمر وأخوه سليمان كشه ، ومجذوب أبو بكر يوسف[4] . بل كل من سمع بهجرة الأمير اقتفى أثره ، وأولهم علي الحملابي ، وحامد محمد وكلاهما من فقهاء الشبوديناب (أصل الجد شايقي والجده هدندوية) ، فاجتمع الأمير بالإمام المهدي وأخذ عليه البيعة التي كان يمهد لها السبيل منذ سنين . فولاه إمارة شرق السودان ولم يكن أحد أحق بها منه ،

(١) لا يوجد في عصرنا هذا (١٩٥٢ م) من يعمل بهما في مملكته إلا عاهل جزيرة العرب خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وأبناؤه الغر الميامين ، خصوصاً سمو ولي العهد والأمير فيصل حفظهم الله ذخراً للمسلمين . فقد أقمت في مملكته مدة مكنتني من معرفة كل أحوال مملكته خصوصاً الداخلية والاجتماعية والشرعية والمعارف والفضل في ذلك يعود لصاحب المعالي الشيخ محمد سرور الصبان (مستشار المالية والاقتصاد) .

(٢) كانت المراسلات بينه وبين الإمام من قبل إعلان المهدية .

(٣) توفي بالحمى بعد أن اشترك في فتح الأبيض .

(٤) هذا ما رواه لي محمد بك موسى (ناظر الهدندوه سابقاً) ، إذ كان هو ووالده المرحوم موسى بك إبراهيم وأخوه أحمد بك معتقلين بالأبيض بسبب منازعات قبلية بين الهدندوه والبشاريين . ولقوا من المذكورين كل حفاوة وإكرام حتى أفرج عنهم غردون باشا سنة ١٨٧٧ م لما تعين حكمداراً على السودان ، وكان صديقاً لموسى بك حتى أن غردون باشا لما تعين حكمداراً للمرة الثانية بعد اندلاع حرب الاستقلال طلب أن يكون سفره للخرطوم عن طريق سواكن ليتصل بموسى بك ، ولكن اللورد كرومر لم يوافقه على ذلك ولو تمت رغبته لتغير الموقف في شرق السودان .



قواد حملة فالنتين بيكر التي أبيدت يوم واقعة التيب الثانية في ٤ فبراير سنة ١٨٨٤ م . ١ ـ السيد محمد سر الختم الميرغني وقد أخذت الصورة عندما زار الضباط ٢ ـ كمال بك ٣ ـ يوسف بك ٤ ـ عبد الرزاق ٥ ـ عزت أفندي ٦ ـ الميجر مولتا ٧ ـ كابتن ووكر ٨ ـ كابتن جودول ٩ ـ الكولونيل هارنجتون رئيس أركان حرب ١٠ ـ الميجر بالسكا (قتل فيما بعد) .

إذ كان أعلم أهل إقليمه بتعاليم الإسلام وأخلاق سكانه . وأقواهم عصبية وخؤوله[١] .

وأينما حللت في بادية البجة تجد أحد أقاربه مصاهراً لأشرف البيوتات حتى مصوع وبادية بني عامر الغربية حتى نهر سيتيت ، وينتهي نسب الدقناب إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور[٢] .

حضر الأمير عثمان دقنة إلى أركويت حوالي النصف من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م ومعه كتاب من الإمام المهدي إلى الشيخ الطاهر المجذوب الذي أرسل في طلب كافة رؤساء القبائل ، فلبوا واجتمعوا في أركويت . ثم خطب فيهم الشيخ الطاهر ، وقال لهم هذا هو أمير شرق السودان ، تلميذي وحبيبي الأمير عثمان دقنة وقد وافقت على إمارته وهأنا أبايعه أمامكم على السمع والطاعة والتأييد والنصر . ثم بايعه ، وتلاه سائر الزعماء[٣] ثم أصلح الأمير بين الزعماء المتخاصمين[٤] وقرب بالمصاهرة بين المتباعدين ، فائتلفت قلوبهم وتصافت سرائرهم ، ومحيت الضغائن والثارات التي كانت مستحكمة بينهم . وبايعوه نيابة عن قبائلهم على السمع والطاعة ، وإخراج الزكاة وقتال أعداء الله حتى تكون كلمة الله هي العليا . ثم قسم الألوية وعين عمال المناطق وودعهم إلى ديارهم لينشروا تعاليم الكتاب والسنة بين ذويهم وعشائرهم . فأدوا رسالتهم على أكمل وجه[٥] . وبعد انتهائه من تنظيم الإدارة

(١) أمه من بشارياب الهدندوه عائلة قلهايْدوه Gulhaidewa وكانت لها مدرسة لتعليم القرآن أمام سراي المعلم سعيد . فسمع قراءتها الشيخ أبو بكر دقنة بينما كان سائراً لصلاة الجمعة (بالمسجد الشافعي) فطلب من أهلها أن يزوجوها له فقبلوا وتم القران .

(٢) قد ادعت الأمير عثمان إنجلترا وفرنسا (كتاب سواكن سنة ١٨٨٥) وتركيا . ونفى ادعاءاتهم مولانا الشيخ محمد الطاهر المجذوب وأثبت بأنه عربي قرشي عباسي إسكندراني . كان جده تلميذا للشيخ أبي العباس الموسىٰ وقد تسجل نسبهُ بمحكمة سواكن الشرعية لدى قاضيها الشيخ عبد العليم العباسي سنة ١١١٠ هـ فهو أحد أبناء السودان الأمجاد .

(٣) تسمى البيعة الكبرى .

(٤) كان القتال ناشباً بين الأشراف والكميلاب ، وبين النابتاب (هاسري) وبيت معلا ، وبين نابتاب (عمر) وإبراهيم ، وبين منسع وتماريام ، وبين الشبوديناب (هدندوه) والبشاريين ، وبين بهتا حقوس Bahata Hagous ابن منقشا وتيجراي في جهة سقنيتي وبين وداريا وَبَرَمْ بَلاشْ كافل ، وبين نابتاب (أكد) وبيت أسقدي (حباب) في جهة كرن .

(٥) وكانت الحكومة بسواكن تسمع بكل هذه وتبلغها لمصر أولاً بأول حتى كان يوم أربعة فبراير سنة ١٨٨٤ م فأعلنت الأحكام العرفية ، وأطلقت يد الحكام في الكبرى والصغرى حتى الأمور التافهة .

بدأ بأهم الخطط الحربية فأمر بقطع المواصلات بين سواكن وسائر جهات الاتصال مثل سنكات وأركويت وبربر وتوكر وكسلا . وألقي القبض على سعاة البريد (وكلهم من الهدندوة) فبايعوه . ومنع الاتجار مع كل مدينة لا تستسلم العاملة . فحاصرت جنوده كسلا وسنكات وتوكر وسواكن ، وكلها سقطت بيد رجاله البواسل إلا مدينة سواكن فقد حماها الأسطول الانجليزي الذي كان راسياً في مينائها[1] للمحافظة على سلامة طريق الهند . ويفتخر بعض مستوطني سواكن بأن الأسطول كان يحميهم



الجنرال السير ريجالد جراهام قائد الجيوش البريطانية في شرق السودان (١٨٨٤ـ ١٨٨٥) م بسواكن

(١) لو زحف الأمير بجيشه عليها من سلهات (Salhat) بسرية (خمسة آلاف) عقب واقعة التيب الثانية (٤ / ٢ / ١٨٨٤ م) لسقطت بيده . ويقول مراسل التيمس في ذلك العصر أن سواكن لم يكن بها إلا باخرتين حربيتين وبعض فلول الجنود التي كانت قواها المعنوية في غاية الضعف والاضطراب . فلو أطبق عليها الأمير من جميع الجهات عقب واقعة التمنيب (Tamineib) يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م لسقطت بيد جنوده الشجعان .

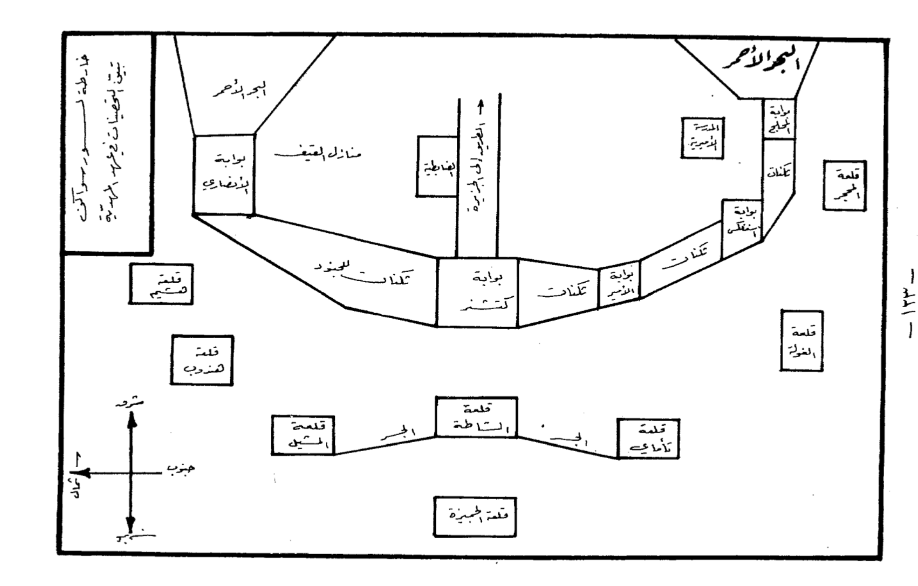
ونسوا أن من أعان ظالماً سُلِّط عليه . ولم يكن لهم دأب غير الوشايات وتبليغ حركات جيش الأمير السواكني الذي يكفيه فخراً أنه ربض في صحراء شرق السودان وحال دون إرسال أي نجدات للجيوش المحصورة في كل أنحاء السودان مثل الأبيض والخرطوم وكسلا وسنار وبربر وسواها من المدن التي قتلها أمل الانتظار .

حالما هبّ اللورد ولزلي (Lord Wolseley) لنجدة الجنرال غردون بالخرطوم أرسل إلى الأمير عثمان دقنة مهدّداً إياه بالقضاء على جيش الأنصار ما لم يسرحهم ، لأنه بعد إنقاذ غردون سيعود عن طريق بربر سواكن لتحقيق تلك الأمنية القديمة حيث طلب أن يحضروا له ألفي شمسية للوقاية من حرارة شمس طريق سواكن وسمومه . مسكين هذا اللورد فقد كان حلمه جميلاً ، لولا أن قضى الأنصار على الجنرال غردون . ووصل اللورد بعد فوات الأوان ، فاضطر أن يعود إلى سواكن (راضياً من الغنيمة بالإياب)[1] ولكن عن طريق مصر . فلما وصلها (مايو سنة ١٨٨٥) أطلقت إحدى النسافات الحربية سبعة عشر مدفعاً لتحيته ، واشترك في العودة بباقي فلول جيش الجنرال جراهام[2] ، لأن الغرض الأساسي من الحملة كان أولاً القضاء على جيش الأمير عثمان دقنة ، وثانياً مد شريط سكة حديد سواكن بربر حتى يتم اتصال البحر الأحمر بالنيل . وقد تولت مدهُ إحدى الشركات الإنجليزية التي كانت تدفع للعامل عشر شلنات (خمسون قرشاً) ، وهي أجرة زهيدة إذا ما قورنت بخطورة العمل مع حكومة أجنبية ضد حكومة وطنية تساعدها طبيعة بلادها على رحيل خصومها منه كما حدث بسواكن حيث اشتكى بعض من تخلفوا من جنود الجنرال جراهام بسواكن إلى ذويهم من رداءة الطقس وحرارة الشمس[3] . وتسربت هذه الخطابات إلى بعض أعضاء مجلس العموم وإلى الصحافة البريطانية ، فكثرت

---

(١) هذا اللورد كان من القواد الذين اشتركوا في القضاء على جيش عرابي باشا واحتلال أرض الكنانة سنة ١٨٨٢ م .

(٢) حضر هذا القائد لمنازلة الأمير عثمان دقنة بجيوشه الجرارة في سنتي ١٨٨٤ م و ١٨٨٥ م ، وفي كلا الحالين عاد كما أتى ، واعترفت التيمس بتفوق الأمير الحربي وخبرته بالخطط التي تمكنه من النصر السريع من غير أن يتكبد خسارة كبيرة لصموده بقليل من الرجال أمام تلك الجحافل الجرارة التي تتناوب قتاله على دفعات متوالية . وكلهم من أجناس مختلفة وكان همهم الوحيد هو فك حصار الخرطوم وإدراك الجنرال غردون قبل قتله (سقطت الخرطوم يوم ٢٦ / يناير / ١٨٨٥ م وقتل غردون وأصبح السودان بعد ذلك حراً مستقلاً) .


خارطة لسور سواكن
تبين التحصينات في عهد المهدية
البحر الأحمر
البحر الأحمر
بوابة الأنصاري
الطريق إلى الجزيرة
بوابة الخليج
تكنات
قلعة الحجر
تكنات الجنود
بوابة كتشنر
تكنات
بوابة الأمير
تكنات
الجسر
الجسر
قلعة الجميزة
شرق
جنوب
شمال
غرب

الاحتجاجات وأرسل أحد الضباط خطاباً لصديقه البرنس إدوارد (ولي عهد انجلترا) يصف له حالة الجنود وبؤسهم . فتقرر رحيل البقية الباقية . يقول المستر جرانت (Grant) إنهم كانوا عبارة عن فرقة مؤلفة من ثمانمائة وخمسين جندياً أصحاء وأقوياء رحل منهم مائتين إلى قبرص لتغيير الطقس وثلثمائة بقوا بسواكن . وأما البقية فماتوا من شدة حرارة الشمس . لما تكاثرت الجيوش الإنجليزية في سواكن بقيادة الجنرال جراهام سنة ١٨٨٤ م اشتدت وطأة الحصار على المدينة ومنعهم الأنصار من ورود ماء الشاطة . فأمر الجنرال باخرتين كي تقطرا مياه البحر لحين إنشاء كندانسة بجزيرة الشيخ عبد الله الجبرتي الواقعة شمال جزيرة سواكن ،[1] ثم تم توزيع المياه على الأهالي والجنود ، وكانت المواسير ممتدة فوق البحر على أعمدة من الحديد حتى تصل مخزن المهمات ومنه تتفرع بين المصالح . وفي سنة ١٩٠٤ م أنشئت كندانسة أخرى بالشيخ أبو الفتح .

واشتبك الأمير عثمان في قتال مع الجنرال جراهام[2] ، الذي يقول عنه المستر

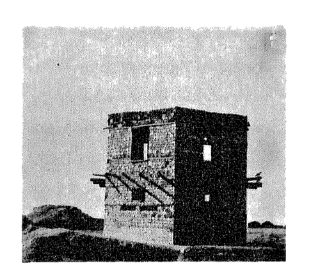


واقعة التيب بين الأمير عثمان دقنة والجنرال جراهام
ويرى فيها اقتحام السودانيين للمربع البريطاني

(١) يكثر الفوصفور في بحر هذه الجزيرة التي تنبت فيها الحشائش بكثرة هائلة فيتغذى منها السمك ، ولذلك تجده ذا طعم لذيذ بخلاف سمك جهات البحر الأحمر الأخرى ، كما وأنه سمين جداً .

(٢) واقعة التيب الثالثة وتأماي (كانتا سنة ١٨٨٤ م) .

بلنت (Blunt) أنه مستعد لدفع مكافأة من النقود لمن يأتيه بذراع أنصاري من جنود الأمير. فما كان من عسكره إلا أن قطعوا ذراع رجل حي وأتوا بها في معسكرهم (نشرته التيمس). وقالت إن جيش الأمير غنم من الجيش الإنجليزي سبعمائة جمل وألف من كل من البغال والحمير. وخمسمائة من الخيل ومائة وخمسين سائساً (خادماً) لهذه الحيوانات. فأطلق الأمير الأخيرين[1]. فأرسلت الحكومة البريطانية التعليمات بعودة الجنرال جراهام بفلول جيشه من سواكن بعد أن أوقد النيران في المؤونة التي كانت مخزونة في زرائب بجبهة طابية المحجر (جنوب سواكن). ولم تتطفىء هذه النيران إلا بعد ثلاثة أشهر. وهي كانت معدة لإقامة عشرات السنين تتكاثر أثناءها عدة جيوش من كافة أنحاء الإمبراطورية البريطانية. ولكن الطليعة حالفها سوء الطالع وتأخرت عنها النجدات. فعادت من حيث أتت.



قلعة هشيم الواقعة في الجهة الشمالية من سواكن. وهي التي قتل فيها الأمير محمد فاي بن علي بك دقنة الكولونيل بضربة فيصل تركته شفعاً. ولكن الكولونيل اطلق عليه رصاصات من مسدسه فسقط بجانبه شهيداً. ثم حمل إلى هندوب وصلى عليه عمه الأمير عثمان دقنة. وحمل جثمانه إلى هناك السيدان محمد أبو فاطمة وجماع يعقوب.

(١) نشرت الابزيرفر Observer أن الجنرال جراهام تقهقر أمام جيش الأمير ولذلك قرر عدم مبارحته لسواكن حيث أن العدو (الأنصار) قد استولى على الحملة وحيواناتها. أما في قتال سنة ١٨٨٥ م فإن الأمير استولى على البقية الباقية لدى الجنرال جراهام وهي نحو عشرة آلاف حيوان بخلاف ثلاثة آلاف وخمسمائة حصان، وسبعة آلاف جمل أحضرت من الصومال الإنجليزي.

(١) أمير كسلا سنة ١٨٨٤ م.

وقد حاول الجنرال جراهام في مد شريط السكة حديد[1] مبتدئاً من جزيرة الشيخ عبد الله شمالاً نحو جبل هندوب وابتعد نحو ثمانية عشر ميلاً بعد جهاد مرير . وكانت للجنود والعمال قاطرتان اسمهما (شغل) والثانية (غير جيد[2] Work and No Good) . وعرض الشريط نحو ثمانية عشر بوصة . فلما لغيت سكة حديد سواكن بربر سافر الجنرال جراهام ولم يترك إلا شريط السكة حديد الذي يلف حول الكندانسة والقيف ، ولا تزال آثاره باقية إلى اليوم . فكان أحد القطارين يطوف حول القيف ، والثاني يحمل ضابطين وثلاثين جندياً ويذهب بهم بـسـراً وبالعمال إلى رأس السكة[3] لإتمام العمل .

ثم جاءت التعلميات من الخليفة عبد الله (بعد وفاة الإمام المهدي) إلى الأمير عثمان دقنة كي ينقل رئاسة معسكره من هندوب إلى توكر . وبعد عامين أو ثلاثة خرج من سواكن أبناء سعادة محمود بك علي زعيم الفاضلاب الأمارأر (كان مخلصاً جداً للحكومة وقد حارب الأمير في عدة وقائع كانت آخرها واقعة الشيخ برغوث (بورتسودان) ولكنها أمرت بسجنه . فاستاء أبناؤه من ألفاظ غير أدبية نطق بها كتشنر باشا . فأخبروه بعدم إمكانية تعاونهم معه ومع حكومته .[4] فقال لهم الجنرال اذهبوا حيث شئتم لكم ملء الحرية) .

وتلقاهم الأمير عثمان بضرب النحاس واحتفال عظيم . ثم أوكل إليهم الدفاع عن طريق هندوب بربر . وتوجه إلى توكر استعداداً لهجوم العدو المنتظر . وذهب لجمع بعض المجاهدين من جهة بني عامر . وقبل أن يستكمل استعداداته أنزلت الحكومة جيوشها بميناء ترنكتات ومعهم معدات الفتك الحديثة (مكنة الرشاش) . فأخذت جيش الأمير قبل استعداده (يناير سنة ١٨٩١) فأمر الأنصار بالتقهقر إلى الجبال . ثم

---

(١) من سواكن إلى بربر لنجدة الجنرال غردون قبل مقتله .

(٢) هذه تسمية أهل سواكن . ولما علم الأمير بعد الشريط أرسل عصابة باغتت الجيش والعمال ففر القطار بعرباته عائداً إلى سواكن . فأرسل الأمير في طلب الحدادين من سواكن وطوكر من أبناء شَقَلَىْ Shagalai وأمرهم بعمل الأسلحة من القضبان التي تتبقى من سقف جامع هندوب .

(٣) استأجرت الحكومة الإنجليزية أربعين باخرة لنقل أدوات السكة حديد المذكورة .

(٤) الإنجليزية المصرية .

نقل معسكره إلى أدرأما Adarama على نهر عطبرة . واشترك الأمير في كافة مواقع المهدية خصوصاً واقعة الخيّالة بشعبات التي هزمت فيها خيالة الإنجليز . ثم ارتحل مع الخليفة إلى الغرب وكان معسكره بعيداً عن معسكر الخليفة . وقبل واقعة الجديد (٢٤ / ١١ / ١٨٩٩) بيومين لسعت حية الشيخ محمد بن الشيخ الطاهر المجذوب فاضطر الأمير أن يبقى بجواره[١] . ولم يحضر استشهاد الخليفة عبد الله وأصحابه . فأوصى أصحابه أهل شرق السودان بالعودة إلى بلادهم فركبوا باخرة من جهة الدويم . ومنها إلى رفاعة ثم البطانة ثم حمرى (Humri) .

أما الأمير عثمان فقد تنكر إلا عن أخصائه حتى وصل حمرى ، وأقام فيها أياما والحكومة جادة في طلبه . ثم بارحها ومعه شاب من أرتيقة باعثمان[٢] ، فلما وصلا أوْدي Owdi أرض الهاكولاب قام معه شاب هاكولابي[٣] أوصله إلى جبل ـ أوَرّبَا Awarriba عند قبيلة الجميلاب . وكانت الحكومة مهتمة بحركاته ، فأرسل إلى الأرتيقة بتوكر كي يرحلوه إلى الحجاز . فأعدوا سنبوكاً في ترنكتات وآخر في هيدوب وثالثاً في شمال العقيق أعده والدي والشيخ أكد موسى[٤] . ولكن خبر وجوده في أوَرّبَا انتشر وسمعه الكثيرون خصوصاً الخليفة الأمين أدروب الذي بلّغ النبأ للخليفة الصادق الأرتيقي . وهذا بدوره أخبر محمد بك أحمد مأمور سواكن ، الذي جاء إلى محل وجود الأمير فجأة ومعه قوة من البوليس والمستر برجس[٥] Burgess وضابط من البحرية البريطانية . فألقوا عليه القبض ، واعتقلوه في رشيد ثم دمياط ، ثم أعيد إلى وادي حلفا بالسودان سنة ١٩١٥ م . وهنالك ألف المستر جاكسون كتابه (عثمان دقنة Osman Digna) باللغة الإنجليزية . وفي يوم ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦ م انتقل إلى جوار ربه بعد أن نيف على الثمانين عاماً . ونحن نتعشم من أبناء سواكن أن ينقلوا رفاته إلى سواكن لدفنه بقرب الدخولية عند باب شرق السودان ،

---

(١) أخبرني بذلك الشيخ عبد الرحمن الطاهر المجذوب الذي اشترك في واقعة الجديد .

(٢) اسمه الشيخ حمد أبو طاهر .

(٣) اسمه الشيخ أحمد إبراهيم عبد الله .

(٤) أعد للأمير سنبوك جدي الشيخ علي ضرار ورئيسه إبراهيم عروض .

(٥) استولى على جبة الأمير وأثقله بالسلاسل والأغلال وسنسهب في كيفية القبض عليه في تاريخ الدقناب .

ويعملوا له تذكاراً خالداً ببورتسودان يكون رمزاً للحرية والجهاد يشترك في تخليده كل سوداني وكل أجنبي يحب استقلال وطنه .

وقد توفي الإمام المهدي قبل الأمير وذلك في يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥ م . ورثاه الشيخ محمد بن طاهر المجذوب بقصيدة طويلة نقتطف منها الآتي :

دهتنا دواهٍ يضرس القلب نابها ... ويوقد في الأحشاء ناراً منابها
غداة نعى الناعون نور الوجود من ... به ملة الإسلام جل مصابها
إمام الهدى المهدي أفضل من دعا ... إلى الله مفتاح النجاة وبابها
ألا قد أصبنا إذ عدمنا حبيبنا ... وضاقت بنا الأرض الوسيع رحابها
ليبك له الدين الحنيف وملة ... أبان هداها حين تم خرابها
فقدناك ياهدياً يتمنا بفقده ... فقدناك ياشمساً دهانا غيابها
إلى الله إنا راجعون هو الذي ... إليه نفوس العالمين إيابها
هو الفاعل المختار باق وأنفس الـ ... ورى كلها جمعا إليه انقلابها
وكنا نرى أنا نفوز بوصله ... بذي الدار حتى صاح فينا غرابها
فلم يبق فيها الآن ما يبتغى له ... بقاها فقد أضحى سراباً شرابها
سقى الله أرضاً ضمنته بقاعها ... به فاقت العرش العظيم قبابها

إلى أن يقول في ختامها :

وألحقنا المهدي في جنة العلى ... ليذهب عن هدي القلوب اكتئابها
ألا أبلغوا عنا ضريح أبي الهدى ... تحايا إلى الله الكريم انتسابها

وللشيخ المجذوب عدة قصائد أشهرها التي كانت عقب واقعة تأماي وهي طويلة جداً مطلعها :

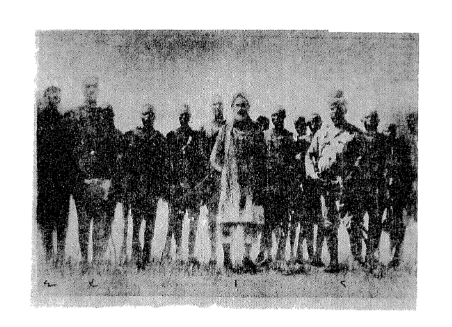
أذكرت حي سعاد والعمّارا ... وطفقت تندب بعدها الآثارا
أم شاق قلبك خدر ليلى والخبا ... وذكرت ثَمّ مرابعاً وديارا

إلى أن يقول :

فدع الصبابة والبكاء ولُذْ بمن … نطق الحديث بفضله أخبارا
محمد المهد بن عبد الله من … أضحت معالم جوده آثارا
حامي حمى طود المعالي كامل … حرم منيع لا يضام جوارا

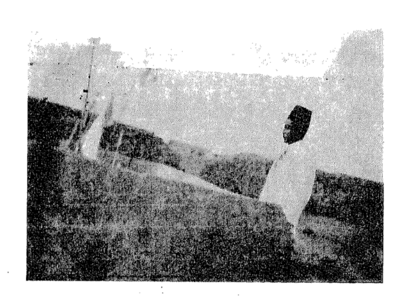
إلى أن يقول :

عَلَم فحيّهلاً بذكر جنابه … مهما امتدحت الصالحين بدارا
بل بحر علم زاخر من حضرة … قدسية وهب العلوم غزارا
فترى ملوك الترك أسرى عنده … وترى النصارى واليهود حيارى
قوم إذا الهيجاء أظلم جوها … كشفوه عن قتلى كذاك أسارى
وإذا حمي جمر الوطيس رأيتهم … أبناء قيلة يطلبون الثارا
وإذا همو نزلوا بساحة معشر … ملأوا السما بالصافنات غبارا
وإذا همو ابتدروا القتال علمتهم … أن ليس يروا المنية عارا
ثم الأمير أبو علي إنه … خواض الغمرات والأكدارا
عثمان من في الله حل بسيفه … عقد الضلال وأوهن الكفارا
بطل تهاب بنو الأصيفر بأسه … لم لا وساء صباحهم تكرارا
متوكل زهد الدنا متواضع … ليْن شديد ما فتى صبارا
ناهيك فيه إذ الإمام اختاره … فغدا له تقوى الإله شعارا
أسرت وما صحبي بعزل لدين الوغى … ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حمّ القضاء على امرىء … فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابي الفرار أو الردى … فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولكنني أمضي لما لا يعيبني … وحسبك من أمرين خيرهما الأسر



الأمير عثمان دقنة عندما وقع في الأسر

١ ـ الأمير عثمان دقنه ٢ ـ محمد بك أحمد ٣ ـ المستر برجس ٤ ـ ضابط بريطاني



محمد نور بن ضرار بن علي أمام قبر الأمير عثمان أبو بكر دقنة في مدينة وادي حلفا سنة ١٩٣٠ م .

القضاء الشرعي بسواكن

لم يكن القضاء الشرعي معروفاً بحالته الراهنة في الزمن السابق حتى استيلاء الاتراك على أرض الحرمين ومدينتي سواكن ومصوع . وأصبحت كلتاهما تابعتين للحجاز . وأصبح تعيين الموظفين من قبل والي الحجاز . اما في مديريات السودان الأخرى فإن الحال كان مخالفاً للمدينتين . فكان الحال في الداخل كما ذكره مؤلف كتاب تاريخ سنار ومملكة الفونج [1] « إن الفونج ملكت بلاد النوبة وتغلبت فيها في أول القرن العاشر بعد التسعمائة . وخطت مدينة سنار . خطاها الملك عمارة دونقس ، وهو أولهم . وخطت مدينة (أرْبَجى) قبلها بثلاثين سنة . خطاها حجازي بن معين . وعلى هذا أن عمارة أربجي في مدة الفونج . ولم تشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . ويقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها بدون عدة إلى أن قدم الشيخ محمود العركي من مصر . وعلم الناس العدة . وسكن الأبَيَض . وبني له قصر يعرف به الآن » . فلما انتشر تدريس العلوم الدينية بسائر أنحاء السودان عملت القبائل بالشريعة الإسلامية . وكان المذهب السائد في كافة مدن البوادي السودانية هو المذهب المالكي إلا في مدينة سواكن ومصوع فإن العمدة فيهما كان للمذهب الحنفي لأن سلطان الدولة العثمانية كان حنفياً . ولا تنفذ أحكام أي مذهب بهما سواه [2] .

ولم يظهر المذهب الشافعي في داخلية السودان إلا بعد أن قدم الشيخ محمد بن قدم دار بربر . وأدخل فيها مذهب الشافعي . وانتشر مذهبه في الجزيرة . وما زالت سواكن ومصوع منفصلتين عن سائر أنحاء السودان يعمل فيهما رسمياً بالمذهب

---

(١) هذا الحديث منقول حرفيا من كتاب تاريخ سنار ولم نغير في لغته شيئاً .

(٢) حيث أن أهل سواكن وهم من الأرتيقة والبلويب والأشراف والحسناب سمح لهم بأن يكون شيخ العلماء من الحسناب . وأن تكون إقامته في بيت العلماء ، وأن يتولوا إمامة الجامع الشافعي (وهم عمريون قرشيون) .

الحنفي . وإن أي مالكي إذا أراد أن يتولى القضاء فيهما طورد شر مطاردة[1] ، بل ربما حوكم وأخرج من المدينة قسراً . وبعد أن استقرت الحال بسواكن وانتظمت الأمور وردت التعليمات من إسطنبول إلى قاضي قضاة مكة المكرمة بأن ينشيء محكمة شرعية بسواكن ، ويعين فيها أحد علمائها لمنصب القضاء الشرعي . فوقع اختياره على القاضي الشيخ محمد محي الدين بن أحمد بن محمد القملي[2] ، وهو من أكفأ علماء سواكن . وطلب منه والي الحجاز وقاضي القضاة أن ينشيء محكمة شرعية على نظام محاكم المملكة العثمانية . فاعتذر فضيلته عن قبول الوظيفة . وقال إنني عازم على مجاورة الحرم الشريف . فقال له الوالي لك الحق في أداء الحج سنوياً على حساب « البادشاه[3] » وأنك تتلقى التعليمات دائماً من قاضي مكة المكرمة . وليست للمحافظ (قائمقام) أي سلطة على أعمالك . فوافق القاضي محمد محي الدين واستلم من قاضي قضاة مكة المكرمة المنشور الوارد من شيخ الإسلام بالآستانة للعمل بمقتضاه في المحاكم الشرعية الحنفية في أملاك الدولة العلية . وهاهو نص المنشور وقد تحصلنا عليه وعلى بقية الوثائق الشرعية من حفيده صديقنا الأستاذ الكبير عبد القادر أوكير القاضي عبد القادر نائب مدير المعارف السودانية .

ونحن ننقل هذا المرسوم كما وجدناه مكتوباً بالضبط كما تقضي بذلك أمانة النقل . وهذه المراسيم جميعها مكتوبة بخط رقعة جميل جداً يحق أن يطلق عليه سلاسل ذهبية .

هذا صورت الأمر العالي السلطاني أدامه الله تعالى آمين .

قاضي مكة حالاً

(الختم)[4] الله ولي التوفيق

« أقضى قضاة المسلمين أولاً . ولأن الموحدين معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام

---

(١) سيأتي ذكر ذلك . فكان القاضي المالكي يفر بجلده من العقاب التركي .

(٢) كان أعلم أهل سواكن بالمذهب الحنفي مع إجادته التامة للشافعي . وكان أهل سواكن يدرسون العلوم في مدينة زبيد باليمن ومدارس موخا .

(٣) تعريبها سلطان السلاطين أو ملك الملوك وهي فارسية وتركية .

(٤) الاسم غير واضح .

الشريعة والدين . وارث علوم الأنبياء والمرسلين . المختص بمزيد عناية الملك المعين . مولانا قاضي مكة المكرمة زيدة فضائله . فعند وصول توقيعنا الرفيع الهمايوني[١] وخطابنا السامي المنيف الخاقاني[٢] . فليكون معلومك . وليرسخ في مفهومك أن الباعث لصدور ولات الأحكام الشرعية . والموجب لتنصيب النواب في محاكمنا العثمانية . من سالف ترتيبات أسلافنا السلاطين العظام . وعادات أجدادنا ملوك الإسلام . فما هو جل مقاصد مرادهم في كافة المالك المحروسة إلا محض تحصيل راحة العباد . وترفيه حال الفقراء في كافة البلاد . وإجراء أحكام الرب المعبود . وقرار اطمنان خليقته في حما ظل عدله المحدود . لانتظام ما يحدث للأنام من التقاضي في الدعاوي بين أيدي الحكام . موجب شريعة سيدنا محمد سيد الأنام . وتقسيم مخلفات أموال المسلمين للورثة . وحفظ أموال الأيتام من صغير وصغيرة . وتسجيل أمور أهل البلاد لمحافظة حقوقهم في القرب والبعاد . فهذا هو جل المرام . من توليت الحكام في الأنام . فمن مدة أيام عديدة . وقع الاختلال بمكة المكرمة في كل حال . ولم يعتبر في الأحكام للشريعة بالتحري فليعلم مولانا الموصى إليه . المعول في الأحكام الدينية عليه . عند وصولك بمنّه تعالى إلى مكة المكرمة . والبقعة الطاهرة المعظمة . أن تبذل جل همتك بالإقدام . في إجراء الشريعة في الأحكام وتدقق إمعانك في ذلك الخصوص على الدوام . ومهما يقع من الدعاوى الشرعية . وتحرير التركة للأموات وأموال الأيتام . وتقوم بالعمل في ذلك بالوجه الشرعي . والقانون المنيف المرعي . وإذا وقع شأن من ذلك ولم يكن صغير ولا صغيرة . وغائب وغائبة . ولم يطلبوا الورثة القسمة . فلا يجبر في القسمة بين الوراث . وان وجد صغير وصغيرة وغائب وغائبة . واقتضا الحكم أن تقسم بين الوراث . فأول ما يخرج دين الميت المثبوت بالوجه الشرعي . وبعد إخراج الديون يخرج من المال الموجود لحكام الشرع وخدامهم ما خصص وعين لهم بتجويز فقهاء الإسلام . هو ربع العشر كالزكاة . وهو خمسة وعشرون إخشة[٣] في الألف الإخشة . وأن لا يؤخذ حبة زيادة . وتقسيم ذلك الربع العشر على خدمة المحكمة

---

(١) السلطاني .

(٢) الإمبراطوري .

(٣) أقل قطعة في العملة السلطانية .

للكتاب والمحاضر على القانون القديم . والدأب المستديم . وأن تحكم فيما يبدو من دعاوى العباد بالوجه الشرعي . بأقوا الأقوال المفتي عليها من الأئمة العظام . رضي الله عنهم . ويكون الفصل والحسم بذلك . والحذر من وقوع خلاف ما هو مسطور في فرماننا [1] العالي المنيف . فلموجب ذلك أصدرنا أمرنا هذا إليك . فالآن المطلوب أن تكون ممتثلاً لأمرنا . مجرياً للأحكام بالوجه الشرعي بمزيد الاهتمام والديانة . والتحقق بأقوال المجتهدين المفتي بها المعمول بمسائلها . وأن لا يقع الحيف على أحد بخلاف الشريعة الغرا . وتكون مستجلبا بذلك صالح الدعوات . من الخاص والعام . في شريف ذلك المقام . لاستحصال رضانا كما هو القصد والمرام » .

فاعترض أهل سواكن على نظام المحاكم الشرعيه كعادة كل الناس عندما يأتيهم شيء جديد . وخصوصاً إنشاء محاكم شرعية على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت . وكانت غالبيتهم على مذهب الإمام محمد الشافعي [2] . واضطروا لمقاطعة المحكمة والحكومة حتى توفي فضيلة الشيخ محمد محي الدين بن أحمد بن محمد القملي . ولا تظهر هذه الخلافات المذهبية إلا في يوم أول رمضان . ويوم أول عيد الفطر أو الأضحى . إذ تأتي البرقية من إسطنبول أو مصر بالصيام . أو الافطار أو وقوف عرفات . فيخضع لها الأحناف والمالكية . أما الشافعية فيتمسكون بالرؤيا كما أوضحها علماء المذهب الشافعي . وهذا مالا ترتاح له نفوس رجال الدولة (أحناف) .

ولما انتقل الشيخ محمد إلى جوار ربه خلفه على القضاء ابنه فضيلة الشيخ عمر . وقد تعين بمرسوم قضائي صادر باللغة التركية موقعاً عليه في نهايته بالختم الآتي :

يامفتح الأبواب افتح لنا خير الأبواب . محمد عبد الوهاب وعلى هامشه الجمل الآتية باللغة العربية :

---

(١) تطلق على المنشور السلطاني أو الملكي .

(٢) كل الأتراك ومواليدهم أحناف . فكانت الأحكام الشرعية والمدنية والمعاملات وكل الخلافات التي

وأعرف حضرة أفندينا المكرم المفخم المعظم بأن علماء الحنفية صرحوا في كتب الفقه « لا ينفذ حكومة القاضي الشافعي[1] على الحنفي إلا إذا قلد مذهب الأمام الأعظم وصدر المنع من حضرة السلطان على هذا والسلام ».

فتمسك فضيلة الشيخ عمر بن محي الدين بحرفية الفرمان. وكان حازماً في أعماله. ومشدداً في تنفيذ أحكام الشريعة على الكبير والصغير. واعترض على أحكامه قائمقام سواكن. وحدثت بينهما مشادة عنيفه اضطر على أثرها أن يعزله عن القضاء. فسافر الشيخ عمر ورفع الأمر إلى قاضي القضاة بمكة المكرمة. وآخر إلى والي الحجاز الذي أمر قائمقام جدة كي يكتب لمحافظ سواكن. فامتثل وأرسل الجواب الآتي وهو صورة طبق الأصل:

قدوة الأماجد وعمدة الأعيان رفيع الشان المكرم المحترم حالا قائمقام بندر سواكن الحاج محمد آغا زيد مجده.

بعد التحية والتكريم. والمعزة والتسليم. تحيطون علماً لا خافيكم من خصوص الشيخ عمر أفندي محي الدين. قاضي سواكن سابقاً. فلمذكور فهو رجل صالح من ذوي البيوت. ومن قديم الزمان قائم بخدمة الشريعة النبوية. وإجراء مراسيم أحكام الطريقة السنية المصطفوية. وهو أهلا ومحلًا في تلك الجهات إلى هذه الخدمة الشرعية. والآن بلغنا أنه بين تعاديه ببعض أهل السوء عزل. ففي حال وصول كتابنا وأمرنا اليكم. وفهمتم ما فيه مسطور في أثناء السطور تشملوه بحلول أنظاركم. وتؤيدوه وتقيموه في خدمته كما كان من غير توقف ولا امتحان. وأنت ياشيخ عمر أفندي محي الدين تكون في خدمتك مقيم على الصراط المستقيم. وتكون موافق قائمقام المذكور في كافة الأمور وبالك أن يحوز على الرعايا ويقع منك قصور. وهذا

تنتج عن ذلك تحال جميعها إلى القاضي الشرعي. وهو الحنفي المذهب. ولاحظت أن بضائع التجار وقوافلهم ترسل عن طريق سواكن توكر. وسواكن كسلا. تحت ضمانة ناظر الهدندوة وكذلك طريق سواكن سنكات. أمور أرياب. ثم بربر وأما طريق سواكن هداسانا دس ابل آرياب بربر تحت نظارة الأمارأر. (هكذا وجدت هذا التذييل في الأصل) ض.

(١) هذا افتئات على بقية المذاهب إذ أن الدولة العثمانية لا تعتمد إلا المذهب الحنفي. وكافة الكتب المستعملة في محاكم الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك مصر والسودان كلها على مذهب أبي حنيفة النعمان.

وصل هذا الأمر إليكم اعملوا بما فيه . الحذر ثم الحذر من الخلاف . واعتمدوا ختمنا ومهرنا والسلام .

حرر في (٢٣ جمادى الأولى سنة ١١٩٦ هـ) (الختم)

محمد كبير قائمقام بندر جدة حالاً

وتسلم فضيلة الشيخ عمر نسخة من الخطاب واستأنف أعماله حوالي سنة ١٣٠٧ هـ حتى انتقل إلى دار البقاء . وخلفه ابنه فضيلة الشيخ سليمان بن عمر . ولأول مرة اتفق المحافظ والأهالي على تولية القضاء والإمامة والخطابة في الجامع الحنفي لحين وفاته .

فاتفق الحاكم والاهالي على أن يخلفه أحد فقهاء مذهب إمام دار الهجرة (الامام مالك) . فسمع قاضي قضاة مكة المكرمة بما أتاه القائمقام من مخالفة النظام الشرعي لدى حكومة السلطان العثماني . وأرسل إليه الخطاب التالي . وهو أيضاً صورة طبق الأصل :

« قدوة الأماجد والأعيان . قائمقام بندر سواكن حالاً . كورد محمد آغا زيد مجده . وقدوة النواب المعتبرين . نائب الشرع الشريف . القاضي أحمد سالم . وعمدة ذوي الإفتاء والتدريس . مفتي بندر سواكن حالاً المفتي محمد رشيد . زيدة علومهم . وسائر من له مدخل فيما سيذكر فيه . خصوصاً وعموماً . تحيطون علماً جميعاً أنه أخبرنا الحاج إبراهيم آغا قائمقام سواكن سابقاً . وكذلك أخبرونا جميع الواصلين من بندر سواكن . ومن جملتهم إبراهيم جوزمجي المباشر . وذلك من خصوص مسجد الحنفي أن في السابق كانت إمامته وخطابته يباشرها كل قاضي حنفي والآن القاضي الموجود مذهبه مالكي . فعند ذلك استحسنا بأن يكون المباشر لوظيفة هذا المسجد مذهبه حنفي فسألنا أهل سواكن وغيرهم ممن له وقوف على من يصلح لمباشرة الوظيفة . فأخبرونا عن الشيخ عبد القادر بن الشيخ عمر أفندي محي الدين أنه من الصالحين . وكانت الوظيفة المذكورة يباشرها والده وأخيه . فعند ذلك أقمنا الشيخ عبد القادر أفندي بن عمر إمام وخطيب المسجد الحنفي الكائن ببندر سواكن . فمن حال

وصول أمرنا هذا إليكم تعملون بمضمونه . ولا تعارضوا المذكور فيما ذكرناه . والحذر من المخالفة وسلوك الخلاف وختمنا عمدة ولمس الاعتماد .

وهو حسبنا ونعم الوكيل ٢٢ في محرم الحرام سنة ١٢٠٨ .

محمد كبير قائمقام

جدة حـالاً

وبناء على ماتقدم عزل القاضي المالكي وخلفه الشيخ عبد القادر بن عمر الذي بعث إليه قاضي قضاة مكة المكرمة بالمنشور الآتي كي يعمل بمقتضاه في أحكامه وأوامره .

الحمد لله وحده

الذي يعلم به الشيخ عبد القادر عمر قاضي حنفي سابق [١] أننا قد أقمناك من طرف الشرع الشريف وكيلاً عن السلطان . نائباً بأرض بندر سواكن ونواحيه [٢] والتحكم بأصح الأقوال على مقتضى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت وأوصيناك بتقوى الله في السر والعلانية . وأن نفعل مايسوغ للثواب فعله بمقتضى الفرمان السلطاني . أن لا يؤخذ من التركات المقسومة إلا ربع العشر كالزكاة وإنك تنظر في حال الفقراء والمساكين وتقسيم مخلفات أموال المسلمين على الوارثين لهم بمقتضى الفريضة الشرعيه . وتعمل بموجب الفرمان السلطاني المقروء بمحكمة مكة المكرمة بحضرة جمع من أعيان المسلمين . وتقيد صورته بالسجل المحفوظ الشريف . وما هو الواقع جرى وحرر في عشرين من شهر محرم الحرام افتتاح سنة ١٢٢٩ هـ ألف ومائتان وتسعة وعشرين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الفقير السيد محمد صديق

القاضي

بمكة المكرمة حالاً

---

(١) يعلم من هذا أنه خلف أخاه القاضي سليمان ثم عزل ثم تولى ثانياً .

(٢) من هنا يعلم أن سلطة تولية قضاة ضواحي (مراكز) سواكن أصبحت لأول مرة بيد القاضي عبد القادر .

تولى الشيخ عبد القادر بن عمر القضاء بسواكن . وفي أيامه زاره المستر بورخهارت .السويسري سنة ١٨١٣ م . ولقي منه كل حفاوة وإكرام . وأرسل معه القاضي خطاباً إلى سمو الخديوي محمد علي باشا يشكو فيه من تهاون الناس بالأحكام الشرعية . وعدم الاهتمام بالدين الحنيف . وازدياد عدد المتخلفين عن صلوات الجماعة والجمع . فطلبه الخديوي للشخوص إليه بالحجاز[1] . فلما اجتمعا تذاكرا في كافة شئون سواكن الدينية والاجتماعية . ثم أنعم سموه عليه بكسوة القضاء العليا . وأصدر منشوراً بتأييد سلطته القضائية إلى عموم أهل سواكن . وآخر إلى قائمقام بندر سواكن وهاهي : -



قدوة الأماجد والأعيان . قائمقام بندر بسواكن حالاً . أحمد آغا بن محمد سيفي زيد مجده . وعمدة أهل الإفتاء والتدريس . مفتي أفندي حالاً . وباشكاتب أفندي . وسائر زيد معرفتهم . وأغوات العساكر وسائر من له مدخل فيما[2] خصوصاً وعموماً ليكن في معلومكم. . . . . مفتي مكة قد صار معلوم بالانها بأن القاضي ببندر سواكن في بعض الأحيان شافعي المذهب . وكان قبل حنفي المذهب . فلما تحققنا المذكور قد أمرنا بمقتضا سلطان المسلمين . وخاقان الموحدين . خادم الحرمين الشريفين . بأن قاضي مكة المكرمة نصب الشيخ عبد القادر عمر زيد فضله قاضياً لبندر سواكن حالاً لأنه لا يجوز القاضي يكون إلا حنفي المذهب على مذهب السلطان أدامه الله دومه ملكه . وأقام دوام سعادته . فأنتم يامن ذكر أعلاه بموجب المراسلة

---

(١) غير واضح

(٢) كان الخديوي في حرب مع السعوديين .

الشرعية لا أحد يعارضه فيما ذكرناه بوجه من الوجوه أبداً مطلقاً . والحذر ثم الحذر من المعارضة في ذلك . والخلاف وسلوك الخلاف . وختمنا بحمده على ذلك وبالله الاعتماد وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم .

غرة م ١٢٣٠

منشور عام

خطاباً إلى أهالي بندر سواكن العلماء والفقهاء . الأكابر والأعيان . التجار والأصناف . فليحيطون علماً بأنه بحسب قواعد القديمة . ونظاماة المستديمة . قاضي الذي يجلس في ديوان الشريعة لم يكن غير من سلالة مذهب الحنفية . وبما أن سعادة أفندينا ولي النعم المعظم دام إجلاله سابقاً نختار حامل مرسومنا هذه الشيخ عبد القادر . ولبسه قاضياً على بندر سواكن . وكذلك نحن من بعد ما استفحصنا . وتدققنا على المذكور . فلم رأينا منه صدر أمر مخالف الشريعة يستحق بها العزلة . فمن بعد تحقيقنا ذلك يوم تاريخه ألبسناه . كورك[1] القضاوة وجعلناه قاضياً على بندر سواكن . فالواجب واللازم على الكل في متوللي بندر المذكور يكن مطيعاً لأمره . سامعاً لقوله . والآن متوجه صحبة قائمقامنا المرسول من طرفنا حسين أفندي فليكن معلوماً عندكم والسلام .

الختم في ٣ محرم ١٢٣٦	ياخفي الألطاف نجينا مما نخاف عبد رستم ١٢٣٠	عبد رستم آغا أمال كمرك . . . . . بندر جده حالاً

وأصيب القاضي عبد القادر بحمى وهو في مكة المكرمة توفي على أثرها رحمه الله[2] فكان هو وذريته وأسلافه مسئولين عن كل مقتضيات الجامع الحنفي المذكور وفيه (بأعلى المحراب) لوحة كتب عليها الآتي :

(١) تطلق على روب القضاء الشرعي الممتاز في ذلك العصر

(٢) عاد ابنه الشيخ حسين بالكسوة والوثائق المذكورة الى سواكن .

بنى المسجد الحنفي المنيف عزيز المنصب العالي المقام
رفيع الشأن مولانا المعلى وزين المجد يعسوب الكرام
هو الصدر الجلي عثمان باشا أدام الله عزه والهمام
له سبب البنا يعقوب أغا جزاه الله نيلاً للمرام
وحرف العين مع راء وسين لتاريخ ففي رجب التمام

فيعلم مما تقدم أن مجدد بناء هذا الجامع هو يعقوب أغا بأمر من الصدر الأعظم (دولة رئيس وزراء تركيا) عثمان باشا في شهر رجب سنة ١٢٦٠ هـ ١٨٤٤ م .

ولما انضمت سواكن إلى أملاك الحكومة المصرية استصدر محافظها (ممتاز باشا مرسوماً من الخديوي إسماعيل باشا بتعيين القاضي عبد القادر حسين بن عبد القادر أفندي إذ كان أول الفائزين في الامتحان الذي عمله مندوب مشيخة الأزهر الشريف بسواكن .

فكان نزيهاً جداً . ومدققاً في أحكامه الشرعية والمدنية . خصوصاً الجروح . فإنه يعطيها استحقاقها من العناية سواء كانت كبيرة أو صغيرة . واشتهر بتعيين القضاة من أبناء البيوتات الدينية في المراكز التابعة لرئاسة فضيلته . فعين الشيخ وَهَاج آل سومايْ على سنكات . والشيخ أبو فاطمة الأرتيقي على توكر . والشيخ سليمان علي قاضياً على العقيق وجزيرة بهدور التي تسمى (ابن عباس) .

وفي يوم ١٨ يناير سنة ١٨٨٥ م تنازلت الحكومة المصرية عن كافة حقوقها في السودان لأهله . فاضطر القاضي عبد القادر أن ينضم إلى جيش الأمير عثمان دقنة . وكان مرابطاً حول سواكن . فصادرت الحكومة منازل القاضي وأقاربه . وهي التي بني على أنقاضها[1] البنك الأهلي المصري سنة ١٩٠٣ م . كما صادرت أملاك الأمير عثمان دقنة وجميع أهله . بل أمعنت في المصادرة حيث جعلتها تعم كل من اتبع الأمير . إذ نزعت أملاكهم حتى أملاك مولانا الشيخ الطاهر المجذوب إذ نزعت أملاكه

(١) أذكر أربع غرف كانت للمحكمة الشرعية . وأكثر من سبع غرف لمنازل القاضي وأهله لا تقل مساحتها عن مساحة منزل محمد أفندي خورشيد المجاور لها . ورفض مكتب التسجيلات إزالة اسم القاضي من أراضيه .

التي بناها على أراضيه وأراضي أهله . وهذا هو منتهى الظلم والاستبداد . ومن أغرب التسجيلات أن القضاة المدنيين والمسجلين لم يجدوا مندوحة يستحلون بها نزع ملكية أراضي هؤلاء الذين دافعوا عن حياض وطنهم .

فهل يأتي يوم العدل والإنصاف وترد الأملاك لأصحابها وينشر العدل رواقه على المظلومين !

وبعد خروج القاضي فضيلة الشيخ عبد القادر حسين[1] من سواكن ، أسندت إدارة الجامع الحنفي إلى الخليفة عبد الله محمد نور ، وأصبحت سواكن خالية من السكان والأهالي ، ولغيت صلاة الجمعة والعيدين في الجامع الحنفي والشافعي بالجزيرة ، وصارت المدينة تعج بالجيوش الجرارة . وكان محمود باشا طاهر شديد الوطأة على كل من له صلة رحم أو صداقة أو ضلع مع جيش الأمير ، وجعل أربعة من الجواسيس يتعقبون حركات القاضي ليلاً ونهاراً حتى ضج منهم ، وتخير أن يترك المدينة كما قال الشيخ جميل الزهاوي :

ويممت دار الملك أحسب أنني	إذا كنت فيها نازلاً أتمتع
وإني إذا ما قلت قولا يفيد في	مصالحها ألفيت من هو يسمع
ولم أدر أني راحل لمحلة	بها الفضل مجذوم الذراعين أقطع
إلى منزل فيه العزيز محقر	إلى بلد فيه النجيب مضيّع
ولم يتقدم فيه إلا من ارتدى	رداء به أهل الشنار تلفعوا
هنالك ناس خالفوا سنن الهدى	فمدت لهم في البغي بوع وأذرع
أتوا بشناعات فعيبوا فحاولوا	عدولا فجاءوا بالذي هو أشنع
ولما رأيت الغدر في القوم شيمة	وأن مجال الظلم فيهم موسّع
وأن الكلام الحق يُنبذ جانباً	وأن أراجيف الوشاية تُسمع
وهل راحة في بلدة نصف أهلها	على نصفه الثاني عيون تَطَلّع

(١) كان محبوباً عند عموم أهل مصوع خصوصاً أصدقاءنا آل الشيخ محمد بن علي وله قصائد في مدح الشيخ المذكور كما له قصيدة في مدح الشيخ مطلعها :

شكر الإله صنائع المتبحّر صيغا تفوق صياغة المتمهر

تعقبني في كل يـوم وليلـة إلى الحول من تلك الجواسيس أربـع
تراقـب أفعالـي وكل عشـية إلى يلدز[1] عني التقاريـر تُرفـع

وأسند إليه الأمير عثمان إمارة البحر الأحمر من العقيق حتى مصوع . وكان يجيد لغة أهل تلك المنطقة وله معرفة وصداقة مع شيوخها وأعيانها . ودارت معركة بين جيشه وجيش الرأس الولا في وادي شعب . وأخرى في وادي أدَرْهَمَا تقهقر على أثرها جيش الولا إلى جبال قَلَبْ .

وفي سنة ١٨٩١ م استردت الجيوش السودانية (متطوعين) مدينة توكر . وألقي القبض على القاضي عبد القادر . فسيق إلى محل الإعتقال أسيراً . فأستأسد معتقلوه . وشددوا في الاستبداد معه ومع سائر المعتقلين[2] وظنوا أن هؤلاء الأنصار يستعطفونهم لتخفيف ضروب سوء المعاملة . ولكنهم تمثلوا بقول الشاعر :

وسـاروا بنا للسـجن راجين أننـا نُـذَلّ لحكم الغادريـن ونخضـع
وما علمـوا أنا أنـاس نَمَتْهُـمُ إلى العـز أنسـاب لهـم لا تُضَيَّـع
وأنّـا إذا ما نابنـا الخطـبُ لم نكن نَضيقُ بـه صـدراً ولم نك نجـزع
وأنّـا مـن الأحـرار مهمـا تألّبـت علينـا عـوادي الدهـر لا نتضعضـع
وأنّـا إذا شـئنا خضوعاً لسـيد فليس إلى شـيء سـوى الحـق نخضـع
يحيـط بنـا من كل صوب وجانـب فريـق من البوليس يسـعى ويسـرع
ونُبْعَـدُ منفيين كلًّا لبلـدة ومـا ذنبنـا إلا نصائـح تنفـع

ثم جيء بهم إلى سواكن مؤملين أن يحاكموهم . ولكن محاكم الاستعمار خصوصاً إذا كان حديثاً . لن يجد فيها القاضي مادة تدين المدافع عن بلاده ضد عدو

(١) اسم لقصور السلطان عبد الحميد الذي كثرت في أيامه الجواسيس حتى كان زوال ملكه على يد جمعية الاتحاد والترقي حوالي سنة ١٩٠٨ م . وتولية السلطان محمد رشاد المعتقل الذي قال فيه الشاعر السوداني « مثل السلطان رشاد من السجن للكرسي » .

(٢) وأكثر الاسرى كانوا من مشاهير الأرتيقة أمثال أبناء فكي علي هُمَد طه . وهم وُفاج الأمين أحمد (ماتا في دمياط بالسل الرئوي) وأبو بكر وجيلاني ومجذوب ومحمد طاهر . فبعضهم مات في الواقعة والبعض في الاعتقال . وأفرج عن الشيخ محمد طاهر أوكير والقاضي أبو فاطمة والشيخ محمد الأمين فكي يسن . ويقول الشيخ عبد الرحيم بن الأمين فكي على أن من مات في الاعتقال أكثر من اثني عشر شهيداً (أرتيقة همد إيلاب) .

يغزوها من الخارج مستعيناً بالمرتزقة على نصرته ، وتحبيذ أحكامه وإدارته ، مع أن الدين يحذره من ائتمان أعدائه وتوليتهم مثقال ذرة من الثقة ، بل المسلم هو الذي يجعل نصب عينيه « لا تأمنوا إلا من اتبع دينكم » . ولما استقر بهؤلاء الأحرار المقام بسواكن تحت انتظار ما يستنبطه لهم المستعمر من نهاية - إذ أن البلاد لا تحتمل أحراراً بالأمس كانوا مستقلين يحكمون بلادهم . وأجانب أتوا لاستعبادهم بعد دفاع مجيد توسد فيه أكثرهم الثرى . ثم صدرت تعليمات المستعمرين بأن يوزع أسرى الحرية والاستقلال على البلاد المصرية حتى يخلو لهم الجو من المعارضة ليتمكنوا من توطيد أقدامهم . وسئل فضيلة القاضي الشيخ عبد القادر حسين عن رغبته فقال - اجعلوا معتقلي في أرض الحرمين . فأجيب إلى طلبه وبعد إقامة عشر سنين توفي بمكة المكرمة مجاوراً بيت الله الحرام .

جاورت أعدائي وجاور ربه	شتان بين جواره وجواري

وخلف الشيخ أوكير القاضي عبد القادر الذي هو والد صديقنا الأستاذ الكبير (السيد عبد القادر أوكير القاضي ، نائب مدير المعارف) وبين آل القاضي وآل الدُرقي (أصحاب السجادة الدينية في إرتريا) صلة رحم[1] . وكان من أشهر شعراء سواكن . فمن قصائده :

رفعت عماد المجد ياذا المراتبِ	وشيدت أركان العلا بمناقبِ
فما أنت إلا روضة مستنيرة	يحوم حماها كل عان وراغب
فلا غرو أن تبدو الرياض عواطراً	بِعُرْفٌ شَذِيٍّ أو ثمارِ المواهب
رأين سجاياك التي مُزِجَتْ بها	محاسن أخلاق بأطيب طائب
فقمت إذا ما الليل جن لذكره	وصمت إذا ما أبلج الصبح راغب
فما زالت الخيرات تجري بُحُورُها	لديكم ونهر العلم من كل جانب
ومصباح مشكاة الهدى منه لائح	وآراؤه تشجو بهن المشاغب
ولا خشية الإملاق يمنع رفده	يجود إذا ماجاد جود السحائب
ليوث إذا ما هاج هيج الكتائب	كماة لهم في الحرب ضربة لازب

(١) يسكنون مع الحباب (رحلة جروبي) Gruppe

إذا زاحـم الأبطـال في حفـظ دينهم لهـم مشـرفيات المواضي القواضـب

ولأخيه الشيخ محمد النور عدة قصائد أشهرها قصيدته الطويلة التي مطلعها :

حمـدا لمـن أهـدى بهـذا المفـرد الفاتـح الكهـف النبيـل الأبهـج

وكانت تسجيلات الأملاك والحجج الشرعية والقضايا المدنية والجنائية والشرعية والعقود والوصايا جميعها ، تسجل لدى قاضي المحكمة الشرعية . ونحن نورد هنا على سبيل المثال قضية[1] مشاجرة لم تثبت لدى القاضي لأن المدعي ربما رأى عدم إحضار أخته إلى المحكمة لئلا يكشف على رأسها أمام الجمهور ، وهذه عادة متأصلة في أهل سواكن ، ومراراً ما تنازلوا عن حقوقهم خشية أن يطرقوا أبواب المحاكم ،ويندر جداً أن تزاحم إمرأة أخوانها في تركة أبيها مهما كانت محتاجة ، ولا تسمح لأبنائها وزوجها بالتدخل في ذلك . وهذه حجة محمد حلواي المدعي على الناخودة عبد الرحمن محمد صديق بشج رأس أخته .

الأمر كما ذكر وحرر وسطر بيد الفقير إلى الله تعالى المعترف بالذنب والتقصير والراجي عفو ربه القدير ، عبد القادر بن المرحوم عمر بن محمد مْحي الدين بن أحمد القملي عفا الله عنه آمين آمين .

(الختم) ، خادم شرع شريف القاضي عبد القادر ١٢١٨

« الحمد لله وحده »

فهذه حجة صحيحة شرعية ، ووثيقة محررة يعرب مضمونها ، ويوضح مكنونها عند ذكر ما جرى بالمحكمة الشرعية ، المطهرة الحنفية ، بجزيرة سواكن المحمية ، لدى متوليها الحاكم الشرعي الواضع خطه ومهره الكريمين ، دام مجده وعلاه ، وهو أنه ادعى محمد حلواي على غريمه الناخودة عبد الرحمن محمد صديق بأن عبدك ضرب رأس أختي نفيسة بالحجر فشجه ، وأحضر العبد بين يدي الحاكم الشرعي فأنكر الناخودة عبد الرحمن ، وكذلك العبد . فكلفت المدعي محمد حلواي بإحضار البينة ،

---

(١) ولكل إنشاء خاصة .

فعجز ، فلما عجز أوجب الحاكم الشرعي اليمين على الناخودة عبد الرحمن ، فاستوفى محمد حلواي يمينه من عبد الرحمن صديق بوكالة أخته نفيسة المضروبة بحضرة الحاكم الشرعي ، فانتهوا منه ، لا لها دعوى ، ولا طلب لحق ، ولا استحقاق بحضرة الشهود الآتي ذكرهم ، ثم بعد ذلك طلب الناخودة عبد الرحمن بن محمد صديق من الحاكم الشرعي وثيقة تقوم بين يديه صيانة لعرضه لأمور الزمان . فأجاب الحاكم الشرعي بهذه الوثيقة كما ترى ، وثبت ذلك لدى الحاكم الشرعي المشار إليه ثبوتاً صحيحاً شرعياً أجازوا إمضاه ، وألزم العمل بمقتضاه جرى ذلك وحرر في ١١ شعبان يوم الأحد سنة ١٢١٨ هـ .

شهود الحال

(التوقيعات) أحمد بن أبو بكر ويل علي ، قاسم صديق الشاذلي ، علي بن عجيب ، محمد بن إبراهيم الكميلابي ، أبو الفتح إدريس التنكيرابي ، عيسى بن محمد العَوَضَلَّابي . ا هـ .

ونأتي هنا بحجة أخرى مستخرجة في سنة ١٢٠٥ هـ وهي خاصة بقطعة أرض موهوبة :

« الأمر كما ذكر وحرر وسطر بيد الجناب المفتقر إلى عفو ربه القدير ، سليمان بن المرحوم عمر أفندي بن محمد محي الدين بن أحمد بن محمد القملي المتولي بقضاء بندر سواكن عفا عنه آمين آمين آمين .

(الختم) . يا أحد عبدك سليمان بن عمر[1]

الحمد لله وحده

هذه حجة صحيحة شرعية ، ووثيقة محررة ومرعية يعرب مضمونها ويوضع مكنونها ، عن ذكر ما جرى بالمحكمة الشرعية ،بالطاهرة المطهرة الحنفية ، بجزيرة سواكن المحمية ، لدى متوليها الحاكم الشرعي ، الواضع فيه خطه ومهره الكريمين ،

(١) قال لي الأستاذ عبد القادر أوكير القاضي إن جده القاضي سليمان لم يعقب .

فدام مجده وعلاه . وهي أنها أوهبت ومنحت ـ وهي الحرمة الطاهرة الحاجة مريم بنت هَذأ علي الجناب المكرّم الحاج عبد الرحمن بن محمد صديق . الأرضية التي هي بواجهة بيته . ويفتح عليها الباب القبلي . وقَبِلَ الموهوب بإذن الواهبة . وقبض قبضاً صحيحاً شرعياً بعد التخلية الشرعية هبة بعوض فلا رجوع لها . وحد الأرضية المذكور طولها اثني عشر ذراع وعرضها ثمانية أذرع ونصف . جاهياً[1] طريق سالك . وشرقياً طريق سالك . وغربيا بلصق جاره حماد معتوق علي ويرْغَيَايْ وسُهَيْلِيًا[2] بلصق بيت الموهوب بمواجهة بيته الذي يفتح عليه الباب القبلي . بحده وحدوده . وطرقه واستطراقه . وما يعرف به وينسب إليه . هبة صحيحة شرعية . فبحكم ذلك ولزومه فقد صارت الأرضية المذكورة ملكاً من أملاك الجناب المكرم عبد الرحمن بن محمد صديق عبد القادر . وحقاً من حقوقه . يتصرف فيه كيف شاء مثل تصرف ذوي الأملاك في أملاكهم . وذوي الحقوق في حقوقهم من غير منازع له في ذلك . ولا ترافع لديه فيما هنالك . وثبت بمقتضى ذلك لدى الحاكم الشرعي المشار إليه أعلاه ثبوتاً صحيحاً شرعياً وأجازه وأمضاه . وألزم العمل بمقتضاه . جرى ذلك وحرر في غرة شهر ربيع الأول سنة ١٢٠٥ هـ نهار الثلاثاء .

شهود الحال والله خير الشاهدين

السيد موسى قِيلايْ . عبد القادر عمر أفندي القملي . علي بن محمد عثمان كُرُب والربان حماد معتوق علي ويرَعيايْ .



---

(١) الجاه تطلق على النجمة القطبية الشمالية .

(٢) أي من جهة طلوع النجم المسمى سهيل (أي الجهة الجنوبية) .

المساجد بسواكن

الجامع الشافعي بجزيرة سواكن :

هو المسجد الواقع في الجهة الجنوبية من الجامع الحنفي . وقد رممه الخديوي محمد علي باشا . وعلى محرابه لافتة مكتوب عليها الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » . عمر هذا المسجد الشريف ، والمقام المنيف إنسان عين حدقة الملك وذروة السلاطين أنعت أفندينا محمد علي باشا أدام الله مجده وعلاه .

ظل المهابة والسماحة والسخاء قعب الكرام ومشيد الأركان ، معن[1] الزمان ، فلا يقاس بغيره في الحكم ، والمعروف والإحسان .

من اسمه ميم وحاء بعد حاميم ودال قد علي الشان ، في محرم الحرام سنة ١٢٥٢ هـ الموافق ١٨٣٦ م .

وضم إليه الخديوي قطعة الأرض الواقعة بشرقه (بينه وبين بيت الجديد) وفي أيام المهدية لما خلت الجزيرة من الأهالي وضعت الحكومة علائف الجمال والحمير والبغال في الجامع المذكور ، كما بُنِيت اصطبلات للخيول في الفضاء المذكور . فلما استولى الأمير عثمان دقنة على هذه الحيوانات والركائب أخلى الجامع مما كان فيه ، وتعطلت الصلوات الخمس فيه ، واكتفى بالحنفي في إقامة الشعائر الدينية .

---

(١) معن بن زائدة المشهور بكثرة العطاء قال فيه الشاعر :

معن بن زائدة الذي زادت به شرفا على شرف بنو شيبان

وقال في مرثيته :

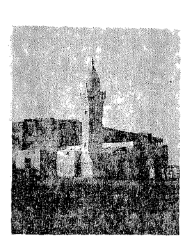
وقلنا أين نرحل بعد معن وقد ذهب النوال ولا نوالا

الإمامة والخطابة :

يتولاهما في الجامع الشافعي مشايخ من قبيلة الحسناب . وهم يمانيون عُمريون من ذرية الشيخ أحمد بن عجيل . ولهم المنازل والأراضي المجاورة للجامع كما أن لعلمائهم منزلاً كبيراً بنيت عليه منازل شركة تلغراف الايسترن لأن هؤلاء الحسناب بايعوا الأمير عثمان . فعين زعيمهم (الأمير الخضر بن علي) أميراً على توكر . ولذلك صودرت جميع أملاك الحسناب أيضاً كبقية من اتبعوا المهدية . مع أن الذين أوقدوا نيران المهدية وانغمسوا في نصْرتها لآخر رمق من حياتهم لم يجرؤ أحد على مصادرة أملاكهم . ولم يخسروا فتيلاً . فهل تشعر الحكومة الحالية بأن هذا ظلم يجب أن يزول ويحل محله العدل والإنصاف . وترد الحقوق لأصحابها بدلاً من الاستمرار في الحيف الغير قانوني . إن أصحاب هذه الأراضي والأملاك يتفكرون كثيراً في صمت الحكومة عندما يقرأون مقالاتنا التي ما خلت من المطالبة بهذه الأملاك . والآن نريد أن يسمع وزير العدل ومدير تسجيل الأراضي صوتنا حتى يردوا ما لله لله وما لقيصر للقيصر . نريد أن يعاملوا المظلومين من أخواننا كمعاملة الحكومة المصرية لورثة المرحوم أحمد باشا عرابي وإخوانه .

فإن لم تكن حكومتنا وطنية فإن لرجالها ضمائر حية لا ترضى الظلم .

قيل إن الجامع الشافعي قد بنته الملكة شجرة الدر . ولقد درست فيه القرآن على الشيخ محمد جيلاني الحسنابي من سنة ١٩٠١ / ١٩٠٢ م .



الجامع المجيدي

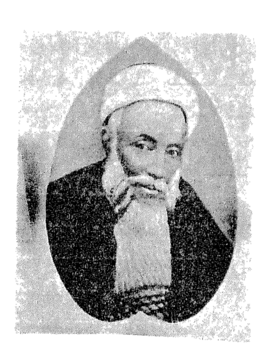
هو المسجد الذي أمر ببنائه السلطان العثماني لأهل القيف لإقامة شعائر الدين الإسلامي فيه . وجعل إمامته وإدارته بيد نقيب الأشراف الحسينية . وعلى محرابه لافتة كتب عليها الآتي :

هذا مسجد في كيف (قيف) سواكنا عمرها أمير ميران نور الدين قائم مقاما ابن الوزير المفخم راغب باشا سامياً رحمه الله تعالى . من دخل صلاها سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م .

جامع تاج السر

هو الذي بناه السيد محمد عثمان تاج السر حوالي سنة ١٨٩٠ م وجعل إمامته وخطابته في الأرتيقة . كُرْباب . وسلم مفاتيحه للشيخ بشير محمد كريت وقد درست الفقه ومعي ابنه الشيخ جيلاني على يديه .

ودفن السيد محمد عثمان وابنته زينب بعد وفاتهما في الركن الغربي منه .



صورة السيد محمد عثمان تاج السر الميرغني

جامع الشناوي

هو المسجد الواقع بالقيف شرق الضابطية (محطة البوليس) ، بناه محمد بك الشناوي حوالي سنة ١٢٩٠ هـ . وأسند إمامته للشريف أحمد الشنقيطي (مفتي سواكن) وكان عالماً صالحاً . وفقيهاً بارعاً ككل أهل شنقيط . وقد أنكر عليه جماعة من أهل سواكن صلة نسبه بآل البيت . فاضطر لأن ينظم قصيدة يهجو بها سواكن وأهلها . مطلعها :

الله جل جلالـــه المتطاول فعليـــه فليتوكل المتوكل

إلى أن يقول :

مالي أفي ويخان عهدي دائمـــاً وأودهم إني إذاً لمغفـــل
تيكم ســـواكن تستديم بهيئتي هلا ترى في نفسها ما يشـــغل
هلا تكون عيوبها شـــغلاً لها عن بُهتنا ولعل تيكم أخجـــل
أوليس عارا أن يعاب مبـــرأ ومعايب الشـــاني أذل وأخذل
لم يبق منهم من يراقب ربـــه فينا ولا من بالمروءة يعمـــل

إلى أن يقول مفتخراً بأرض شنقيط :

تلك البقاع الطاهرات من الخنـــا وشـــريفها الحسني لا يترذل
ليست كأرض سواكن سيموا بها من أصله النذل الخسيس المهمل

وهي طويلة جداً ضربنا صفحاً عما بها من الهجو الذي لا تستسيغه النفس ولا يرضاه الأدب العالي .

أما إيراد هذا الجامع فهو من أوقاف وكالة الشناوي بك إذ أن نصف إيرادها لجميع ورثته . والنصف الآخر للجامع . ولولا خراب سواكن لكان لهذا الجامع شأن في الحياة العلمية .

وفي سواكن غير قبة تاج السر توجد قبة أخرى بمحطة جراهَمْ . وهي للشيخ محي الدين أبو الفتح محمد ابن عبد الأعلى المدفون بسواكن . وهو من ذرية الشيخ

الحسن علي بن عمر الأموي اليمني القرشي ، وهو الصوفي الشاذلي صاحب الضريح المشهور بموخا اليمن وقد ذكره الشيخ إبراهيم عبد الدافع[1] في استغاثته المسماة (كاشفة الكروب) فمنها :

أيا أبا الفتح الجليـل المشـتهر	هلا نهضتـم في فكاك من أسـر
يامن هو المشـهور بالمجاهـدِ	بادر وعجل وانتصـر وسـاعدِ
أيا كبير الشـأن يا جيلانـي	ماذا التـراخي منك والتـواني
يا شـاذليُّ يا إمام النـاس	ماذا التهـاون منك والتناسـي
يا مرغني ياحسـن السـريرة	فما رعيـت سـيدي للجيرة
يا أهل الوفـا ويا بني الصديـق	ألا ترون مابنـا من ضيـق
أيا أبا العبـاس يامرسـيُّ	ياسـيدي ياقوتُ يا عرشـيّ
يا شـاذليّ يا أبا المواهـبْ	أما لكم في أمرنـا مذاهـبْ

والشيخ أبو الفتح هو الذي جاء إلى سواكن لنشر الطريقة الشاذلية ، ولذريته (الشاذلياب) إعانة ترد إليهم من أوقاف سيدي الشيخ أبو العباس المرسي بالإسكندرية .

ولصيادي السمك بالسودان اعتقاد حسن في الشيخ أبو الفتح إذ يقولون عند بدء الصيد ،(على الله وعليك اليوم يا راجل سواكن) . كما كانت تصرف لزعيم الفايداب[2] مرتبات سنوية وملابس لجميع أهله وذريته ، وقد رأيتها مدونة في وثيقة شرعية لا تزال مع أحفاده ، وهي اليوم عند الشيخ الحسن أبو الحسن رئيس محكمة توكر الأهلية .

★ ★ ★

(١) كان مسجوناً بمصر هو وبعض أعيان السودان ، فلما تلوا هذه القصيدة وهي مائة وعشرة أبيات أطلقت الحكومة المصرية صراحهم . ولم يترك ناظمها ولياً من أولياء الله إلا واستغاث به . وأما تفسيرها فيحتاج إلى مجلدات ورحلات .

(٢) هم من ذرية الشريف الجليل الشيخ أبو الحسن الشاذلي .



هذه صورة موظفي الحكومة المصرية بسواكن في سنة ١٨٩١ م

١ - هولد اسمث باشا محافظ سواكن ٢ - ابراهيم بك نايب المحافظ ٣ - الخليفة عبد الله محمد نور الدين ٤ - الأميرلاي محمد بك أحمد ٥ - منصور أفندي الباشكاتب ٦ - إدريس بك محمد أمين الجمرك ٧ - الدكتور ديمتري شدياق الطبيب ٨ - سعيد باشا شقير ٩ - حسن أفندي لبيب ١٠ - صالح سعد الصراف ١١ - محمد أفندي سحلول ١٢ - رشوان اغا ١٣ - السيد أحمد الشنقيطي المفتي ١٤ - عبد الله أفندي مرزوق ١٥ - واصف أفندي رئيس الحسابات ١٦ - ساعي ١٧ - السيد كاظم ١٨ - بكير أفندي ١٩ - يوسف أفندي خضير ٢٠ - يوسف أفندي منصور . ٢١ - اسكندر أفندي سعد ٢٢ - إبراهيم أفندي حنا ٢٣ - طه أفندي عبد الله المسلم ٢٤ - محمد أفندي عمر أمان .

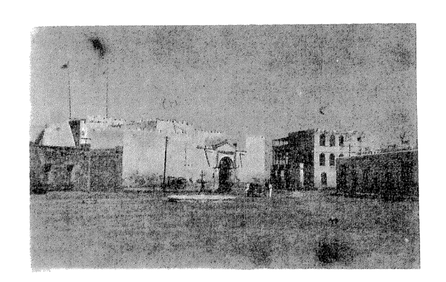
المواصلات

كانت المواصلات البرقية بين سواكن وتوكر وكسلا[1] . ثم إلى بربر ومنها إلى مصر وذلك قبل سنة ١٨٧٤م إذ أعطيت رخصة لشركة تلغراف الإيسترن Eastern Telegraph C:o بإنشاء خط سلك بحري بين السويس وسواكن ، ثم من الأخيرة إلى عدن . وينتهي هذا الامتياز في سنة ١٩٦٨ م . وفي سنة ١٩١١ م أنشىء خط بحري من سواكن إلى بورتسودان (الشيخ برغوث) . فلما كان فبراير ١٩٢٤م قفل مكتب سواكن نهائياً . وصارت المواصلات بين الشرق والغرب عن طريق مكتب بورتسودان . ولكل

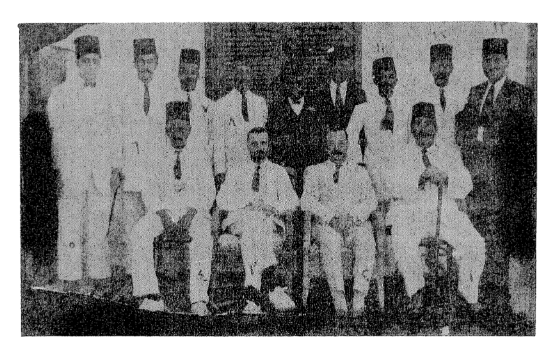


الاستاذ الكبير مصطفى بك السيد
ناظر مدرسة سواكن الأميرية

(١) لما أعلنت انجلترا الحرب على الحبشة في سنة ١٨٦٨ م مدت خط البرق المذكور فكانت قوافل الجمال المحملة بالمؤونة والذخيرة تقوم من سواكن وبعضها من مصوع لتدرك الجيوش الإنجليزية بأرض الحبشة حتى كانت واقعة أمبا ألاجي « Amba Alaji » فأطلق النجاشي تيدروس الرصاص على نفسه إذ خانه كل الذين كانوا ملتفين حوله . ثم خلفه الإمبراطور يوحنا قتيل الأنصار في واقعة القلابات (متمة الحبشة) في يناير سنة ١٨٨٩ م ، إذ زحف بنحو مائة ألف جندي وقابله الأمير الزاكي طمل بنحو ثمانين ألف من الأنصار فأصيب الإمبراطور برصاصة وتقدم الأنصار فاستولوا على تاجه وعاصمته غندار .



مكتب البريد بسواكن



حضرات الافاضل : ١ - ابراهيم محمد حمو ٢ - مدير الايسترن بسواكن (المستر درفت) ٣ - نائب مدير الايسترن بسواكن (المستر اسكوت) ٤ - ابراهيم علي مرزوق ٥ - عبد الحميد فهمي ٦ - محمد سعيد باجير ٧ - ابراهيم رفعت محمد ٨ - نصر عثمان نصر ٩ - المؤلف ١٠ - محمد سعيد باجير ٧ - ابراهيم رفعت محمد ٨ - نصر عثمان نصر ١٠ - محمد الامين سناري ١١ - حسين حسن بسيوني ١٢ - عوض راشد ١٣ - عبد العزيز صالح عدوي (عام ١٩١٨) م

اتجاه خمسة خطوط برقية تنقل البرقيات حول الكرة الأرضية بغاية السرعة والدقة. وسنأتي فيما بعد على تجربة سرعة البرق. وقد أجريت عدة تحسينات في الآلات وصار العمل كله بها.

وفي سنة ١٩٢٧ م نقل من سواكن خط (Cable) « القابلو » الممتد بينهما وبين جدة إلى بورتسودان وهو ملك للحكومتين السودانية والسعودية. أما مواصلات البريد فكانت في غاية الانتظام إذ لها متعهدون يعرفون قدر المسئولية وأهمية ما في عهدتهم. فيقوم المتعهد بالبريد من سواكن إلى توكر وبالعكس. وتستغرق كل رحلة أربعة وعشرين ساعة. كما تستغرق أسبوعين من سواكن إلى بربر ومثلها إلى كسلا. كما يوجد سلك بحري بين سواكن ومصوع. فكان ولا يزال القطر السوداني مرتبطاً بشبكة من الخطوط الحديدية. والمواصلات البرقية والجوية خلاف طرق السيارات.

أما المواصلات الحديدية فقد بدىء بإنشائها من سواكن سنة ١٩٠٤ م[١] ووردت البواخر بالأدوات والآلات والفحم والحديد إلى سواكن بكثرة هائلة. وكلها كانت تفرغ حمولتها في محطة جراهم. فلما وصل شريط السكة الحديد إلى السلوم أرسل فرعاً منه إلى الشيخ برغوث، وتقدم العمل من تقاطع سلوم إلى عطبرة مخترقاً الجبال. كما وأن المهندس مكولي بك كان يمد الخط من عطبرة إلى مقابلة الخط المذكور. فتلاقيا (القادم من الشرق والقادم من الغرب) بقرب محطة مسمار[٢] وذلك في سنة ١٩٠٥ م. فأقيم احتفال بافتتاح خط السكة الحديد بين بورتسودان وعطبرة في الأولى[٣]. وزار السير رجنلد ونجت باشا مدينة سواكن عقب الانتهاء من الاحتفال، فأقام له هوكر بك (مدير سواكن) احتفالاً شيقاً وزع فيه الحاكم العام كساوي الشرف والهدايا على النظار والعمد والأعيان. ونصب له بالليل سرادق أمام المديرية عملت فيه حفلة كوكتيل افتتحها مدرسنا (للغة الانجليزية) السيد. مصطفى السيد

---

(١) تقدم الكولونيل رالستون كندي (Ralston Kennedy) باشمهندس مصلحة الأشغال بسواكن بخريطة لمدينة على الطراز الحديث في ميناء الشيخ برغوث وأوضح في الخريطة طريق مواسير المياه التي ستمد من خور أربعات إلى الشيخ برغوث.

(٢) توجد علامة عند محل اللقاء ولكن للأسف لا يقف عندها القطار.

(٣) سيأتي وصفه في كتابنا تاريخ بورتسودان.

مرحباً بمقدم الحاكم العام . ثم أنشد الشيخ محمد حلمي المصري (للغة العربية) قصيدته التي سنقتطف بعضاً من أبياتها :

كذا فليجل الحب وليسعد الأمر ... وتُتْل لرب الحسن آياته الغر
رشا من بني السكون حبي وإنني ... وإياه لولا بُعده الماء والخمر
لقد راعني بعد التواصل والوفا ... فراق به طال التباعد والهجر
خليلي هل من حسن صبر لديكما ... تعيرانه يوماً فقد خانني الصبر
خليلي كفّا عن ملامة عاشق ... يذوب أسى من وجده وله العذر
وإن رمتما مني عن الحب سلوة ... فمالي سوى مولى له النهي والأمر
جناب الفريق السير جُنَلْدُ وِنْجِتّ ... أمير بلاد السود فهو لي الجبر
هو الحسن الفعل الكريم نجاده ... سمير العلا من لا يفي وصفهُ الشعر
هو الليث ليث العزم في يوم مشكل ... فما صعب المعنى ولا غرب الحذر
وإن وصفوا « بسمرك »[1] يوماً بفطنة ... فما هو إلا نجمة فوقها البدر
له همة كالسيف وهو مهند ... شجاع له القدح المعلى له القدر
له كل يوم رأفة في رعية ... تجلى بإخلاص لها الحمد والشكر
تعّودَ بسط الكف إذ كان جوده ... (هو الكرم المد الذي ماله جزر)
شمائل مجد يارعي الله حسنها ... فقد فاح منه الندْ وانشرح الصدر
فيا أيها المولى الهمام ومن به ... تشرفت البلدان وابتهج العصر
بنيت بحد السيف مجداً مشيداً ... ودانت لك الأيام والعسكر المجر
فما أنت إلا حاكم زانه الهدى ... وقائد جيش دأبه الفتح والنصر
وعدلك في السودان منبعه صفا ... وحلمك رفق في مواضعه ظفر
وأعمالك العظمى يضوع أريجها ... ويغني الغواني عن طلاب لها النشر
فكم لك أعمال يجل عديدها ... عن الحصر حتى طابق الخبر الخبر
وكم خلد التاريخ ذكر مخابرا ... ت جيش وكانت لا يذاع لها سر
فكان لهم من حسن رأيك مرشد ... وضاق على أعدائك البر والبحر

---

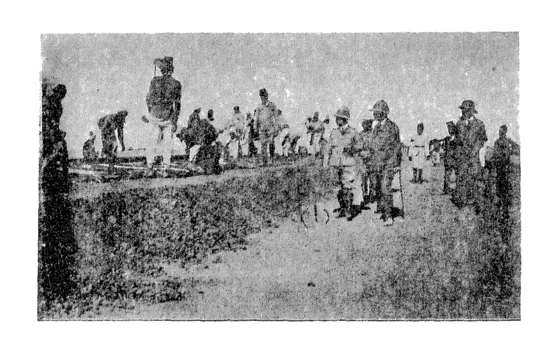
(١) هو كبير وزراء المانيا وقد انتصرت في أيامه على فرنسا سنة ١٨٧٠ م . وانتزعت منها الألزاس واللورين ثم استردتهما فرنسا سنة ١٩١٨ م وفقدتهما سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٠ واستردتهما سنة ١٩٤٥ م .

إلى أن يقول :

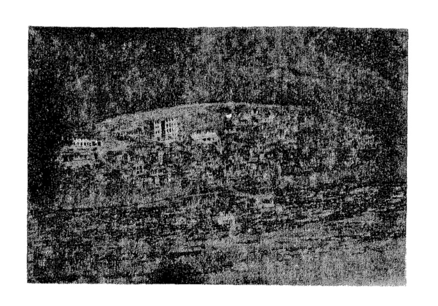
ومـذ صرت للسـودان أكبـر حاكم	توالـت لأهليـه المنافـع والخير
نثـرت عليهم منـةً إثـر نعمـة	فأضحوا وقـد أغناهـم ذلك النثر
وأمسـوا وفي بحبوحـة العـز لَهْوُهُـمْ	وقـد عمهم من بعـد عُسـرهِمُ اليسـر
بك افتـر ثغر السـود عن جوهـر المنى	وشـد لهـم عن شـخصك المجتبـى أزر
أمولاي يأخـذْن الفضائـل والنهـى	ويارب إسـعاد أطيـل لـه العمـر
أبـى المجـدُ إلا أن تكون لملكه	أميراً كما شـاء الزمـان وذا القطـر
بموكبك العالـي سـواكن تزدهـي	وقـد حفها الإقبـال وابتسـم الثغر
بـدت بجنـاب البكْ هُكْرِ مديرهـا	بزينـة حسـن راقَ في وجههـا البشـر
وأضحـت بتشـريف الأمير ببهجـة	تتيـه مـع البلـدان ما ذكر الفخـر
وراقت سـماء البشـر في حسـنها وقـد	تجلـت على آفاقهـا الأنجـم الزهـر
سـقتها غوادي اليُمن وابـلَ غيثهـا	وجـاد حيـا البشـرى فبللهـا القطـر
وقد نبـتُ عنهـا في أداء ولائهـا	وحـب أهاليهـا لكم وهـم كثـر
فدونك يا مـولاي منـي قصيـدة	قبولك إياهـا أراه هـو المهـر
يعربهـا شـاهينُ بِكْ جرجسٍ الـذي	بلاغتـه سـحرٌ وألفاظـه دُر
فـلا زلـت محفوظـاً بعين عنايـة	ولا زلـت في العليـاء يخدمك الدهـر

سرعة السلك البحري

سبق أن ذكرنا أن شركة تلغراف الإيسترن نالت امتياز مد الأسلاك البحرية بين ثغور البحر الأحمر وسائر أنحاء الدنيا . فارتبط الشرق بالغرب . والشمال بالجنوب . وقد ظهرت السرعة عندما أرسل جلالة الملك جورج الخامس برقيته التي افتتح بها معرض الإمبراطورية البريطانية في ٢٣ / ٤ / ١٩٢٤ في الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٤٩ و ٣٥ ثانية صباحاً . فدارت حول العالم في ثمانين ثانية . أي عادت إلى مصدرها في الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة وخمسة وخمسين ثانية . وها هو نص البرقية التي أرسلت من الاستديو :



ونجت باشا سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان يتفقد العمل في السكة الحديد بين النيل والبحر الأحمر بدء العمل في سكة حديد سواكن ـ عطبرة عام ١٩٠٤ م



منظر جزيرة سواكن ومبانيها الجميلة من الجو ويظهر الجسر الذي يصل بينها وبين القيف

I Have This Moment Opened The British Empire Exhibition .

George R.I.

فقامت هذه البرقية من لندن حول الدنيا عن طريق بنْزانص . فيال . هاليفاكس . مونتريال . فانكوفر . بامفيلد . فاننج . سوقا . أوكلاند . سيدني . اديليد . بيرث . كوكوس . رود ريجونر . ديربان . مدينة الكاب . سانت هيلانة . إسَنْشَنْ . سانت فِنسنت . ماديرا . لندن . وسارت من مدينة سيدني في طريق سنغافوره . مدراس . بومبي . عدن . السويس . الإسكندرية . مالطة . جبل طارق . لندن .

وقد نالت شركة تلغراف الإيسترن قصب السبق على كل شركات البرق بالسرعة والدقة وسلامة المتن من التحريف في برقياتها التجارية والسياسية .

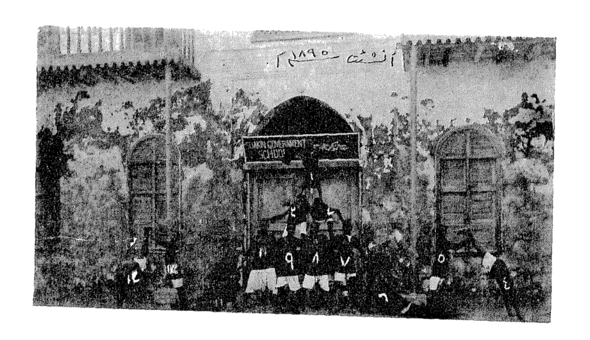
ويعود الفضل في انتصارات البريطانيين في الحروب الأخيرة في السودان ومصر وجنوب افريقيا ثم حربي سنة ١٩١٤ م و ١٩٣٩ إلى هذه الشركة إذ ضمنت سلامة مواصلاتها ودقة نظامها .

.واليوم سنة ١٩٥٥ م تغيرت كل الأنظمة السابقة واستعيض عنها العمل جميعة بالآلات حتى كتابة البرقيات أصبحت آلية . ولها مكتب خاص بلندن لعمل التجارب والتحسينات التي يقتضيها العصر الحديث . وتأممت الشركة أخيراً وانضمت للمتلكات الإمبراطورية البريطانية وقد قضيت في خدمتها نحو خمس وأربعين عاماً .



التعليم بسواكن

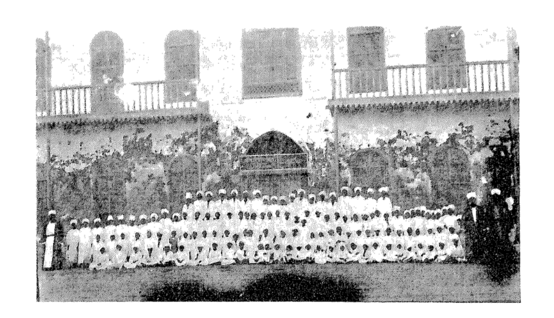
كان قاصراً على الفقه والتوحيد والتفسير والأجرومية[1] والحديث والمعاملات ، حتى كانت سنة ١٨٩٢ م إذ فتح المبشرون النمساويون مدرسة لتدريس العربية والأنجليزية ، فقصدها بعض الطلاب ، ولكنهم بدأوا في الاختفاء واحداً بعد واحد عندما شاهدوا الرسومات المسيحية . حتى كانت سنة ١٨٩٥ م ففارقوها لغير رجعة . وفي سنة ١٩٠١ قطعت الأمل من التلاميذ ، فقفلت أبوابها وأطلق على المدرسة الكنيسة ، وهي واقعة بساحل جزيرة سواكن في الشمال الغربي .



مدرسة سواكن الأميرية أنشئت عام ١٨٩٥ م

١ ـ حسن علي عبود ٢ ـ الصادق أحمد عيسى ٣ ـ أبو محمد باشريك ٤ ـ أحمد عبد الرحمن ٥ ـ عبد الرحيم أبو شوشة ٦ ـ وكيل أحمد ناجي ٧ ـ محمد ياسين ٨ ـ علي الصايم ٩ ـ علي ابراهيم ١٠ ـ منيب هجينة ١١ ـ محمد عثمان شنقراي ١٢ ـ الأمين محمد دين ١٣ ـ محمد عباس

(١) لم تنقطع هذه الدراسة بل كانت مستمرة في المساجد والزوايا حتى السنين الأخيرة .





مدرسة سواكن الأميرية

١ ـ الأستاذ عبد القادر أوكير القاضي ٢ ـ الصول أحمد أفندي باشر ٣ ـ محمد سبول الفراش ٤ ـ عيسى الطاهر ٥ ـ حسن عبد الرزاق عدوي ٦ ـ مدني محمد جسن ٧ ـ طاهر حسين شنقراني ٨ ـ حسن سعيد باعشر ٩ ـ ابراهيم فرج الله ١٠ ـ ابراهيم اسماعيل زهران ١١ ـ محمد طاهر ماقيت ١٢ ـ عبد الرحمن أحمد قوري ١٣ ـ مصطفى محمد علي ١٤ ـ بالعيت فرج الله ١٥ ـ ياسين محمد الصافي ١٦ ـ حامد أحمد حمداي ١٧ ـ عبد العزيز عوض راشد ١٨ ـ محمد ابراهيم ضرار ١٩ ـ عمر أحمد طه مسلم ٢٠ ـ عبد الرزاق محمد باعشر

مدرسة سواكن الأميرية سنة ١٨٩٥ م

أنشئت هذه المدرسة في القيف . فتقدم لدخولها الطلاب من المراكز القريبة . واشترك تلاميذها في امتحان الإبتدائي بالقاهرة . حتى تم استعمار السودان سنة ١٨٩٨ م . وانضمت سواكن للقطر السوداني كما كانت بعد سنة ١٨٦٥ م . حتى قفلت المدرسة نهائياً سنة ١٩٢٧ إذ خلت سواكن من الأهالي إلا من سكانها الأصليين الذين لم يبرحوها حتى اليوم .

وأول دفعة دخلت المدرسة كانت من التلاميذ الآتية أسماؤهم :

(١)	إبراهيم رفعت محمد	(١٣)	إبراهيم علي مرزوق
(٢)	أحمد السبكي	(١٤)	عبد الرحمن الليثي
(٣)	أحمد بهجت	(١٥)	إبراهيم محمد حمو
(٤)	محمد حسين التونسي	(١٦)	علي محمد نور
(٥)	محمد إبراهيم نصر الله	(١٧)	محمود توفيق عبد السلام
(٦)	أحمد حامد	(١٨)	علي عثمان سلطان
(٧)	شاذلي مسرور	(١٩)	محمد جابر أمان
(٨)	مساعد محمد	(٢٠)	مجذوب قاسم
(٩)	عثمان طاهر	(٢١)	أحمد عبد القادر الدروبي
(١٠)	محمد توفيق عبد السلام	(٢٢)	مصطفى سليمان هلال
(١١)	حسن علي شكيلاي	(٢٣)	علي محمد قاسم
(١٢)	حامد أحمد عناني	(٢٤)	خورشيد محمد خورشيد

وآخر دفعة أتمت تعليمها الأوسط بمدرسة سواكن من التلاميذ كانت سنة ١٩٢٧ .

* * *



هذه احدى فرق السواكنيين الرياضية التي أنشئت تخليدا لذكرى سواكن

فريق السواكنيين ببورتسودان . المنتخب :

١ ـ هاشم الطيب (حارس مرمى) ٢ ـ شرف الدين عبد الله (ظهير أيمن) ٣ ـ محمد أبو جبه (ظهير أيسر) ٤ ـ حسن عبود (مراقب الحدود) ٥ ـ عثمان حمو (دفاع أيسر) ٦ ـ حسن خورشيد (قلب دفاع) ٧ ـ جيلاني مصطفى (دفاع أيمن) ٨ ـ حسن شمس (هجوم أيمن) ٩ ـ سليمان عوض الله (جناح أيسر) ١٠ ـ جعفر عبود (هجوم أيسر) ١١ ـ الله جابو الدروبي (قلب هجوم) ١٢ ـ أبو بكر يوسف (جناح أيمن) ١٣ ـ حسن الجرتلي (الحكم) ١٤ ـ محمد صالح ضرار (مستشار) ١٥ ـ محمد أمين عليوه (رئيس الفريق) ١٦ ـ يحيى الكابلي (السكرتير) .

أيام سواكن الأخيرة

بعد احتلال إنجلترا ومصر للسودان عاد الأهالي في شرق السودان إلى أحوالهم الطبيعية . وكانوا غير مطمئنين للحكومة الجديدة إذ بدأت في إلقاء القبض على كل من كان يخدمها أو يتجسس لها على حالة جيش الأمير عثمان دقنة حينما كان القتال ناشباً بين جيشيهما ، وهذه سنة الله في خلقه ، من أعان ظالماً سلطه الله عليه . وبدأ التجار في استئناف أعمالهم التجارية في سواكن وازداد عدد سكان المدينة خصوصاً لما كثرت البواخر في الميناء ، فأحصى عددهم في سنة ١٩٠٥ م بأكثر من ثمانية عشر ألفاً . وفي سنة ١٩١١ م كانوا أكثر من عشرين ألفاً تقريباً .

أما التجارة ففي سنة ١٨٩٩ م كانت قيمة الواردات مائة وثمانين ألف جنيه مقابل مائة وسبعين ألف جنيه سنة ١٨٨٠ م وفي سنة ١٩٠٦ م كانت الواردات ثلاثمائة وأربعة وعشرين ألف جنيه وقيمة الصادرات مائة وثلاثة عشر ألف جنيه . وفي سنة ١٩١٠ م ، كانت الواردات ضعف ما سبق سنة (١٩٠٦ م) . واستمرت سواكن محافظة على مركزها التجاري[1] حتى زار الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور الهند مدينة بورتسودان سنة ١٩١٢ م . فانتقلت بواخر نقل الفحم والحديد وجميع حاجيات السودان إلى بورتسودان . فتضاءلت حركة سواكن التجارية العمرانية وبدأ سيل العمال يتدفق من جميع أنحاء القطر خصوصاً مديرية دنقله وما جاورها .

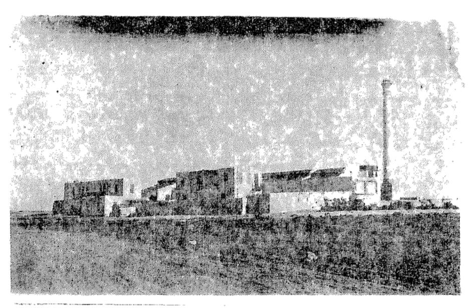
ولولا أن أسعار القطن هبطت في كل أنحاء المعمورة في سنة ١٩٢٠ م لبقي تجار سواكن في نضالهم ، ولكن تدهور الحالة التجارية والاقتصادية أضر بسواكن وأهلها ، ورفضت الشركات البريطانية شراء أقطانهم المخزونة في إنجلترا وقد بيع أخيراً بأسعار عجزت عن تسديد أجرة التخزين والسكرتاه والمصاريف .

---

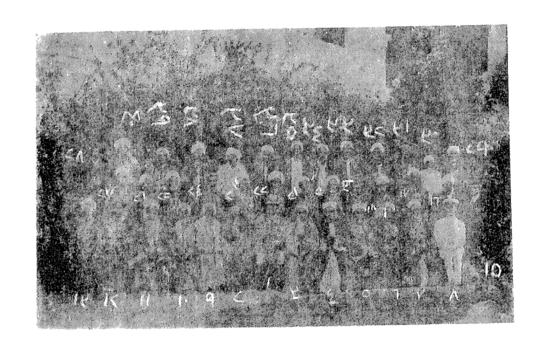
(١) ويعود الفضل في ذلك إلى تجارها الذين رفضوا أن تنقل بضائعهم عن طريق بورتسودان ، بل تنقل إليهم بالبواخر بحراً من الهند أو أوروبا ، وكذلك من داخلية السودان بالسكة الحديد رأساً إلى سواكن . ولقد سجل لهم التاريخ هذا الدفاع المجيد عن مدينتهم العتيقة بمداد الفخر .

وبعد النكبات السابقة استنبطت الحكومة الضريبة التجارية على التجار والمتسببين ، والجزية على المسلمين من عرب البادية . ووضعت مبالغ هائلة على تجار سواكن . وإذا لم يدفعوها طلبت أن يعرضوا عليها دفاترهم للمراجعة . وبعد عدة مداولات بينهم قرروا دفع الضريبة وعدم إطلاع الحكومة على حساباتهم . ولو رأتها الحكومة لعلمت أن رؤوس أموالهم وأرباحهم اشتري بجميعها القطن المخزون في لفربول الذي هبطت أسعاره إلى الحضيض . وأخيراً في سنة ١٩٢٢ / ١٩٢٣ كثرت زيارة المدير لسواكن ، وهنالك علم حقيقة ما انتاب أهل سواكن من الخسائر في سبيل إحياء مدينتهم التي تحالفت الطبيعة مع الحكومة على دمارها ، وإحياء الشيخ برغوث على انقاضها فبارحتها المديرية سنة ١٩٠٨ إلى بورتسودان ، وانتزعت الحكومة الثنائية عنها شريط سلوم سواكن سنة ١٩٥٣ م ، ولم يبق بها إلا محلج الخواجة دباس .لحلج الأقطان ، وقد أنشأه الخواجة الياس دباس وتعهد ببنائه الأمير عثمان دقنة حوالي سنة ١٨٧٢ م (قبل الثورة المهدية) .

وأصبحت سواكن اليوم ميناء صغيرة لنقل الحجاج السودانيين والنيجريين والسنغاليين إلى أرض الحرمين الشريفين ، وحتى الماء قل فيها بعد أن كان كثيراً



محلج الخواجة الياس دباس بسواكن الذي تعهد ببنائه الأمير عثمان دقنة قبل المهدية .
وقد عملت فيه عدة مباني وتحسينات على أحدث طراز مصري



١ - اللورد اللنبي الذي زار سواكن سنة ١٩٢٣ م بعد عودته من العاصمة ٢ - جاكسون باشا نائب حاكم عام السودان سيادة السيد علي الميرغني ٤ - سيادة السيد عبد الرحمن المهدي ٥ - الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم ٧ - الشيخ حاج محمد ابراهيم فرح . ناظر الجعليين ٩ - الشريف يوسف الهندي ١٠ - الشيخ الطيب محمد هاشم المفتي ١١ - السيد اسماعيل الأزهري ١٢ - ابراهيم بك موسى . ناظر الهدندوة ١٣ - الشيخ علي القرم ١٥ - صموئيل بك عطيه ١٨ - الشيخ ادريس صالح ناظر بني عامر ٢٣ - محمود بك عثمان أرتيقة عمدة سواكن ٢٤ - السيد حسن البدري وكيل نظارة الهدندوة بالقنوب ٣٤ - أحمد حسن عبد المنعم بك ٣٥ - الشيخ سيد أحمد سوار الدهب ٣٩ - الشيخ أحمد حمد محمود ناظر الامارأر .

وعذباً . ونشرت عنه جريدة الوقائع المصرية بعددها ٣٥١ يوم ٣ / ٤ / ١٨٧٠ . فقالت :

« ومما وردت به الأخبار أن بلدة سواكن كان أهلها محرومين من المياه[١] العذبة لاسيما في فصل الصيف . فبذل حضرة محافظها الأكرم ممتاز بك غاية الاجتهاد في تدارك ذلك إلى أن وصل إلى المراد . وهو أنّ على البعد بأربع ساعات من تلك البلدة جبلًا تنزل فيه السيول ، ثم تنصب في البحر الأحمر بدون نفع . فسد الجهة الموصلة إليه وحفر ترعة من الجبل إلى سواكن وجعل فيها المياه . فصارت جميع الأهالي تتمتع بها بالشرب وزرع البقول والأقطان » .

إلى هنا وقد انتهينا من سواكن في آخر أيامها بل في آخر رمقها من الحياة . فنبدأ بالمدن التي كانت تابعة لها مثل أركويت ، وسنكات وتوكر والعقيق وقروره ومحمد قول وحلايب وعيذاب (أو سواكن القديمة) ثم الشيخ برغوث[٢] (بورتسودان) وغيرها من المراكز ونقط البوليس .

وفي سنة ١٩٥٤ م تألفت لجنة بمدينة بورتسودان لتعمير سواكن برئاسة شرف سيادة السيد علي الميرغني ، والسيد عباس البربري رئيساً ، والسيد عمر يحيى سكرتيراً . وعضوية حضرات السادة أحمد سعيد باعشر . وهاشم محمد سعد ، وأبو عيشة كاظم ، وإبراهيم إسماعيل زهران ، وعلي بازرعه ، وهاشم عبد الرحمن الليثي ، وحسين أحمد شمس ، وجيلاني محمد أحمد ، ومحمد عبد الجواد . وإبراهيم علي مرزوق ، ومختار محمد حسن .

وحضرات الدكاترة : محمد أحمد علي ، وطه عثمان بليه .

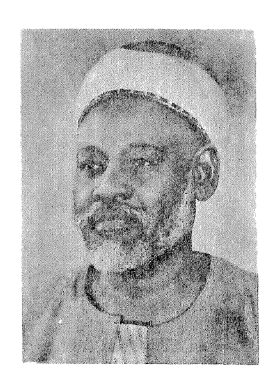
وبالعضوية الفخرية لحضرات السادة الوزراء : محمد نور الدين ، وإبراهيم حسن المحلاوي . وعلي عبد الرحمن .

فتفاءل أهل سواكن بتأليف هذه اللجنة التي وثقوا من أنها ستنهض بهم وبمدينتهم من كبوتها المتوالية ، وعلى الله التوفيق .

---

(١) جاء في عدد الوقائع نمرة ٤٢٦ يوم ٣ / ١٠ / ١٨٧١ م أن سعادتلو ممتاز باشا مدير عموم جهات السودان القبلية أي الخرطوم وسنار وفاز وغلى وفيها البحر (النيل) الأبيض .

(٢) أفرد المؤلف سفراً خاصاً عن بورتسودان ولم يكتب عنها في هذا السفر . (ض) .



الإمام السيد عبد الرحمن المهدي

قدمت قدوم الغيث يهمي فيسعدُ ... وعدت مَعَادٌ النيل يعلو فيورد

فللقطر إشراق وللدين بهجة ... وللفضل إبراق وللمجد سؤدد

لك النصر والفتح المبين على العدا ... عليها لواء الله بالسعد يعقد

فسر مصلحاً أو مرشداً أو مجاهداً ... فإن المعالي حيث يممت توجد

أبوك غزا بالسيف فانقاد من طغى ... وسيفك للأعداء رأيٌ مسدد

أيا سيداً في بابه كل سيد ... أسير بإحسان طليق مقيد

وسلني سل التاريخ قبلي سل النهى ... سل العدل إن العدل يقضي ويشهد

هل ازدرعت في القطر خضراء أو نمت ... وليس لمولانا الإمام بها يد

عبد الله محمد عمر البنا
(أمير شعراء السودان)

المُدُن الأُخْرى

أَرْكُوَيت أَوْ أَرْكَوَيْت

هي عاصمة وكيل نظارة الهدندوة في القَنوب ، ومصيف مشايخنا السادة المجاذيب[1] ، وآل القاضي عبد القادر عمر محي الدين . ومنذ انضمام محافظة سواكن إلى بقية القطر السوداني سنة ١٨٦٥ م أصبحت أركويت مصيفاً للحكومة . وبعد المهدية استأنفت الحكومة الاصطياف فيها ، واختارتها الحكومة مقراً يمضي فيه معالي الحاكم العام فترة تبدأ من أوائل أبريل إلى مايو من كل عام لطقسها الجميل وأشجارها المتشابكة والمتعانقة خصوصاً الياسمين . وكانت فيها حدائق جميلة جداً تنبت فيها كل الثمار ، ومن ذلك حديقة القاضي فضيْلة الشيخ عبد القادر حسين وأهله . وتوجد صخرة كبيرة عليها نقش لقدم رجل ضخم يقال إنها قدم أحد الصالحين . وفيها نبع ماء يجري صيفاً وشتاء . وسلسلة جبالها تتصل بجبال الجميلاب (أوَرّبا) غرب توكر . ويكثر في أركويت النمر والقردة وكافة أنواع الغزلان . ولها طريق سيارات من سنكات وآخر من محطة صَمَتْ . وأما من سواكن فلها طريق واحد بالجمال هو عقبة جبل كُلْكُلاييتْ Kolkolayeet التي يتسلقها المرء برجله ، والجمل برحله فقط لوعورة مسالكها ، وطلوعها نحو ساعتين ، والنزول منها ساعة على الأقل . وقد ألغي هذا الطريق لخطورته . ومن الزعماء الذين يصطافون في أركويت عظمة مولانا الإمام السيد عبد الرحمن المهدي ، فتأتي الوفود لزيارة عظمته من كل أنحاء شرق السودان لتجديد عهد الاستقلال والحرية .

وقد بنى المرحوم الشيخ محمد السيد البربري جامعاً[2] في أركويت يتعهده

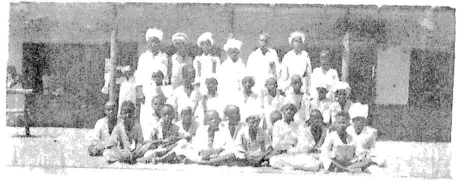
---

(١) كان اصطياف السيد الطاهر المجذوب فيها . وهو ابن الشيخ قمر الدين مجذوب ، وعمه الشيخ محمد المجذوب الكبير ولد بالمتمة حوالي سنة ١٢٤٨ هـ . ودرس بسواكن على كبار تلاميذ عمه . وانتقل وهو صغير إلى مدينة الدامر التي أحضره منها سعادة علي بك دقنه والشيخ يسن عبد القادر سالم الرضواني الشريف ، وأخذ عهد الطريقة على الشيخ يسن المذكور (الشاذليه) وصاهر الأرتيقة الذين أخذت غالبيتهم وغالبية الهدندوة على أيديهم الطريقة .

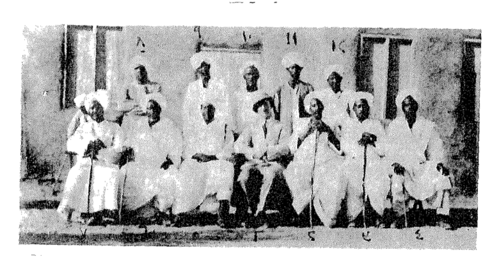
(٢) هو خلاف جامع المجاذيب الذي يرعاه الإمام السيد عبد الرحمن المهدي .

أبناؤه كلما احتاج إلى ترميمات وتصليحات .

وكانت الحكومة التركية تحتفظ بفرقة من البوليس في أركويت لحفظ الأمن بين القبائل . وآخر معاون في تلك الجهة كان محمد علي أفندي حمو حكمدار القنوب . ولقد استقال لما تنازلت تركيا عن سواحل البحر الأحمر وخلفه محمد أفندي أونور(١)



مدرسة سنكات الأولية . تلاميذ السنة الرابعة ١٩٣٥ م



لجنة تعليم أبناء البجة بسنكات سنة ١٩٣٥ م ١ ـ المستر اووين باشمفتش لبجة بسنكات ٢ ـ الشيخ محمد طاهر باكاش وكيل نظارة الهدندوة ٣ ـ السيد محمد نور ٤ ـ الشيخ ماقيت موسى ٥ ـ السيد محمد طاهر البدري ٦ ـ الشيخ حسن جيلاني أرتيقة ٧ ـ الشيخ أحمد عاولي جيلاني وكيل الدائرة الميرغنية ٨ ـ الشيخ القدال سعيد القدال ناظر المدرسة ٩ ـ الشيخ محمود جعفر ١٠ ـ الشيخ جعفر عبد الله الشيخ عمر محمد ١٢ ـ الشيخ الشريف المليك

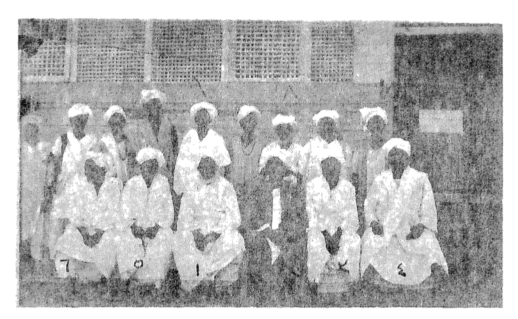
(١) ويصطاف في أركويت اليوم السادة محمد سعيد وأحمد سعيد باعشر بأهليهم وقد كان اختياراً موفقاً إذ أن الهدوء مع جمال الطبيعة والهواء النقي الشامل فيه راحة للنفس من عناء العمل المرهق .

أوكاكْ أَوْسِنْكَات

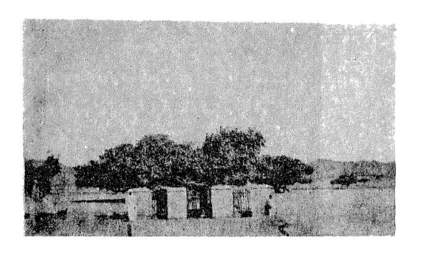
هي عاصمة قبائل الهدندوة الشمالية . ويصطاف فيها بعض أهل سواكن وتوكر ، وترتفع عن سطح البحر بأكثر من ألفي قدم . ويبدأ الرحيل إليها بعد طلوع الثريا التي تغيب دائماً في يوم خمسة مايو من كل عام . وتطلع يوم ١٥ يونيه . وتكون أحياناً اجتماعات قبائل القنوب فيها خصوصاً لجان التعليم . وكان رحيل أهل سواكن إليها قبل المهدية بالجمال عليها الهوادج . فكنت ترى المباهاة بأحسن الهوادج المغطاة بالحرير والصوف الأحمر وريش النعام والأجراس والستائر المصنوعة من الجوخ إلى غير ذلك من دلائل الترف والنعيم . ولما قامت المهدية كان أهل سواكن مصطافين بسنكات . فبايعوا الأمير عثمان دقنة في أول شوال سنة ١٢٩٩ هـ إلا الذين لزموا منازلهم أو كانوا في داخل القلعة مع محمد بك توفيق . فلما عاد الأهالي إلى سواكن نكثوا ونقضوا العهد والبيعة (إن العهد كان مسئولا) ثم جاء الأمير فكي علي حامد الجميلابي (كنجار) وحاصرها حتى سقطت بيده وقضى على توفيق بك وجنوده .

ولم تستأنف حياتها إلا بعد سنة ١٩٠٥ م ووصول السكة الحديد إلى عطبرة والخرطوم . فانتعشت وأصبحت مركزاً إدارياً لقبائل القنوب وكسلا . ومحل اصطياف مديرية كسلا ومصلحة الجمارك السودانية ومديرية البحر الأحمر أحياناً ومصلحة زراعة طوكر . وفي يوم ١٧ يناير سنة ١٩١٢ م زار ميناء بورتسودان على ظهر الباخرة « مدينة » جلالة ملك بريطانيا العظمى وإمبراطور الهند في طريق عودته من الهند (بعد أن توج إمبراطوراً في دلهي الجديدة) وسافر بقطار سريع إلى سنكات حيث كان في استقباله زعماء السودان ورجال الدين وملوك ونظار العشائر والأورط المصرية والإنجليزية . ثم غرس شجرة على أنقاض قلعة المرحوم توفيق بك تذكاراً لزيارته للقطر السوداني .

واتخذتها الشريفة مريم الميرغنية محلاً لإقامتها صيفاً وشتاء ولذلك ازداد عمرانها فلما توفيت ضؤلت حالتها .



١ ـ الشيخ محمد محمد الأمين ترك ناظر عموم الهدندوة ٢ ـ الشيخ عثمان محمد بليه مفتش المدارس الأولية بمديرية كسلا والبحر الأحمر ٣ ـ الشيخ عيسى بانق ٤ ـ رجب أفندي عبد الله ٥ ـ الشيخ حسين عمر ٦ ـ الشيخ علي شيك صبري ٧ ـ الشيخ سيدي أحمد ٨ ـ الشيخ حمد ادم الشرعابي ٩ ـ الشيخ باسيق بدري أبو مدينه .



غرس هذه الشجرة جلالة الملك جورج الخامس تذكارا لزيارة جلالته وجلالة الملكة لمدينة سنكات في ١٧ يناير سنة ١٩١٣ م

١ ـ الأستاذ محمد مختار خورشيد ٢ ـ ضرار صالح ضرار

وفي سنة ١٩٢٩ م افتتح الشيخ أحمد بدوي منصور[١] طريقاً لسياراته من سنكات إلى سواكن يمر فوق عقبة (أبِنْتْ) التي أبيدت فيها النجدة التي أرسلت لرفع الحصار عن سنكات سنة ١٨٨٤ م[٢] . وهذه العقبة تحتاج إلى تصليحات بسيطة حتى تكون سهلة بعيدة عن الانزلاق .

ومن مآثر مأمور سنكات الأمير كنتيباي أبو قرجة إنشاء نادٍ فيها باسم البطل محمد توفيق بك . ونتعشم أن يصيب سنكات بعض العمران حتى يتم فيها إنشاء ناد آخر فيها . أو في جبيت باسم (الأمير فكي علي حامد الجميلابي) وهذا لن يتم إلا على يد أولئك الغطاريف من شباب الهدندوة وإخوانهم من الوطنيين . ويرى زائر سنكات اليوم تقهقر المدينة وإقلاع البعض عن الاصطياف فيها لقلة الأمطار . أما الحكومة فقد ألغت الاصطياف منذ سنين ولم يبق إلا المركز مع أن إدارة الجمارك أقامت فيها عشرات السنين صيفاً وشتاءً . والمديرية ومكتب الزراعة بتوكر صيفاً .

وأول ناظر عين لمدرسة سنكات الأولية هو فضيلة الشيخ عثمان محمد بَلِيَّة الذي لم يترك مكاناً في بلاد البجة إلا وطاف به وأنشأ فيه خلاوي لقراءة القرآن . وله مذكرات قيمة جداً عساه أن ينشرها يوماً ما . وفي سنة ١٩٢٨ م اجتمع عمد ونظار البحر الأحمر لتهنئة الحاج الوقور الشيخ محمد محمد الأمين ترك بمنصب نظارة الهدندوة حفظه الله .



---

(١) هو أمير لواء الأنصار الكسلاويين بتوكر التي هو من أشهر أعيانها وتجارها العظام وأصحاب الكلمة المسموعة بين نظار وعمد القبائل بإقليم البجة . إذ ربط أواصر الصداقة بصلة النسب مع أعرق بيوتات القبائل . وله أبناء في منتهى النجابة والمعرفة .

(٢) كانت النجدة مؤلفة من نحو ١٥٠ جندياً بقيادة البكباشي محمد أفندي خليل .

العَـقِيق

وتسميه القبائل التي تتكلم البجاوية بَهْدور[1]

فهيهـات هيهـات العقيق ومـن بـه   وهيهـات خـلّ بالعقيـق لواصـل

ويطلق هذا الاسم على الميناء السوداني الصغير الواقع في الضفة الغربية من البحر الأحمر ، وهو محاذ للميناء المسمى كذلك بالضفة الشرقية اليمنية . قال شاعر يمني :

كل خمـر علينـــا محـــرم   دون خمـر العقيــق اليماني

وتقع العقيق في الجنوب الشرقي من توكر وعلى بعد أربعين ميلا منها .

عصر البطالسة

اتخذها بطليموس فيلادلفي مخزناً لتصدير الحيوانات والطيور والريش وسن الفيل إلى القطر المصري . وتوجد آثار البطالسة ومبانيهم دفنتها الأتربة الكثيرة . وفي سنة ١٩٠٤ جاء أحد اليونانيين للتنقيب فيها واستمر نحو عامين ثم ترك العمل على أن يعود بعد إتمام استعداداته ، ولا يزال غائباً إلى اليوم . وتقع أمام العقيق بعض الجزر مثل باكْيَايْ ، ومساميرو ، وجزيرة دِقْلَل ، وابن عباس ، وكانت هذه المحال منافذ لتهريب الرقيق أو ورود البضائع من اليمن والحجاز ، حتى كانت سنة ١٨٧٢ م حين تعين مونزنجر باشا حكمداراً على شرق السودان . فأمر كل سكان جزيرة ابن عباس بالرحيل إليها . وبنى فيها طابية من دورين . وعين لها مأموراً اسمه خليل أفندي . وتم بناء رصيف ترسو فيه السنابيك . وكان أول من سكنها الشيخ علي شابل بن عبد الرحيم عمدة البهدور[2] . ثم اقتفى الأهالي أثره خصوصاً التجار . وبعضهم رحل إلى قرية (عَدُوَبنة) .

---

(١) هذا اسم لجزيرة ابن عباس أيضاً .

(٢) اعتمد له الحكمدار مليمين في كل طرد صادر أو وارد للعقيق وأخيراً أطلق عليهم اسم العقايقة .

وتحسنت حالة الميناء الجديدة وازدهرت بالتجارة . وقصدتها السنابيك من مصوع واليمن وسواكن وجدة . وأصبحت ميناء أو سوق قبائل بني عامر والمركز الشتوي لإقامة الناظر[1] .

عصر المهدية

لما أعلن الإمام محمد أحمد المهدي حرب الاستقلال وحملت كل قبائل شرق السودان علم الجهاد . وعقد الأنصار الخناصر على أن يقاتلوا حتى تكون كلمة الله هي العليا وتدمير قوى الذل والاستعمار . أمرت الحكومة بإخلائها وترحيل السكان إلى جزيرة ابن عباس . وهناك تكفلت الحكومة بالأمن والتموين . وجلبت المياه من سواكن بالبواخر . وأمر الأمير عثمان دقنة باتخاذها وترنكتات (ميناء توكر) لجلب الأسلحة النارية التي كان يشتريها التجار من رؤساء الجنود سراً[2] . وبعضها يهرب من مصوع والحديدة وجدة . حيث الولاة الأتراك الذين كانوا يعطفون كسائر العالم الإسلامي على حركة الإمام المهدي الاستقلالية . ثم جاء الأمير محمد عثمان أبو قرجه حوالي سنة ١٨٨٨ م واتفق مع كنتيباي (صديقه) حامد بك حسن على افتتاح ميناء تكلاي للتجارة . فصار التجار يأتون بالبضائع[3] من عدن والصومال واليمن ويبيعونها ويشترون حاصلات السودان على كل أصنافها كالعاج والريش والصمغ والرقيق والسمن والعسل . ويقيم بتكلاي موظفان من قبل كل من الزعيمين يقتسمان الرسوم مناصفة بينهما . فلما كانت سنة ١٨٩٨ م اضمحلت الحكومة الوطنية . وتوطد مركز الاستعمار الثنائي وأعاد افتتاح ميناء العقيق هولد اسمث باشا ورئيس أركان الحرب ابراهيم باشا رفعت . واستردت العقيق مركزها التجاري وعاد إليها سكانها من جزيرة ابن عباس واستأنفوا أعمالهم بنشاط حتى كانت الحرب العظمى الأولى والثانية فاعترى التجارة البوار وقفلت أبواب جزيرة العرب وأرتريا . فتدهورت حالة التجار

(١) إذ أن مصيفه بكسلا .

(٢) كان التجار يملأون سرر الجنازة الخشبية ويعطونها ويدعون أنه ميت يريدون دفنه ويجلسون حوله حتى الظلام ثم يهربونه على الجمال إلى أقرب مرسى .

(٣) والبهارات والفلفل تأتي من الهند .

الإقتصادية . وعينت الحكومة في سنة ١٩٣٦ م شخصاً يدعى حامد عثمان أكد تولي وكالة نظارة بني عامر وشياخة السوق . وتلاعب في تموين القبائل فقبض عليه في أواخر سنة ١٩٤٧ م وهو متلبس بالجريمة إذ سطا على الدمورية . ورفع الأهالي ضده قضية لمفتش توكر الذي حضر إلى العقيق خصيصاً . وانتزع القماش من حوانيت شركائه (التجار) وحقق معه . ثم حكم عليه بالعزل لعدم نزاهته . (وعلم أن لله عيناً لا تنام) وفي أيامه انتشرت عصابات اللصوص ودأبت على نهب حوانيت العقيق وعدوبنة وقرورة . وأخيراً تكفل التجار بتعيين خفراء للحوانيت . فعاد الأمن إلى نصابه . ولكن بعد فوات الأوان ورحيل أكثر التجار إلى توكر . وعينت الحكومة معاوناً لحفظ الأمن بالعقيق وتحصيل الجزية . وبها شفخانة صغرى ومدرسة أولية . وبها ناد اجتماعي يؤمه بعض الشبان الذين ضاقت بهم الحالة الاقتصادية . ونكبتهم توكر بما اعتراها من النشاف (١٩٥٥ / ١٩٥٦ م).وأغلى مياه للشرب هي التي بالعقيق ومحمد قول وحلايب إذ لا يقل سعر الصفيحة من الماء عن قرشين . وطقسها في الصيف حار جداً وربما كانت أكبر مخزن للرطوبة ومرض الكحة والسعال .

رصيف العقيق

كان بها سقالة يلتصق بها السنبوك وينزل شحنته . ولكن تهدمت السقالة وأصبحت أثراً بعد عين لانقطاع ورود السنابيك منذ سنة ١٩٥٠ م بسبب تهريب البضائع إلى الخارج . فهل للحكومة أن تعيرها عناية وتصرف بعض دريهمات لتصليحها .

سمك العقيق

ما أكثره وأسهل صيده . ولكن أراد الله أن ينقرض أولئك الصيادون . ولم يظهر من يخلفهم على المهنة . مع أن سفن الصيد المصرية تأتي في شهور الشتاء الثلاثة وتصطاد كل أصناف السمك الجيده ثم تعود لديارها .

وشاهدت في العقيق زورقاً واحداً (هوري) أكل الدهر عليه وشرب . وذكر لي

صاحبه بأنه لا يوجد زبائن للسمك . ويظهر أنه خاف من أعضاء النادي حتى لا يزاحموه ويصدروا صيدهم إلى توكر حيث السعر باهظ .

المخبز :

يوجد فرن واحد بالعقيق وواحد في قروره بنقطة حدود أرتريا . كما وأن بها خمسة تجار وطنيين والخامس مستوطن .

أهلها :

كلهم فقراء وبؤساء لأن تحطيم التجارة من البحر أغلق أمام أهلها أبواب الرزق ، فخيم عليهم الفقر المدقع كأنهم أهل زيلع[1] .

الصيف :

وفي صيف سنة ١٩٥٦ م أرسل مفتش البحر الأحمر الأقوات بحراً بالصنادل واللنشات والسنابيك لتلافي خطر المجاعة ، إذ أن طريق العقيق توكر امتلأت أراضيه ووديانه بالسيول .

مأمورية العقيق

ومنذ سنة ١٩٤٦ م يتولى إدارة مأمورية العقيق معاون هو الأستاذ محمد الحسن محمود محمد عثمان . قضى زمناً في التدريس بالمدارس الأولية .

وفي جهة دِرْباب الشمالية يقع حوض نظيف للحمام . يصعب دخول أصحاب الجمال إلى العقيق في الشتاء ، إذ أن الأرض الغربية من الدُبَّة كلها (بادوبه) وطين كثير تتكسر فيه الجمال سنوياً (نحو خمسين جملاً) ويمكن تفادي ذلك بقفل بحر أبو مكره من جانبيها بإقامة سد عال يحول دون تسرب الماء وهذه الإصلاحات دائماً

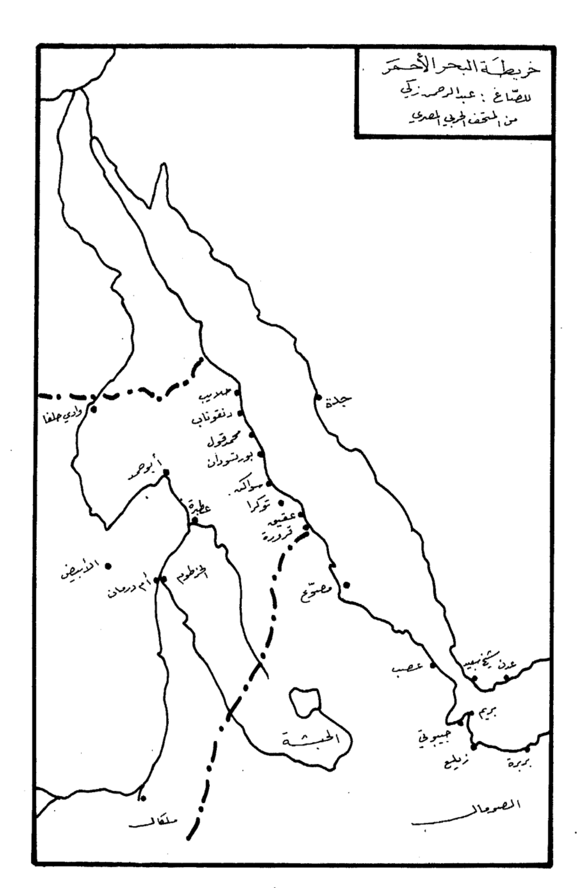
---

(١) هم من أبأس الناس كما أنهم في أعلى قمة من الكبرياء ـ ولذلك يقولون في الأمثال (فقر زيلع وكبرياء قريش) .

يتكلمون عنها . ولكن كل الحكومات امتنعت عن تنفيذها بسبب تنقلات المفتشين السريعة . وستنشأ قريباً محكمة صغرى بالعقيق يرأسها بقية عمد بني عامر .

وكانت إدارة هذه المأموريات تدار برجال من الصف الأول في الحزم والإدارة مع متانة في الخلق والدين . وكان أول عمل يأتيه المأمور هو إنشاء مسجد للصلاة على حسابه الخاص . والجلوس للمذاكرات الدينية عقب كل صلاة عصر خصوصاً في أيام شهر رمضان المبارك . واشتهر منهم بالتمسك الشديد في حقوق الوطن محمد أفندي طه الذي كانت له مواقف حازمة مع ضابط أرتريا الإيطالي ، إذ كان دائماً يوجد الخلافات بين عربان الحكومتين ويجتهد في الضغط على السودانيين . وتجرأ مرة فدخل بعساكره حتى دنا من عقيتاي . فألقي القبض عليه وعلى جنده . وأخذت أسلحتهم وحملوا على جمالهم وأرسلوا إلى العقيق . فدارت عدة مراسلات لإطلاق سراحهم . وأخذت منهم تعهدات بأن لا يعودوا لمثلها . ومن مأميرنا الحازمين (بعد حفظ الألقاب) علي جيلاني . وعيسى فارس . وأحمد عبود . ومحمد أمين . ودوكه يوسف . ومحمود جيلاني . ومحمد أمين عليوه . وكان في جزيرة ابن عباس رجل نبيل هو عبد القادر بك محمد إيله (بيت نظارة الحلنقا) والمرحوم علي أفندي طويل مأمور حلايب قبل المهدية . وكذلك خليل أفندي مأمور العقيق . والباشكاتب محمد إبراهيم الدمياطي .




خريطة البحر الأحمر
للصاغ : عبد الرحمن زكي
من المتحف الحربي المصري
جدة
حلايب
دنقوناب
محمد قول
بورتسودان
سواكن
توكر
عقيق
قرورة
وادي حلفا
أبو حمد
عطبرة
الأبيض
الخرطوم
أم درمان
مصوع
عصب
شيخ سعيد
عدن
بريم
جيبوتي
زيلع
بربرة
الحبشة
الصومال
ملكال

نُقْطَة قَرورَة

واقعة على بعد ثمانين ميلاً من العقيق عند جبل قرورة حيث قبر جدي الشيخ ضرار بن عجيل، وهي نقطة التقاء الحكومتين ويفصل بينهما وادي قرورة، وتوجد فيه نقطة بوليس سودانية وكذلك محكمة يرأسها عمد بني عامر بالتناوب، وتكثر فيها دكاكين التجار. وتعْقد الاجتماعات بين بني عامر والحباب في قرورة خصوصاً في أيام مسنجر باشا (حكمدار شرق السودان) والأرض الواقعة غرب طريق السيارات هي ملك للنابتاب، والتي في الشرق للعجيلاب. أما عيدبْ فهي لناظر بني عامر.

وأول محكمه أسست كان من قضائها المشايخ محمد ضرار علي، وعبد القادر همد ضرار، وهمد حامد، وهمد ادريس، ومحمد طره وعلي عمر وسليمان علي كرار.

وسيكون لهذه النقطة شأن تجاري عندما يتم إنشاء ميناء تَكْلايْ بأرتريا



عَيْذَابْ أَوْعَيْدَابْ

كما يسميها العرب لا يعرف لها تاريخ قبل الإسلام . ذكرت بعض الكتب أن نبي الله سليمان بن داود اتخذها سجناً للمجرمين . وهذا لا يمنعنا من الاعتراف بأنها كانت مدينة عامرة وآهلة بالسكان . وقد وجدت بها آثار غير إسلامية ، كالفخار المنقوش وصحون صينية وقطع من الزجاج الملون مبعثرة تحت أنقاض الأرض وبعض تماثيل صغيرة عليها حروف يونانية قيل إنها من عصر البطالسة (البطالمة) . وهي مثل سواكن قليلة المياه العذبة . وكانت زاهية كثيرة السكان[1] .

وقد بحثنا في عدة كتب لم نجد لها سوى ما دونه العرب في رحلاتهم .

عيداب سنة ٢٥٥ هـ / سنة ٨٦٩ م

خرج إبراهيم بن الصوفي العلوي على السلطان أحمد بن طولون وتحاربا مدة من الزمن . ثم انهزم العلوي ومضى إلى عيداب وركب البحر قاصداً مكة المكرمة[2] ، وفي العام الذي تلاه تولى حرب البجة أبو عبد الرحمن العمري واتخذها إحدى قواعده لاسترداد ما نهبه البجة من أهل الوجه القبلي وعمدتنا في ذلك خطط المقريزي .

عيداب سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ م

فتح طريق الحج من الوجه القبلي[3] إلى الحجاز عن طريق عيذاب ، وبدأت قبائل البجة في سكنى الحضر وتعميرها والاشتراك في معترك الحياة والاجتماع . وأول

(١) الحبشة الحديثة للمستر أ . ويلد . وأحضر منها الميجر هبرت بعض الآثار سنة ١٩٣٥ . وأطلق عليها في السنين الأخيرة سواكن القديمة .

(٢) سنفصّل هذه الحوادث في تاريخ قبائل إقليم البجة .

(٣) من مدينة قوص .

عمل قاموا به هو بناء البيوت والعشش لإنزال الحجاج . ثم بدأوا بصنع الجلاب لترحيلهم إلى ميناء جدة التي هي المرسى الوحيد لكل من أراد تأدية فريضة الحج من أهل إفريقيا .

عيذاب سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م

كانت الحكومة المصرية تتحصل رسوماً على الحجاج الذين يريدون تأدية الفريضة عن طريق قوص عيذاب . حتى كانت سنة ٥٧٢ هـ فأبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي هذه الرسوم الباهظة . وكانت سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان يؤم أرض الحرمين . وهذه الرسوم تدفع إما في عيذاب أو في جدة . ومن لم يؤد ذلك منع من الحج وعذب بتعليقه بانثييه . وعوض أمير مكة عن هذا المكس (عوائد) بألفي دينار وألف أردب قمح سوى إقطاعات بصعيد مصر واليمن . وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه حتى مدينة جدة[١] .

عيذاب سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م

قيل أن جماعة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب[٢] . في أقرب المواضع (مثل الكرك) التي لهم من البحر الأحمر . ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه . ولما وصلوا ساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتأليفها ورفعوها في البحر الأحمر وركبوها قاطعين الطريق على الحجاج بالقرصنة . وأحرقوا نحو ستة عشر مركباً . وغزوا عيذاب فأخذوا مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة . وأخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة آتية من قوص إلى عيذاب وقتلوا من فيها . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن . وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة أعزهما الله . وكانوا عازمين على دخول البلدين الحرامين ولكن دافع عنهما أهلهما دفاعاً مجيداً وانتصروا على هؤلاء الصليبيين وأسروا منهم جماعة[٢] . فاضطروهم للتقهقر . فدفع الله عاديتهم

---

(١) رحلة ابن جبير والمقريزي .

(٢) برئاسة البرنس رينوت البرنيس أرناط Renaught El Berny Arnat صاحب مدينة الكرك (انظر الحروب الصليبية) .

بمراكب عبرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين . فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه . فأخذوا عن آخرهم وأسر منهم جماعة . وفرقهم على البلاد الإسلامية كي يضحوا بهم عند حلول ذي الحجة من ذلك العام . قال ابن جبير وعاينا بالإسكندرية أسرى من الروم راكبين على جمال ووجوههم إلى اذنابها وحولهم تضرب الطبول والأبواق . فلما سألنا عن أحوالهم قيل لنا إنهم من بقايا غزاة مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . وسيضحى بهم يوم العيد عشرة ذي الحجة من تلك السنة[1] .

عيداب سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م

في يوم ٢٢ محرم سنة ٥٨٠ هـ ورد الخبر إلى مصر ناظر قوص بغرق أربع جلاب بها ألف وثلاثمائة رجل من الحجاج . هلكوا جميعهم . ونأتي هنا على طريقة صنع الجلاب في ذلك العصر نقلاً عن ابن جبير قال : « والجلاب التي تحمل الحجاج لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما يخيط خشبها بالقنبار[2] . وهو نوع من الحبال الحمراء متخذ من شجر النارجيل ويؤتى به من الهند وبلاد جاوة (اندونيسا) . ويخللونها بدسر[3] من عيدان النخيل . ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن (كبدة) القرش الذي يسمى كلب البحر (Shark) . ونحن نقول كان يجب أن يسمى (أسد البحر) لأنه يصرع كل من يبارزه في البحر وأما صيده فهو في غاية الخطورة لا يعرف ذلك إلا من جربه واختبره . وإذا لقي هذا القرش إنساناً في البحر فإنه يهجم عليه ويقطعه نصفين فيأكل أحدهما ويراقب النصف الثاني حتى ينتهي من مضغ الأول فيقضي على النصف الباقي . ومراراً ما يلقف السمك من الصيادين عند

---

(١) ضُحِّي ببعضهم في منى والبعض في المدينة المنورة .

(٢) تعلم البجة من الصليبيين استعمال المسامير بدلاً من الخياطة بالقنبار . وفي عصرنا يستعملون القطن والمشاق بدلا من القنبار الذي انحصر استعماله في حبال الدقل (عَيَاراتْ) والشراع والباروسي (البَاوْرَة) . ويطلق على النجارين الذين يوشرون الجلاب أي يعملونها « مُعَلِّمون » .

(٣) ويسمى شَلْمان Shalaman وأجوده وأرخصه هو ما يؤتى به من بلاد اليمن مثل اللَحيَّة وميدي وقبة عباس .

سحبها بالحبل من البحار العميقة . والويل للسمّاك وزورقه إذا تكاثروا حوله فإنهم يحرمونه من كل سمكة يصيدها . وأحياناً يحاولون إغراق الزورق إن كان صغيراً . ويضطر الصيادون من مبارحة المجلب (محل الصيد) لخطورته .

(ويقال أن صغار القروش التي تكون في بطون أمهاتها مقوية للباه وأقوى منها التي في بطن الأخيرة . إذ يتناسلون وهم في بطون أمهاتهم) .

عيداب سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م

قال المقريزي في كتاب السلوك : إن في هذه السنة أخذت عرب برية عيداب رسل صاحب اليمن وهما بدر الدين حسن بن أبي النجا والطواشي جمال الدين فيروزة وعدة من التجار وجميع ما معهم . فبعث السلطان الناصر محمد بن قلاوون العسكر وهم خمسمائة فارس عليهم الأمير علاء الدين مغلطاي ابن الأمير مجلس في العشرين من شوال فساروا إلى قوص . ومضوا منها في أوائل محرم سنة ٧١٧ هـ إلى صحراء عيداب . وقد أوضحنا ذلك في سواكن (عصر المماليك) .

وبعد ثلاث سنين من هذا التاريخ (سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م) ثار أهل عيداب وقتلوا الحاكم المقيم بها نيابة عن سلطان المماليك . فانتدب السلطان الأقوش المنصوري كي يؤدب سكان عيداب فأخمد بجيشه نيران الثورة واتخذ مدينة عيداب مقر حكمه ومنحه السلطان إيراد مدينة أصوان .

وعيداب من أحفل مراسي الدنيا بسبب مراكب الهند واليمن والصين تحط فيها وتقلع عنها زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة . وهذه المراكب القادمة من الشرق بطريق البحر الأحمر تمر على عدن ثم عيداب التي منها تنقل البضائع بالجمال إلى قوص ومنها إلى المدن المصرية في النيل إلى القاهرة . قال ابن جبير : « وفي الطريق بين عيداب وقوص شاهدنا جمال الفلفل وخيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق جمال الفلفل والقرفة وغيرهما من البهارات والسلع مطروحة لا حارس لها » .

عيداب سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م

قال ابن بطوطة : « نزلنا حميثرا ـ في طريقنا إلى عيداب ـ حيث قبر ولي الله أبي الحسن الشاذلي » . ولا بأس أن نورد ملخصاً لتاريخ حياته نقلا عن طبقات الشعراني قال : هو أبو الحسن علي الشاذلي[١] بن عبد الله بن عبد الجبار ينتهي نسبه للحسن بن علي بن أبي طالب[٢] درس بقريته العلوم الشرعية حتى أتقنها وصار يناظر عليها مع كونه ضريراً . ثم انتهج التصوف ونظم الشعر وطاف في الآفاق حتى قدم الإسكندرية من المغرب وأقام فيها زمناً . ثم توجه إلى القاهرة ونشر فيها طريقته (الشاذلية) . وكان شيخه الشيخ عبد السلام بن مشيش[٣] . ونال الشاذلي مكانة مرموقة لدى السلطان محمد بن قلاوون المصري . وكان يحج كل سنة[٤] وفي آخر حجة قال لخادمه استصحب فأساً وقفة وحنوطاً . فقال الخادم : ولماذا يا سيدي ؟ فأجابه في حميثرا سوف ترى . فلما بلغها اغتسل رضي الله عنه وصلى ركعتين . فقبضه الله إليه في آخر سجدة من صلاته ودفن هناك . وبنيت على قبره قبة سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . ويقال إن علم الشيخ أبو الحسن الشاذلي لم يرثه إلا الشيخ أبو العباس المرسي صاحب الضريح المشهور بالإسكندرية . وانتشرت الطريقة الشاذلية بشرق السودان عن طريق اليمن ومصوع وسواكن .

قال ابن بطوطة : وبعد أن سرنا خمسة عشر يوماً وصلنا مدينة عيداب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن . ويحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر . وأهلها البجاة وهم سود الألوان يلتحفون ملاحف صفراء . وهم لا يورّثون البنات . وطعامهم ألبان الإبل . ويركبون المهاري ويسمونها الصهب . وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها

---

(١) نسبه إلى شاذله ، وهي قرية بقرب تونس .

(٢) طبقات الاولياء .

(٣) قتله ابن أبي الطواجن بالمغرب .

(٤) عن طريق عيداب .

لملك البجة . وهو يعرف بالحدربي[1] . وبمدينة عيداب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة . ولما وصلنا عيداب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الأتراك وقد حرق المراكب وهرب الترك أمامه . فتعذر سفرنا في البحر وعدنا مع العرب الذين اكترينا جمالهم إلى صعيد مصر (قوص) لأن طريق البحر أصبح محفوفاً بالأخطار .

عيذاب سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م

وزار مدينة عيذاب العلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي . وقال إن عيذاب وما يتصل بها من الصحراء المنسوبة إليها (بأيديب) ليس لها طريق معروف إلا رمال سيالة . ولا يستدل عليها إلا بالجبال والكدى . وربما أخطأها الدليل الماهر . وهي مدينة حسنة وهي مجمع التجار براً وبحراً .

خراب عيذاب سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م

بعد اتخاذ الحجاج المصريين طريق طور سيناء إلى الحرمين الشريفين ضعفت حركة عيذاب الاقتصادية والاجتماعية . وصار ينتابها الموت بالتقسيط . حتى سلط الله عليها داوود ملك النوبة وغزاها سنة ٧٦٠ هـ وقتل أهلها وأسر أعيانها وخرب دورها حتى تركها قاعاً صفصفاً . وعرج على أصوان فأحرق أكثر سواقيها حتى سمع به والي قوص . فقام لقتاله بجيش كثير ولكنه فر ببعض رجاله وأسر والي قوص قائد فرسان داود وبعض رجاله وأفرج عمن كان بأيدي النوبة من أهل أصوان وعيذاب .

معيشة أهل عيذاب

يعيش أهل عيذاب من كراء الجمال والجلاب . فالأولى تتألف منها القوافل التجارية في البر . والثانية تنقل الحجاج عبر البحار إلى مدينة جدة . وما من أهلها إلا وله جَلَبة . وهذه الجلاب تعود عليهم بإيراد كثير . ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت . وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود

(١) من البلويب .

بهم وكأنهم أقفاص الدجاج المملؤة يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء ؛ حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها في رحلة واحدة ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك . يقولون : « علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح » .

أقول ، وهذا ما كان يحدث في بورتسودان ومصوع وضواحيها الساحلية منذ سنة ١٩٤٩ م حتى سنة ١٩٥٢ م ، حيث أن المهربين يؤشرون (يصنعون) القوارب الكبيرة بل والزعيمة الصغيرة بسعر مائة أو مائتي جنيه ثم يتحصلون ثمنها من الحجاج النيجريين ويدعون أنهم سينزلون في ميناء جدة .

ويقصد بهم الريس إحدى الجزر التي في البحر ثم يأمرهم بالنزول فيها للمبيت والاستراحة . وعندما ينتصف الليل يهرب بقاربه وبحارته ويعودون إلى إحدى المراسي لصيد السمك . أما الحجاج فيموتون هناك بالعطش . وأحيانا ينزلونهم في السواحل السودانية فيجتمع الهارب والمهرب بين يدي القضاء للقصاص وبعضهم يصل إلى بر جدة (جنوبها) فإما أن يصلها أو يقتله الظمأ . وكل هذه المصائب يأتونها ويرتضونها خوفاً من رسوم الحجاج السعودية . فسمع بها الملك عبد العزيز آل سعود فلغى الرسوم نهائياً فاستراح القاصي والداني والشامي واليماني الذين كانوا يتسللون عن طريق البر اليماني والشامي (بورتسودان) عن طريق البحر .

عودة حجاج عيذاب

وهؤلاء الحجاج عند عودتهم من جدة إلى عيذاب تصيب جلابهم أحياناً ريح شديدة وعواصف وأنواء تلقي بالجلاب في برية عيذاب . فيتلقاهم البجة ويؤجرون لهم الجمال ويسلكون بهم غير طريق الماء . فربما ذهب أكثرهم عطشاً واستولى البجة على ما بأيديهم . وإما من يصل منهم إلى عيذاب كأنه بعث من كفن[1] .

وشاهدنا بعضا منهم[2] . وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي ويندر من يصل منهم سالماً .

(١) رحلة ابن جبير .

(٢) كل هذه الحوادث لها مجرمون ماهرون . فكم حاجاً مات في جبل تَلاتَلا Talatala وجبل نقرْسَمْ وفي =

إمارة عيداب

كان لمدينة عيداب أمراء مثل أمراء سواكن (الأرتيقة) يقال لهم « بني يونس بن ربيعة » . ملكوها عند قدومهم من اليمامة . فجرى بينهم وبين بشر بن إسحاق (أحد ملوك البجة من البلويب) حروب انهزموا فيها ومضوا من عيداب إلى الحجاز . ثم وقعت حروب بين بني بشر قتل فيها إسحاق فأحضروا إليهم من بلبيس الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي المعروف بأبي زيد . وتولى الإمارة بعيداب على عموم قبائل البجة الشمالية بما في ذلك من هاجر إليهم من سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام . مثل بَلِيّ أو البلويب (رهط أمراء الحدارب) المذكورين أعلاه . وبعد الإسلام مثل ربيعة وجهينه في صدر الإسلام وقريش وغيرها في القرن التاسع والعاشر للهجرة[1] وكانت هذه القبائل تسكن بوادي عيداب وقفارها .

سكان عيداب اليوم

استوطن جماعة من ذرية محمد بن وراق من نسل مصعب بن الزبير بن العوام يقال لهم أبناء بشار بن محمد بن كاهل حول جبل عِلْبه المجاور لعيداب وحلايب . حتى تكاثر نسلهم واضطروا من معهم من البجة والعرب للرحيل عنه إلى الجنوب .

وكانت غزوة داود ملك النوبة أكبر معين لرحيل البجة وغيرهم من حول بادية عيداب . فتجد بعضهم في بئر شلاتين وجبل علبه وحلايب ودنقناب . وعموم قبائل البشاريين تحت نظارة رجل حازم هو الشيخ أحمد كرار أحمد . وهو شقيق العمدة المشهور بالشهامة والكرم الشيخ محمود كرار . وعاصمة القبيلة الشمالية هي ميناء

=جزائر الشَبك ودرْباب . هذا بخلاف الذين ينزلون جنوب جدة ويضللونهم بأن جدة على بعد ساعة أو ساعتين ثم تقتضى الرحلة بالرجل يوما أو يومين يموت من يموت عطشاً ويصل طويل العمر منهوك القوى . وقد رأيت قافلتين وصلتا سنة ١٩٥١ بعد أن فقدتا النصف وكل أفرادها الصغار والشيوخ .

(١) مؤلفات المقريزي .

حلايب والجنوبية هي جزيرة بعلوك على نهر عطبرة (الضفة الغربية) وتحتاج قبيلة البشارين إلى ثلاث مدارس أولية إحداها في حلايب والثانية في جهة مناجم بركتيّب أو ابو دويم . والثالثة في بعلوك إذ أن تعداد سكان القبيلة لا يقل عن ثلاثة وأربعين ألفا . ويدفعون ضرائب كبيرة ولذلك لا يحق حرمانهم من التعليم . وكل مدرسة تحتاج إلى شفخانة بجوارها . يقيم دائماً في جهة حلايب شيخ خط البشارين المدعو الشيخ حامد كرار وهو نائب الناظر في تلك الجهات . كما أن الشيخ يوسف إسماعيل مسئول عن الجهة الشمالية الغربية المحاذية لضفاف النيل بين بربر وأبو حمد .



دنقاب (Dongonab)

تقع على بعد ثمانية وعشرين ميلاً شمال محمد قول . ويحدثنا التاريخ أن في بحر عيداب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها . وأوان الغوص عليه هو في شهر يونيه ويوليو . ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنيه . يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارتي ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه في الرزق . والمغاص منها قريب القعر ليس ببعيد . ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيئ بالسلحفاة . فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة . ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق[1] .

ولما تم للإنجليز احتلال السودان انتشر كثيرون منهم في الأبحاث العلمية والاقتصادية . مثل مناجم الذهب ومغاص اللآلىء والآثار الخ . . وكان نصيب دنقناب زراعة اللاليء كما جاء في كتب الأقدمين ممن ألفوا الرحلات العلمية . ففي سنة ١٩٠٥ م جاء إنجليزي[2] اختصاصي في توليد الصدف واستخراج اللؤلؤ بالطرق العلمية الحديثة . ووقع اختياره على ميناء دنقناب لتجاريب أبحاثه فيها . كما أنشأ فيها إدارة للعمال والعمل واعتمدتها حكومة السودان إحدى مصالحها . فأحضرت الآلات اللازمة كما أحضر الزوارق البخارية والهواري وغيرها مما يتطلبه العمل . وعمل الأحواض الزراعية وجلب الموظفين والصناع كالنجارين والحدادين واشترى سنبوكين لنقل البريد وإحضار كافة طلباته من سواكن وبورتسودان حتى انتهت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ / ١٩١٨ م فارتأى مدير المديرية (المستر تبتس Tippets) في أواخر سنة ١٩٢٢ م إن مغاص دنقناب عبارة عن مصاريف باهظة

---

(١) رحلة ابن جبير .

(٢) المستر كروصلاند Crossland كتب عن أبحاثه في مذكرات ومدونات السودان وأخرج أخيراً كتاباً بمجهوده في أبحاث اللؤلؤ سنقتطف منه ما يلزمنا .

لا يرجى منها أي إيراد . فعرض شرائها على بعض تجار سواكن (السيد عمر الصافي ، والشيخ سعيد ، عبد الله باعشر ، والشيخ محمد صالح بازرعة) فاشتروها بمبلغ خمسة آلاف من الجنيهات .

وتولوا أعمال استخراج الجواهر واللآليء بأنفسهم وانتدبوا بعضاً من أنجالهم . وها نحن ننقل للقراء بعض المعلومات من أحد الذين تسلموا الأعمال من مديرها المستر كروصلاند الذي وضع بعض موظفيه في السجن سنة ١٩١٥ م لأنهم كانوا يتكلمون في السياسة ويعطفون على تركيا وبعضهم يتزلفون إليه بالتلفيق على إخوانهم فيعتقلون بدون محاكمة ثم يفرج عنهم فجأة .

زراعة اللؤلؤ أو الصدف

قال لي الشيخ أحمد سعيد باعشر أن للمستر كروصلاند لنشاً بخارياً يركبه كل صباح ويطوف به في ضواحي بحر دنقناب وكلما جاء إلى بقعة قذف بشبكة تمتلىء بالتراب من البحر وبعض المواد الخاصة فيدقق فيها بآلات عنده ثم يأتي بأخشاب يقذفها على مقربة من قاع البحر ويقول أن هذا المكان صالح لزراعة الصدف . وبعد نحو ثلاثة أشهر يستخرج الأخشاب فيجدها جميعها قد نبت فيها صدف صغير (وهو ما نسميه نحن القشار) (Gúshar) ، فيأمر العمال أن يخرجوه بكل اعتناء بالسكاكين ويغرسوه كما يشتل الشتول من مكان الغرس إلى محل النمو الأخير فتكبر أزواج الصدف ويخلق الله في داخلها قطعاً من اللحم . ويبقى الزوج من الصدف ملتصقه في قاع البحر من اسفلها فاغرة فاها فتنبت فيها الحبة من اللؤلؤ (داخل اللحم) . ويندر أن تكون في باطن الصدفة حبتان وعلى حسب عمر الصدفة يكون حجم اللؤلؤ فإن كانت كبيرة ومدتها طويلة تكون الحبة كبيرة كأنها جوهرة ثمينة . ومن عادة الصدف أن يكون فاغراً فاه طيلة مدة إقامته في البحر فإذا مسته يد البشر يقفل فاه حالاً ولا يمكن فتحه إلا بعد إخراجه من البحر بالسكين .

العمال في دنقناب[1]

نقلاً عن مدونات السودان

كان تحت إدارة الذكتور سيريل كروصلاند نحو مائتي عامل في فصل الشتاء . أما في الصيف (وهو وقت الحصاد) فكان معه ثلثمائة عامل ومساعد مدير وثلاثة ملاحظي عمال وثلاثة من الكتبة . ومهندس وخمسة نجارين وبعض الغواصين وعدة هواري وقوارب ولنش بخاري (وسنبوكين) (كبير وصغير) . وكانت دنقناب قرية جميلة ذات حركة عمالية صغيرة تقع على شرقها الجنوبي شبه جزيرة رواية (ملاحة) . وليس بها اليوم إلا عشرات من عائلة بألقاب البشاريين تمر بها اللواري الذاهبة إلى حلايب من بورتسودان .

ونأتي هنا على الكمية المصدرة من صدف السودان إلى المملكة المتحدة حسب ماوردت في مذكرات ومدونات السودان في المجلد الرابع عشر سنة ١٩٣١ (الأسعار بالجنيه الإنجليزي والشلن) .

السنة	طن	جملة السعر	سعر الطن
		ش - جـ	ش - جـ
١٩٠٧	١٩	١,١٤٦	٦٠,٤
١٩٠٨	١٥	٨٩٣	٥٩,٥
١٩٠٩	٨٥	١,٦٢٧	١٩,١
١٩١٠	٩٦	٥,٦٩٥	٥٩,٤
١٩١١	١١٩	٧,١٣٩	٦٠,٠
١٩١٢	٤١	٣,٤٧٥	٦٠,٢

(١) هي إحدى ضواحي بورتسودان الشمالية الشرقية وسنتكلم عنها في (الشيخ برغوت) .

١٩١٣	١٨٦	١٥,٣٦٩	٨٢,٧
١٩١٤	٣٢	٢,٣٠٤	٧٢,٠
١٩١٥	٤٨	٣,٥٨٠	٧٤,٦
١٩١٦	١٤٨	١١,٠١٢	٧٤,٤
١٩١٧	٥١	٤,٠٥٣	٧٩,٥
١٩١٨	١٤	٧٣٣	٥٠,٦
١٩١٩	٣٧٩	٢٢,١٢١	٥٨,٣
١٩٢٠	٢١٧	١٨,٤٢٨	٨٥,٠
١٩٢١	١١٠	٤,٣٠٦	٣٩,٢
١٩٢٢	٢٢٥	١١,٥٩٥	٥١,٥
١٩٢٣	٤٧٧	٩,٦١٣	٣٠,٢

وفي هذه السنة لغيت حقول الصدف والمصلحة

١٩٢٤	١٦٨	٣,١٣٧	١٨,٧
١٩٢٥	٦٦	٣,٦٥٣	٥٥,٣
١٩٢٦	٨٥	٣,٥٣٢	٤١,٥
١٩٢٧	٦٦	١,٥٤٧	٢٣,٤
١٩٢٨	٢٧٠	١,٠٣٤	٣٨,٣
١٩٢٩	٨	٤١٢	٥١,٥

وانتهى بعد هذه السنة كل ما أمكن حصده من دنقناب وأصبحت القرية خالية من العمل والعمال .



مُحَمَّد قول

تقع على بعد ٩٥ ميلاً شمال بورتسودان . وهي على ساحل البحر الأحمر . ويكثر فيها السمك . وتقع في شرقها ملاحة (رَوَاية) المشهورة بكثرة أحواضها التي تنبت الملح بكميات هائلة . وهذه الملاحة هي تعلق قبيلة الأمارأر عموماً وكل عائلة تعرف أحواضها . وقد استغني عن ملحها بملاحة بورتسودان التي يمتلكها أبناء الشيخ محمد البربري إذ اشتروها من الشركة الأجنبية التي أسستها . كما أنها أغنت الأهالي أيضاً عن ملاحة ضَرَحْ . ونقل الملح من هاتين الملاحتين يبدو للناظر سهلاً ولكن من يعلم أن نصف سنابيك نقل الملح يتحطم على الشعوب الحجرية إذ أن البحر بين رواية وبورتسودان في غاية الخطورة . والمسافة من محمد قول إلى رواية لا تقل عن عشرين ميلاً . وسكانها من ذرية الشيخ كُرُبْ بن عثمان بن عجيب (كرباب) .

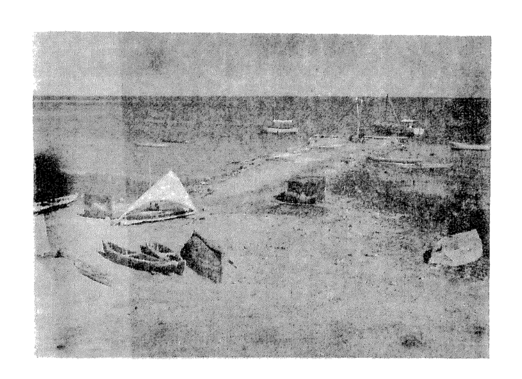
وأما الشيخ محمد[١] قول فهو تاجر من الأرتيقة كان متزوجاً بإحدى بنات الأمارأر . ثم فتح حانوتاً وسميت الميناء باسمه مع أن اسمها الأصلي هو بأيديب[٢] (باعيداب) (Baideib) وفي محمد قول يمكن سماع المدافع التي تطلق في جدة وجنوب محمد قول يوجد جبل كبير جداً به مراع خصبة ومياه للشرب . وترحل إليه بالسفن الإبل والأغنام لمدة أربعة أشهر واسم عمدتهم الشيخ أحمد علي حمد همد بن أكد بن هَوَّنْ بن شنيتر بن عيسى بن كرب بن كرب بن عثمان بن الشيخ عجيب المانجلوك العبدلاّبي .

وأعز شيء في محمد قول هو الماء إذ تباع الصفيحة بقرشين صيفاً . وهذه المياه تجلب من وادي هوكيبْ Houkeib وهادي و Hadi . وعند دخول السنابيك أو اللنشات إلى الميناء تهتدي بعلامات واضحة تمنع الارتطام بالشعوب . وفي الميناء ثلاثة حوانيت تعتمد في مبيوعاتها على ما يرسله العمال إلى ذويهم من بورتسودان .

---

(١) أمه هي بنت الشيخ عشيب وقد تزوج ابنة أحد أخواله .

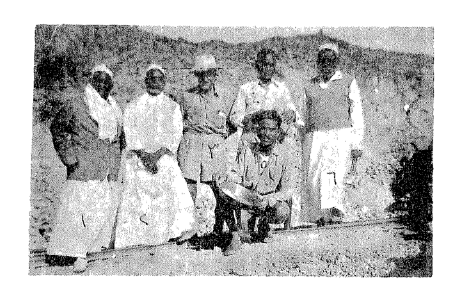
(٢) وهي غير عيداب المذكورة في التاريخ والرحلات القديمة .



منظر من بايديب (محمد قول) وتظهر فيها السقالة التي ترسو عليها السفن



المنازل في مرسى محمد قول



١ ـ الشيخ أحمد سعيد عبد الله باعشر ٢ ـ الشيخ محمد سعيد ٣ ـ المهندس المستر سيجر ٤ ـ الشيخ أبو بكر سعيد ٥ ـ ودكنين مساعد المهندس ٦ ـ محمد صالح ضرار في رحلة سنة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م

عند زيارتي لمنجم الذهب بجبل بركتيب الذي تسكنه قبائل البشاريين الشمالية وهم النافعاب والمنصوراب والإيمراب (البيض)

مأمورية حلايب

واقعة على الحدود الشمالية المجاورة للسواحل المصرية . وهي ميناء جميل يصلح أن يكون ذا فائدة عظيمة خصوصاً إذا امتدت إليه سكة حديد من أبي حمد .

وحلايب هذه تسمى أحياناً - عِلَيْ . أو . إلَيْ Elai . وبها كسائر المراكز الصغيرة مدرسة تحت الدرجه . وتبعد عن بورتسودان نحو مائتي ميل . وكانت الحدود بين السودان ومصر شمال حلايب ولكن تعدلت هذه الحدود بين الحكومتين (المصرية والإنجليزية) في عهد أحمد زيور باشا . وأصبحت ميناء بئر شلاتين هي الحد الشمالي . كما تعدلت الحدود من جهة وادي حلفا فاستولى المصريون على جزء كبير من باديتها . فكل ما يقال عن الحدود الإدارية أو السياسية ما هو إلا مشاكسات السياسيين[1]. وقد فصل فيها كما أسلفنا سنة ١٩٢٥ م يوم فصل في مسألة جغبوب . وتسكن هذه المناطق قبائل البشاريين مثل عمودية . الْحَمَدْ أورابْ Hamad-Owrab والشنتيراب Shantirab . وفي شمال حلايب يقع جبل علبة Alba المكتظ بكثرة المنقبين من قبل الحكومة المصرية . مع أنه جبل سوداني في أرض جمهورية السودان داخل الحدود الطبيعية للقطر . وجبال البشاريين غنية جداً بمناجم الذهب والرخام والمِيْكا والمنجنيز . وفي القريب سيكشف التنقيب عن البنزين والغاز والزيوت وغيرها . وتسكن في هذا القطاع من البادية (من عند أبعلوك بنهر العطبرة غرباً حتى ميناء بئر شلاتين) قبيلة البشاريين السودانية وهي اليوم تحت سلطة مفتش البجة ويساعده معاون العربان . ومن أشهر مأميرها السيد علي طويل واليوزباشي فرج علام السوداني .

---

(١) إذا لم تحسم مثل هذه الحوادث بحزم ستكون معضلتها أشق من السد العالي (المؤلف - م ص - ض ١٩٥٤ .) .

قلعة حلايب سنة ١٨٨٦ م

وردت الأخبار إلى سواكن أن تهريب الرقيق وأسرى الحرب ممن بأيدي الأنصار بدأ تصديره إلى الحجاز عن طريق أبي حمد حلايب. فما كان من البكباشي (اللورد) كشنر إلا وأن أخذ معه قوة مؤلفة من الجنود الوطنيين تصحبهم عشرجي أورطة بكامل معداتها وكل رجالها من الجنود السودانيين المدربين أحسن تدريب. كما أخذ معه خبراء من البنائين والنجارين وبدأ في إقامة بناء القلعة الحصينة ذات المزاقيل ومخازن لحفظ المؤونة والذخيرة. وبعد إتمام البناء عادت الأورطة إلى سواكن وبقيت حامية البوليس هناك تحت أمرة المأمور السيد طويل ومعه كاتب.

استيلاء الأنصار على حلايب

لما سمع الخليفة عبد الله التعايشي ببناء القلعة من خطابات الأمير عثمان دقنة. أمر الأمير حسن محمد سعد بالاستيلاء عليها حتى لا يتخذها العدو سواكن ثانية. وأعانه بقوة أخرى بقيادة أحمد نصراي وبغدادي فاخترقوا الصحراء ـ صحراء عتباي ـ وذلك حوالي ١٢ مارس سنة ١٨٨٩ م. وفي يوم ١٩ أبريل وصل رجل من البادية وأخبر مأمور حلايب بأن قوة مؤلفة من أكثر من ثلاثمائة أنصاري ستهجم على المدينة بعد زمن قصير. فاستعد المأمور للقائها وأخذ النساء والأطفال إلى سنبوكين كانا راسيين بالميناء، وأمر الجنود بأن يثبتوا أرجلهم في البحر وحولهم الزوارق ملأى بالرصاص والأكل للقاء الأنصار. ورفض الكاتب أن يخرج من المكتب إذ قفل على نفسه الباب. فلما وصل الأنصار بدأ إطلاق النار بينهم وبين البوليس الذي جرح منه خمسة وقتل اثنان، فحملوا بالزوارق إلى السنابيك. وتكاثف رصاص الأنصار على البوليس فعاموا حتى بلغوا السنابيك. واستولى جيش الأنصار على المدينة وضواحيها وأرسلوا سراياهم إلى الشمال لجمع الزكاة من البشاريين في جبل علبة وبئر شلاتين وتم احتلال كل مناطق البشاريين وأسندت إمارتها للزعيم الأمير تيتة من الشنتراب.

وبعد سقوط المدينة وصلت المدمرة عجيمي وأطلقت مدافعها على الأنصار، فتحصنوا من قنابلها في القلعة ولم يجسر جنودها على الهبوط من المدمرة. فأقلعت إلى

سواكن مسرعة فوصلتها يوم ٢١ / ٤ / ١٨٨٩ . وأخبر قبطانها المحافظ الذي قام بالأورطة الحادية عشرة السودانية ومعها قومندانها مكدونالد بك على الباخرة مخَيّر والمدرعة الإنجليزية استارلنج H . M . S : Starling .

فوصلت القوة إلى حلايب يوم ٢٧ / ٤ / ١٨٨٩ م وأنزلت الجنود والمعدات . وصمد لهم الأنصار في الجبال حول الآبار[1] . واستعدوا للقاء جيش الحكومة في مكان يقال له أقوامتيري (Agw Amtiri). وبقيا أمام بعضهما حتى أواسط مايو حيث أمر الخليفة عبد الله الأمير حسن سعد بالعودة إلى أبو دويم وبركتيب . وعاد المحافظ (هولد اسمث باشا) إلى سواكن بعد أن ترك قوة بحلايب تحت قيادة الصاغ جاكسون الذي أعاد ترميم القلعة . ثم استلم منه المأمورية السيد علي طويل (رحمه الله) . وقد استقيت هذه المعلومات من سيادته سنة ١٩٢٦ ومن صديقه الشيخ شنقراي حامد من الحمد أوراب وقد اشترك في المعارك التي دارت في تلك البادية .

وفي بحر حلايب تكثر الشعوب (الصخور البحرية) أو الشعبان كما يسميها البحارة . فكم سفينة غرقت والتهم القروش[1] (أسود البحار) ركابها وبحارتها .

استخراج الذهب

قال رمسيس الثاني[2] سنة ١٢٩٢ قبل الميلاد إنه حارب السودانيين وهجم عليهم كالثور القوي فسحقهم بقدميه كالثور الهائج وأصلاهم ناراً حامية بقرنيه العظيمتين . وفي رواية أخرى أن رمسيس الثاني عجز عن بسط النفوذ المصري على السودان حتى إن بلاد الصومال وما جاورها امتنعت وقتئذ عن دفع الجزية لمصر . وأما كمية الذهب في جبال الصحراء فقد كانت كبيرة إلا أنها كانت صعبة النقل إلى نهر النيل وذلك لأن الطريق كان طويلاً شحيح المياه . حتى إن وفيات عمال تلك المناجم بلغت النصف بسبب العطش . وزد على ذلك الخسارة التي كانت تلحق بالحيوانات كالحمير وغيرها . نعم إنهم كانوا يستعملون القرب الجلدية لحفظ المياه إلا أن كمية ذلك لم

(١) أكثر المياه في آبار « ميسا » و « أبْرِكْ » Messa and Abrak

(٢) تاريخ السودان القديم .

تكن تكفي لإرواء ظمأ جميع العمال بالمناجم . والتنقيب في عصرنا الحديث أثبت وجود المياه الغزيرة في بعْض المناجم وقلتها في البعض الآخر . ولا يزال عمل بعض الشركات مستمراً بروح لا تعرف الكلل ولا الملل . ولا تبالي بالأموال التي استنزفتها ولا يزال يستنزفها البحث عن الذهب أملا في أن تكون الفائدة جمة في المستقبل . وهذا ما يصعب التكهن به .



تُوكَرْ أوْ كَرْ

هو اسم علم لجارية بني عامرية كان يقال لها (كر . Karr) . سكنت في دَبَّة عالية بدلتا خور بركه[1] . وهذا الاسم تجـده في كثيرات من الجواري . وأما توكر فإن حرفي التاء المضمومة والواو علامة تأنيث اسم العلم « كَرْ » في اللغة البجاوية . ولكن الحكومة تكتبها « طوكر » وهو خطأ يجب عدم التمسك به . وكان الأهالي في الزمن السابق يزرعون فيها الذرة ثم اجتمع رجل من الأرتيقة[2] بأحد السنابيك اليمنية في جهة سواحل ترنكتات واشترى من السفينة مُدا من الدخن ببقرة حلوب ثم زرع الدخن وأدخله على توكر . ثم تعين ممتاز باشا محافظاً على سواكن فأرسل إلى الحكومة المصرية طالباً منها أن تنجده بمزارعين ماهرين في زراعة القطن . ونجحت زراعة القطن في توكر واستمرت في تقدم حتى كانت المهدية فاستولى الأمير[3] عثمان دقنة عليها ولغى زراعة القطن واستعاض عنها بالذرة والدخن . وكانت الحكومة التركية قد بنت داراً للمأمورية من طبقتين في توكر الأصلية . ولكن الأمير خضر بن علي الحسنابي أنشأ ديماً على بعد سبعة أميال في (فافيتْ) (عفافيت) . فلما استردتها حكومة الحكم الثنائي في ١٩ فبراير سنة ١٨٩١ بنت فيها طابية حصينة وعينت عليها محمد بك عبود مأموراً . وبين التيب وترنكتات كانت وقائع الأنصار والمستعمرين ولا تزال عظامهم وأظافرهم تحت الرمال ينقلها الهواء كلما هبت العواصف عليها . واستوطنت توكر أكثرية من الأرتيقة في الزمن السابق وأقلية من الأشراف والحسناب والكميلاب[1] . أما الهدندوة وبنو عامر فقد ازداد تعدادهم بكثرة هائلة بل وملحوظة إذ ليس لهم محل عمل سواها ولذلك اتخذوها وطناً لهم . ويؤلفون

---

(١) هو الوادي الفاصل بين الهدندوة وبني عامر إذ ينبع من جبالهما . وليس لأي قبيلة ادعاء ملكية هذا الوادي إلا هاتين القبيلتين . أما زراعة دلتا توكر فتحتاج الى نظام زراعي وطني ينفذه أناس اشتهروا بالنزاهة والحزم وإنصاف المحرومين من المواطنين أو العمال الذين يكدون ليلاً ونهاراً في طلب القوت الضروري وأولئك هم الكادحون .

(٢) اسمه أولاك Owlak . (٣) سنة ١٨٨٤ م .

(١) اعتبرنا الشعياب من الأرتيقة وكل هؤلاء في القاش يتبعون نظارة الهدندوة . وفي أرتريا نظارة بني عامر إن وجـدوا .

فيها أغلبية ساحقة بالنسبة للقبائل الأخرى . هذا بخلاف أهل نيجيريا الذين لا يستقرون في مكان أكثر من خمس سنوات . ودلتا توكر خصبة جداً إذ يتجدد فيها الطمي سنوياً فيكون ارتفاعه في بعض المحلات متراً وهي في غنى عن أي سماد لتحسينها . ويزرع أهل توكر القطن الطويل التيلة من السكلريدس أو ما يماثله . وتقسم الدلتا إلى مربعات ، كل مربع يساوي ١٦٠ (مائة وستين فداناً) . وأجود الأراضي وأكثرها اليوم بيد عائلات عريقة من الأرتيقة . وربما امتلك أحدهم ما يرنو من تسعين مربعاً . والسبب في ذلك كما أسلفنا أنهم أول من استوطن وزاول فيها مهنة الزراعة . وفي أيام المهدية كان يزور توكر المستر أوغسطس وايلد Augustu Wylde ويشتري الأراضي من ماليكيها ويأخذ منهم إيصالات (سمعت أنها بوزارة المستعمرات البريطانية) . وجاءت حكومة الحكم الثنائي فسنت قوانين في فترات متقطعة مدّعية أن الأراضي ملك لها . ولكنها بطريقة ملتوية[٢] وصدر قانون أخيراً يفهم من نصوصه أن كل الأهالي يعتبرون مؤجرين للأرض سواء كانت كثيرة أو قليلة . هذا وكل قبيلة تدّعي أن لها الحق في الملكية . فالهدندوة وبنو عامر يقولون الأرض لنا بسبب ملكيتنا للمنابع والحدود . والأرتيقة يقولون : نحن ومن معنا أول من أطاع أحمد ممتاز باشا وزرع القطن . والحباب يقولون : نحن العمال الذين نغرس ثم نحصد ونلتقط القطن من شجيراته . ثم ننظف الأرض للعام المقبل وهي غابات . فلولا سواعدنا وكثرة أيدينا العاملة لما جنى أصحاب ملكية الأراضي قنطاراً في الشهر . وهكذا ولكل امرىء حجته . وقد ذكرنا شيئاً عن زراعة القطن في حياة ممتاز باشا (محافظ سواكن) .

ومدينة توكر مشهورة بكثرة الأهوية والعواصف وتلال الرمال المتنقلة . وفكرت لجنة من الخبراء في إنشاء غابة من أشجار العدليب (أدليب) حول المدينة تكون حرماً لا تمسه المواشي . وقد نجحت الفكرة . وأفضل منها الغابات التي عملت بأراضي نهري الدجلة والفرات في العراق . فقد كانوا يعانون شدائد جسيمة من الأهوية والرمال .

وشراب أراضي توكر تحت رحمة الله . فإذا جاء نهر عنسبة (عين سبا) بمائه

---

(٢) قال بورخهارت إنه سمع في سواكن بأن الهدندوة يزرعون توكر وذلك في سنة ١٨١٤ م .

من أسمرا وكرن ، وبركة من جبال أغردت وخور لنقيب من أوَرّبَة وخلافه يكون الشراب جيداً . وفي إحدى السنين بلغ حوالي مائة وعشرين ألف فدان .

وأغلى سعر بيع به قنطار قطن توكر الذي يزن مائة رطل ثلاثة عشر جنيهاً مصرياً ، وكان المحصول أربعمائة ألف قنطار (سنة ١٩٥١).وفي القرن الماضي ظهر في توكر رجال في منتهى الشهامة والأخلاق الفاضلة أمثال (مع حفظ الألقاب) العمدة محمد موسى ، وموسى آدم ، محمد شَلْياباي ، وموسى حمد ، والأمير خضر بن علي ، وأخيه محمود ، وحسين عثمان سعدون ، والسيد محمد عثمان شنقراي ، وأبو آمنه محمد موسى ، وأبو علي موسى ، وطاهر كليلاي ، والسيد أحمد أونور ، وعلي عجيل جمع ، ومحمد علي كمبو ، وأحمد بدوي منصور ، ومحمد بيومي ، وعبد الله صالح الخضري ، ومحمد عبد الرحمن ، والشريف الدنقلاوي ، وحسين عبد القادر أبو زينب ، ومحمد سيد خميسي ، ومحمود نولي ، والشريف الحسن أبو الحسن ، ومحمد سعيد البخاري ، وعمر سالم باعشر ، وعوض برهوت ، ومحمد علي محمد عمر ، وعبد الله محمد زروق البكري .

فأراضي توكر أيام الإستعمار كان للمزارع او المؤجر حق المنفعة والإنتفاع بقيمة القطن دون أن تكون له ملكية الأرض كما هو العمل في مصر أيام الخديوي محمد علي باشا . وقد تغيرت في أيام سعيد باشا فصار الفلاح يزرع الأصناف التي يريدها ويبيعها بالثمن الذي يرتضيه ، وبذلك كسب الفلاح حق الملكية العقارية وملكية الحاصلات وحرية التصرف فيها وتملك ثمنها . فكانت هذه الأنظمة من أقوى الدعائم التي أنهضت الفلاح المصري من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية[1] . فنحن نطلب من الحكومة الوطنية أن تسن لنا القوانين المفيده لمزارعي توكر ، وعدم حصرنا في زراعة القطن الذي ربما استغني عنه بالاصطناعي إذ ليس لدينا ضمان من معامل لانكشير على شراء أقطاننا . ويجب على أهل القاش وتوكر أن يتنبهوا ويحتاطوا للمستقبل الحالك الظلام ويتركوا الاعتماد على الدول التي بيدها ارتفاع وهبوط الميزان الاقتصادي والزراعي . والسودان قطر زراعي ناهض يحتاج ليقظة في مضمار الحياة الاقتصادية .

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد بك رفعت .

وعلى جميع أهالي السودان في سواحل البحر الأحمر الاعتماد على الزراعة بدلا من تربية المواشي التي أظهرت قلة الأمطار عدم صلاحيتها في كل السواحل السودانية . وهذا لا يمكن عمله ما لم تساهم الحكومة مع الأهالي في عمل السدود في الأودية حتى لا تتسرب المياه إلى البحر . ولا أدري متى ستبدأ عملها لجنة إصلاح التربة التي أوعدونا بها منذ أكثر من عشر سنوات . وتنقسم توكر إلى أحواض لها أسماء خاصة فمثلاً هَرْجان ومَفْرَسْ وكِرِميْتْ ودبة سالم . . .الخ .

وفي صيف سنة ١٩٥٥ فقدت توكر مياه خور بركة وخور لنقيب لقلة الأمطار في منابع هذه الخيران ، وأصيبت توكر ومن حولها بخيبة أمل في زراعة القطن ، وتدهورت الحالة الاقتصادية واختفت النقود من السوق بسبب الكساد الذي شمل المديرية كلها .

قرأت في كتاب الزراعة في السودان ، أن أراضي توكر ملك للحكومة وتؤجر للأهالي بتسجيل سنوي . وفي الزمن السابق كانت الأراضي ملكاً لمشايخ القبائل والأعيان ويطلق عليها « ضِمن » . واستمر هذا النظام زمناً كان فيه ذا فائدة طيبة ، ولكن اليوم سنة ١٩٤٢ تغيرت الأحوال وأصبح لا يصلح لهذا العصر إذ يجب تخفيض كميات أصحاب المربعات الكثيرة وتوزيعها على المزارعين والكادحين من الوطنيين ، وجعل حد للأجانب الأثرياء الذين يريدون الشراكة بأموالهم الطائلة التي يستثمرونها في زراعة توكر .

اتسعت المساحات الزراعية منذ سنة ١٩١٦ ولا يقل المبيوع يومياً بعد فتح البورصة (السوق) عن ثمانية آلاف قنطار ابتداءً من فبراير إلى أواسط يونيه ، وبعض الأراضي الجيدة تحصد من يناير .

أما الحكومة فتتحصل على ثلاثين في المائة (٣٠ ٪) من قيمة القطن والباقي وهو سبعون في المائة (٧٠ ٪) يدفعها السمسار للمزارع لتسديد كافة المصاريف مثل اللقيط والحمالة والوزن والسمسرة الخ الخ . ويحفظ له بعض المال للمستقبل .

ونأتي هنا على إحصائية محصول القطن في عشر سنوات نقلاً عن كتاب الزراعة في السودان : جمعه المستر جيتسكيل .

السنة	الري بالفدان	الصالح للزراعة بالفدان	الساحة المزروعة بالقطن	محصول القطن بالقنطار	جملة الثمن مليم جنيه	سعر القنطار (١٠٠ رطل) مليم جنيه	متوسط محصول الفدان بالقنطار
١٩٢٦/٢٥	٣١٫٠٠٠	٢٢٫٠٠٠	١٤٫٤٠٠	٣١٫٧٤٥	٥٣٫٧٢٧	١٫٦٩٢	٢٫٢
١٩٢٧/٢٦	٣٣٫٩٠٠	٢٥٫٠٠٠	٢٠٫٠٠٠	١٠١٫١١٦	١٩٦٫٢٨٦	١٫٦٧٤	٥٫٢
١٩٢٨/٢٧	٦٠٫٠٠٠	٥٠٫٠٠٠	٤٥٫٠٠٠	١٦٨٫٣٨١	٤٣٩٫٠٨٢	٢٫٦٠٧	٣٫٧
١٩٢٩/٢٨	٧٥٫٠٠٠	٦٣٫٠٠٠	٥٠٫٠٠٠	١٤٦٫٨٠٩	٢٨٨٫٠٥١	١٫٩٦٠	٢٫٩
١٩٣٠/٢٩	١٢٥٫٠٠٠	٩٥٫٠٠٠	٤٥٫٠٠٠	١٧٦٫١٦٥	١٧٦٫٣٤٠	١٫٠٢٤	٣٫٩
١٩٣١/٣٠	١٠٠٫٠٠٠	٩٠٫٠٠٠	٦٠٫٠٠٠	٢١٦٫٧٦١	١٦٥٫١١٩	٠٫٧٦٧	٣٫٦
١٩٣٢/٣١	٨٥٫٠٠٠	٦٥٫٠٠٠	٣٨٫٠٠٠	١٦٨٫٢٣١	١١٢٫٦٧٣	٠٫٦٦٩	٤٫٤
١٩٣٣/٣٢	٩٩٫٠٠٠	٧٠٫٠٠٠	٤٤٫٠٠٠	٣٠٠٫٨٦٦	٢٢٥٫١٧٣	٠٫٧٥٤	٦٫٨
١٩٣٤/٣٣	٧٠٫٠٠٠	٥٥٫٠٠٠	٣٧٫٧٠٠	٧١٫٢٥٣	٦٤٫٢٣٢	٠٫٩٠٣	١٫٩
١٩٣٥/٣٤	٦٦٫٠٠٠	٤٣٫٠٠٠	٣١٫٦٨٠	١٤١٫٦٣٨	١٥٧٫٨٣٢	١٫١١٤	١٠٫٧

وغالبية سكان توكر من الأرتيقة الذين صمموا على إدراك قوافل العلوم والمعارف . وفتحوا خزائنهم للتبرعات بل فرضوا على أنفسهم ضرائب خاصة لتعليم كل من له قرابة أو صلة بالأرتيقة . وستلعب رابطتهم (رابطة الأرتيقة) دوراً هاماً في نيل العلوم والمعارف والاجتماع . ومن يطلع على المبالغ التي جمعوها لهذا السبيل يتحقق أن القوم جادون بل سينالون ما يبتغون في زمن وجيز إن شاء الله .

ونحن هنا ندون بمزيد الفخر والشكر أعمال لجنة مدرسة توكر الأهلية التي تقبل كل من يتقدم بطلب مساعدتها من أبناء ضواحيها . وحقيقة أنهم نبلاء أوقفوا حياتهم لخدمة العلم وعدم حرمان طلابه من ورود منهله العذب .

الشوارع :

أشهر شوارع توكر تحمل أسماء بعض الحكام والعمد والأعيان . والفضل في تخطيطها الحديث يعود لمأمورها الهمام حسين بك كامل ثم المستر كيرلوس الإسكندرلي . وللأول الفضل في تنظيمهم الزراعة . ففي توكر اليوم شارع جميل باسم أحمد ممتاز باشا . والمشايخ أكد موسى همد وأبو آمنة محمد موسى ، والتيب ، والخليفة أبو علي موسى ، والقاضي أبو فاطمة ، والسيد محمد عثمان شنقراي . وسلالات . وكنا نود أن نرى شوارع باسم الأمير خضر بن علي ، والأمير عبد الله حامد ، وموسى قويلاي ، وسيد روجان ، وحاج حسن ، وعمر تامس ، وأبو علي بلال شئيقا . [1] فإن هؤلاء الأبطال صمدوا بقلوب من حديد للقاء قنابل ورصاص المستعمر في بطاح توكر ولم يحتلوها إلا بعد أن داسوا على جماجمهم بخيلهم ورجلهم . طيب الله ثراهم في جنات الخلد .

القضاء بتوكر

كانت المحاكم الشرعية تابعة لإشراف قاضي سواكن قبل المهدية وكذلك القضاء المدني ، وأشهر قضاة توكر الشرعيين هو القاضي أبو فاطمة .

---

(١) حيث كانت الوقائع بين الأنصار وجيوش الاستعمار .

وفي سنة ١٩٢٥ أسندت القضايا المدنية والشرعية إلى أربعة من أعيان توكر ثلاثة منهم للمدنية ويرأسهم السيد محمد عثمان شنقراي . وعضوية الشيخ أبو آمنة محمد موسى والخليفة أبو علي موسى وأما الرابع فيتولى القضاء الشرعي وهو فضيلة الشيخ عثمان سليمان علي . ومن مآثر السيد شنقراي التي تكتب بمداد الفخر والتبر تحريمه إدخال الخمر إلى مدينة توكر أو السماح بفتح حانات الخمور والبغاء . ولقوة شخصيته لم يعترض المستعمر على موقفه هذا . ولما أنشىء المجلس الريفي تحت رئاسته رفض إجابة طلبات طالبي فتح الخمارات بتوكر حتى انتقل إلى جوار ربه . وبعد عام من وفاته فتحت عدة حانات بتوكر التي لم يبق فيها أحد إلا وترحم على سيادته وأيامه الزاهرة ومواقفه الباهرة في جانب الله مرضاة للشريعة السمحاء .

وفي سنة ١٩٥٣ م وافقت وزارة المعارف على فتح مدرسة وسطى أهلية بناء على رغبة الأهالي . وفي سنة ١٩٥٤ أصبحت مدرسة مزدوجة وأمها التلاميذ من كل مدارس القرى المجاورة لتوكر وسيلعب خريجو هذه المدارس في نظام توكر الزراعي والاجتماعي دورا هاماً ونحن نتمنى يقظة الشباب المتعلم فهو أحق بحمل مشعل العلم والعرفان .

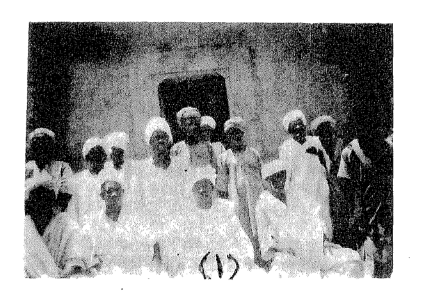
ولقد اجتمعت بجماعة من طلاب العلم بمعهد أم درمان العلمي وشجعتهم وسررت من عملهم المجيد .

مساحة توكر الزراعية

لا تقل عن نصف مليون فدان . بل إذا اتسع الري تكون أكثر من ذلك . وهي منقسمه إلى أحواض وكل حوض مساحته من اثني عشر مربعاً إلى ستة عشر مربعاً .

السماسرة

غالبيتهم من التجار القدامى الذين كانوا همزة الوصل بين المزارع ومصلحة الزراعة . ولهؤلاء السماسرة جُعْلٌ معلوم وهو ثلاثون مليماً في كل قنطار يرد إلى خانة



١ ـ الشيخ الحسن أبو الحس رئيس محكمة توكر الأهلية ٢ ـ ابنه محمد



١ ـ الشيخ كابيري محمود نولي زعيم الأرتيقة بتوكر ورئيس محكمة الدلتا

كل منهم . وكل مزارع يعرف سمساره وخانته . وعلى السمسار أن يدفع عشرة مليمات للشيالين الذين يعملون في خانته .

لقيط القطن وحمولته

كل لاقط للقطن يأخذ مليمين في كل رطل يلتقطه .

وأما جمولة القطن فهي الأردب ، وعلى حسب المسافة أي من الزراعه إلى البورصة (سوق القطن) وتسمى (الديوان)[1] . فأجرة الأردب من أقرب مسافة ثلاثة قروش ومن أبعد مسافة سبعة قروش والنقل غالباً بالجمال .

وأما الأوزان والماركة وغيرها فمسئول عنها السمسار والحكومة .

التعليم والترقية

ليس لها مبلغ معين. بل يترك ذلك لمروءة المزارع أو عند الاقتضاء . إلا عند قبيلة الأرتيقة فإنهم يفرضون على أنفسهم ضريبة للتعليم ، وسيبزون بمثل هذه الأعمال سواهم من بقية القبائل المتخلفة عن التعليم في أقليم البجة . لأن آلاف الأفدنة تدر عليهم ما يكفيهم للتعليم والصحة وغيرهما مما يحتاجون إليه كالمكاتب والمعاهد العلمية .



---

(١) مقر الحكومة .

قبائل توكر وسواكن

أشهر القبائل التي تسكن مدينة توكر هي الأرتيقة والشئياب[1] والأشراف والكميلاب والحسناب. وسنأتي على حوادثها التاريخية فيما بعد. أما بقية القبائل الكبرى فسندونها في نظاراتها وأصولها، وهي إما أن تكون تابعة لبني عامر أو الهدندوة أو الأمارأر.

والأرتيقة عموماً محبون جداً لأراضي توكر واشتهر بهذا الحب قديماً الشيخ هتيس مريقاي. واليوم له حفيد يسمى السيد عبد الله مريقاي يزاول التجارة في مدينة أغردت اشتهر بالجود والكرم. وفي نظري هو ثاني رجل في الأرتيقة اليوم يتفانى في حسن سمعة الأرتيقة. ويجود بالنفس والنفيس في استقباله لأهل سواحل البحر الأحمر. وقد لقيت منه إكراماً كثيراً. وهذا دأب هذا الرهط منذ عصور.

الأرتيقة

هم فرع من آل أبي قشير، ويسكنون بأسفل حضرموت من ذرية شمس الظهيرة الضاحية المنيرة سيدنا الإمام العلوي محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقد ولد في سنة ١٠ هـ، وتوفي سنة ٨١ هـ بالمدينة المنورة. هذا ما سمعته من محمد بك موسى واعتمدته بدلاً من سلسلة النسب التي وجدتها عند الأخ السيد محمد أحمد عواض لخطأ النقل الذي حوته واضطراب الأسماء فيها. ووجدت تأيداً لرواية محمد بك من كثيرين من الأرتيقة. ومحمد بن الحنفية هو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام وأمه خولة بنت جعفر الحنفية فهو ينسب إليها تمييزاً له من أخويه الحسن والحسين، أبناء فاطمة الزهراء ابنة المصطفى ﷺ. وكان واسع العلم ورعاً ـ اشترك مع والده في كل المواقع الحربية بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. قيل أن رسول الله ﷺ قال للإمام علي سيولد لك بعدي غلام وقد نحلته اسمي وكيلتي وممن سمي محمداً وتكنى أبا القاسم محمد بن

---

(١) توجد عموديات من هذه القبائل بالقاش وهي تابعة لنظارة الهدندوة.

أبي بكر الصديق (الذي تنتسب إليه الملهيتكناب والعجيلاب) . قيل في قوة محمد بن الحنفية أخباراً عجيبة منها أن أباه علي بن أبي طالب استطال درعاً كانت له فقال ينقص منها كذا وكذا حلقه فقبض محمد بإحدى يديه على ذيلها وبالأخرى على فضلها ثم جذبها فقطع من الموضع الذي حده أبوه . ومن أخبار قوته أن ملك الروم أرسل لمعاوية بن أبي سفيان رجلاً طويلاً وآخر قوياً فانتخب للأخير محمد بن الحنفية . فقال قولوا له إن شاء فليكن هو القائم وأنا القاعد فاختار الرومي الجلوس فأقامه محمد وعجز الرومي عن إقعاده . ثم اختار أن يكون محمد القاعد فجذبه محمد فأقعده وعجز الرومي عن إقامته .

وكانت راية أبيه يوم الجمل بيده

هاجرت جماعة من ذرية محمد بن الحنفية من أراضي حضرموت على ظهر سفينة بعد أن شحنوها بالبضائع . واشتغلوا بالتجارة بين موانىء ضفتي البحر الأحمر . في ذلك العصر وأكثر رحلاتهم كانت بين مصوع وسواكن . وتزاوجوا في أهل المدينتين وأخيراً استقر بهم المقام في سواكن ولم تخلُ مدينة من ذريتهم . فمثلاً كانت والدة جمال الدين من مصوع (بلويب) ووالدة أحمد من البجة بويكناب وتعريبها أصحاب الدماء . وسموا بذلك لشدة بأسهم وميلهم لسفك الدماء وهم اليوم أقلية بأرض بني عامر . وصاهر الأرتيقة أشراف مكة المكرمة كما ذكرنا في رحلة ابن بطوطة (سنة ٧٢٥ هـ) . كما صاهروا السيد محمد الحسني (جد أشراف سواكن سنة ٨٥٥ هـ) . والأرتيقة يدققون كثيراً في أنساب من يصاهرهم أو يصاهرونه . حتى أن السيد محمد الحسني لم يوافقوا على مصاهرته إلا بعد أن أثبت نسبه الشريف الحسيني في محكمة مكة المكرمة الشرعية وسجله بمحكمة سواكن أيضاً . ولا عتب عليهم إذ أن هذا هو دأبهم في كل مصاهراتهم .

وجاء في دائرة المعارف الإنجليزية أن الأرتيقة هم أحد القبائل الإفريقية العربية التي يقال أنها انحدرت من صلب شيخ يدعى بذلك الاسم (أرتيقة) . وتعريبها شريف أو نبيل أو أمير ويعتبرون أقدم قبيلة إسلامية هاجرت إلى مدينة سواكن . بعد لقة سكانها الأوائل . وكانوا من أتباع الإمام محمد أحمد المهدي واعتقلت جماعة منهم بمصر بعد فتح توكر ١٨٩١ م[1] .

---

(١) عثمان دقنة للمستر جاكسون.

واشتغلوا في سواكن كدأبهم بالتجارة في البحار حتى أن بعضهم كانت لهم فروع تجارية يديرها أقاربهم في مثل زيلع والحديدة ومصوع وجدة . وبعضهم صاهر رؤساء قبائل إقليم البجة كالأمرأ والهدندوه.وبني عامر ونزحوا بتجارتهم ومصاهرتهم إلى قبائل النيل . لذا تفرعت منهم عدة عائلات في كل مديريات القطر السوداني. ونحن نورد هنا أشهر هذه العائلات ، علمونياب ، كرباب (وهم بين الإمارة سابقاً وبين عمودة[1] سواكن حالياً) ، بوشاب ، نفراب ، حنيسلاب ، شئياب ، أكريماب ، سنايف ، أرياب ، قدر ، محمد سعدي ، قاسماب ، حمران ، عطوى ، إيدهن ، قولاب ، إيحهد ، دسياب ، رضواناب .

وآخر أمراء الأرتيقة كان الأمير محمود بن عثمان أرتيقة ابن محمود بن محمد بن موسى بن رحمة بن علي قرني . ابن محمد بن أحمد الملقب باسم كرب (وسمي بذلك لطوله وضخامة جسمه وهو الذي انتزع النقارة من الأمير دس) إبن الأمير عبد الله بوسن بن محمد[2] بن باصفار الحضرمي العلوي .

علمنو ياب

بعد رحيلهم إلى توكر أقاموا زمناً طويلاً فيها ، ثم قتلوا عميدهم الشيخ محمد شاور ، ثم ارتحلوا إلى خور بركة واندمجوا في بني عامر وعطوي (وهم فرع من الحمران) .

بوشاب

هم ذرية عبد الله بوسن . وقد سكن جماعة منهم حول نهر عطبرة ورأيت أكثر من مائتي شاب هناك قدموا سنة ١٩٥٥ م للسلام على السيد الهادي المهدي في مسجد السيد الحسن الحاشي .

هي عائلة الأمير جهاد أو مجاهد الذي انتزع الإمارة من البوشاب .

---

(١) لا تقل عموديات الأرتيقة عن سبعة في كل الإقليم يتولاها رجال حازمون . وهم ينتقدون عميدهم إذا تساهل في ضياع حقوقهم وربما عزلوه أو قتلوه .

(٢) قيل أنه خفير مع والده ، وسمي والده باصفار لأنه يستعمل الصفارة في ساعة فراغه .

دسياب

تزوج بنتاً من ويلعلياب الهدندوة . ورزق منها ابنه (رحمة) فلما شبَّ حدث خلاف بينه وبين والده . فقتل الابن الوالد وتولى الإمارة وانتزع النقارة وهما إلى اليوم عند الكرباب .

ولدى ابناء الأمير محمود أرتيقة سيف جيد جداً أهداه إليهم أحد ملوك الفونج مكتوب على إحدى جانبيه الآتي :

ورث الشجاعة والفطانة والأدب   بادي كنو ثم والده رجب

وعلى الجانب الاخر مكتوب :

(ما فتى إلا علي وما سيف إلا ذو الفقار)

ثم هذا الرقم في المربعات .

٢	٩	٤
٧	٥	٣
٦	١	٨

الحسناب

هم يمانيون ويتصل نسبهم بالشيخ إبراهيم بن إسماعيل بن الشيخ أحمد بن عجيل اليمني الذي كان من كبار الرجال وأهل الكرامات . قال عنه ابن بطوطة :

كرامة

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن عجيل . فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه . فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم . ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر . وكانوا يقولون « أن لا قدر وأن المكلف يخلق أفعاله » فقال لهم الشيخ فإن كان الأمر على ما تقولون

فقوموا من مكانكم هذا . فأرادوا القيام فلم يستطيعوا . فقالوا له رجعنا عن مذهبنا الفاسد . فأخذ بأيديهم وعاهدوه على الرجوع إلى الحق . فأقاموا في ضيافته ثلاثة أيام ثم انصرفوا إلى بلادهم . قال الرحالة ابن بطوطة « خرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح . وهو بقرية يقال لها (غسانة) خارج مدينة زبيد . ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافني . وزرت ضريح الشيخ وسافرت في صحبة ابنه إلى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي ، والشيخ إبراهيم هو أول من هاجر إلى سواكن وذلك في القرن الثامن للهجرة[1] حوالي سنة ١٢٠٨ م . واشتهر في الحسناب (في القرن الماضي) بالتبحر في العلوم الدينية والأصول الشرعية الشيخ محمد قمل بن المفتي ، وكانت بيده إمامة الجامع الشافعي إذ كان يتولى الإفتاء على مذهب الإمام محمد الشافعي . وكان لفضيلته مهر (ختم) نقش عليه « اللهم اغفر لعبدك محمد قمل بن المرحوم الشيخ عبد الله رشيد بن الشيخ طه بن الشيخ محمد العمري القرشي المتولي القضاء الشافعي ببندر سواكن عفى الله عنهم . ووجدت ختمه هذا في إحدى الوثائق القضائية التي وقعها ، وهي :

« الأمر كما ذكر وحرر وسطر بيد الفقير إلى الله تعالى الشيخ مخمد قمل بن المرحوم الشيخ عبد الله رشيد بن الشيخ محمد المدرس العمري القرشي المتولي قضاء بندر سواكن عفى عنه .

يا لطيف الطف
لعبدك محمد قمل
سنة ١٢٢١ هجرية

هذه حجة صحيحة شرعية مرعية يعرب مضمونها ، ويوضح مكنونها ، عن ذكر ما جرى بالمحكمة الشرعية الطاهرة ، المطهرة الشافعية بجزيرة سواكن المحمية ، لدى المتولى الحاكم الشرعي الواضع خطه ومهره الكريمين فيه أعلاه ، دام مجده وعلاه . وهو أنه أوهب وملك ومنح الجناب المكرم ملاذ الخاص والعام الناخودة[2] عبد الرحمن

(١) عثمان دقنة لجاكسون .

(٢) الناخودة هو ربان السفينة الشراعية .

إبن المرحوم محمد صديق لتابعه ياقوت جميع الأرضية والحائط الحجري المبنى في الأرضية المذكورة . يعني الدارة هبة صحيحة شرعية بايجاب وقبول من الطرفين لا شرط يفسده ولا خيار يبطله ، بل أتم هبات الإسلام . وقبل الموهب له الزناد القادح ياقوت تابع الناخودة عبد الرحمن المذكور جميع الأرضية والحايط المبني فيها قبولاً صحيحاً شرعياً التي هي بجزيرة سواكن سابقاً المشهورة بحارة الصياغين ، والآن المشتهرة بحارة عبد العال باسم ياقوت ملك الأرض التي فيها الحائط بحارة عبد العال ، وأيضاً قبض جميع الأرضية والحائط الحجري المذكور باسم ياقوت الموهب له بإذن الواهب الناخودة عبد الرحمن المذكور بعد التخلية والإخلاء المعتبرين شرعاً قبضا صحيحاً شرعيا ، وذلك بطوعهما واختيارهما ورشدهما وتكليفهما وصحتهما وسلامتهما من الموانع الشرعية . وطول الأرضية المذكورة من جهة الجاه[1] إلى جهة سهيل[2] ثلاث وعشرين ذراعاً ، ومن جهة الشرق إلى الغرب عرضها عشرة أذرع ، ومجموعها ثلاثة وثلاثون ذراعاً وللحائط المذكور الذي فيه الأرضية حدود أربع جاهياً طريق سالك ، وغربياً بيت الواهب الناخودة عبد الرحمن المذكور ، وشرقاً أرض بيت المفتي . وسهيلياً أرض الموهب له ياقوت المذكور بطريق سالك جهة الغرب ، والجدار الشرقي من الحائط ، والجاهي والسهيلي تابعين للأرض المذكورة ، والجدار الغربي تابع لبيت الواهب الناخودة عبد الرحمن المذكور بحده وحدوده وطرقه واستطرأقه وما يعرف به وينسب إليه ، فبحكم ذلك ولزومه قد صار الحائط الحجري المذكور والأرضية التي فيها ملكاً من أملاك الزناد القادح الوهاج ياقوت تابع الناخودة عبد الرحمن المذكور ، وحقاً من حقوقه يتصرف فيه كيف شاء مثل تصرف ذوي الأملاك في أملاكهم ، وذوي الحقوق في حقوقهم من غير منازع له في ذلك ولا رافع ليديه فيما هنالك . وثبت بمقتضى ذلك لدى الحاكم الشرعي المشار إليه ثبوتاً صحيحاً شرعياً ومرعياً أجازه وأمضاه وألزم العمل بمقتضاه إذ هو نافذ الحكم وماضيهما بمشيئة الله . جرى ذلك وحرر في ١٧ من شهر شعبان يوم الإثنين سنة ألف ومائتين وسبعة وعشرين من الهجرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

---

(١) النجمة القطبية الشمالية .

(٢) النجمة اليمانية جنوباً .

الثلاث شهود الحال

(١) الشيخ محمد المفتي ابن المرحوم المفتي عبد الرشيد بن طه بن الشيخ محمد المدرس .

(٢) والفقيه عبد القادر ابن الفقيه المرحوم سالم محمد صالح كاتب الحروف

(٣) وحامد ابن المرحوم علي نصر

والله خير الشاهدين .

ولنعد إلى المهاجر الأول من العمريين إلى سواكن . وهو الشيخ ابراهيم الذي اشتغل بالتجارة . وكان قليل الاختلاط بالوطنيين حتى اقتضت ظروف تحسين تجارته أن يكون من أصحاب الأملاك في بندر سواكن . فاضطر أن ينزح بأهله وأنجاله من اليمن إلى سواكن التي اتخذوها وطناً لهم . وصاهروا أهلها وأولهم الشيخ محمود بن الشيخ محمد إذ تزوج بامرأة من حضارم الأرتيقة . وصاهروا أيضاً غيرهم من السكان . وفي أوائل القرن العاشر الهجري نزح جماعة منهم إلى توكر برئاسة الشيخ حسن عبد الله رشيد للاشتغال بزراعة الدخن والذرة وتربية المواشي فنجحوا في جميع أعمالهم . وسميت قراهم باسم (حسناب) نسبة إلى الشيخ حسن المذكور . واستمر في المحافظة على نشر التعليم الديني بين من يدنون من قراه . كما حافظ على ذلك من بقي منهم بمدينة سواكن التي كان لهم فيها غرف على ساحل البحر تسمى بيوت العلماء . يزورهم فيها الحاكم في الأعياد والاحتفالات الدينية والمناسبات الاجتماعية . ولما انضموا لجيش الأمير عثمان بن أبو بكر دقنة صادرت الحكومة هذه المنازل وأعطتها لشركة تلغراف الايسترن الانجليزية .

واشتهر من الحسناب بإباء الضيم والأنفة الشيخ فقيه محمود بن علي بن محمود . إذ سافر إلى مصر سنة ١٨٨٣ م شاكياً من عميد الأرتيقة بتوكر إذ طلب منه أن يورد الجزية على يديه . فرفض واجتمع في مصر بمحمد علاء الدين باشا فمنعه من الشكوى للوزارة ووعده بأنه سيوفق بينهما . وصرف له مائتين ريال ليتزود بها . فلما عاد إلى توكر ألقى القبض عليه مأمورها بأمر من محافظ سواكن . وأرسله مسجوناً

إلى مصوع حيث أدخل السجن . وحضر علاء الدين باشا بعد شهر إلى مصوع فأمر بإطلاق صراحه . وسافر إلى كسلا . أما فقيه محمود فإنه عاد إلى توكر وجمع من الحسناب كل المطلوب للحكومة من عوائد منازل وجزية وعشور زراعة ودخولية . وحفظه في جيبه حتى جاء الأمير عثمان دقنة وأعلن الحرب الاستقلالية (المهدية) . وبايعه أخوه الأمير الخضر بن علي . فقدّم الأموال للأمير وانضم بنفسه لجيش أمير الساحل عبد الله بن حامد المحمودابي[1] .

كان علماء الحسناب كما أسلفنا يديرون نظام التدريس بالجامع الشافعي . وكان علماؤهم إذا استعصت عليهم مسألة فقهية قلدوا فيها المذهب الحنفي كأمر السلطان العثماني ومنشوراته لمتولي القضاء من عائلة فضيلة القاضي عبد القادر حسين . وممن درسوا في الجامع الشافعي القرآن والعلوم الدينية الشيخ محمد حاج موسى وآدم علي وسيدنا طه محمد محمود والأمير خضر بن علي الحسنابي وأخوه فقيه محمود . والشيخ عمر وطاهر أبناء مدني رحمة . والشيخ محمد عبد القادر أبو زينب الكميلابي . وإبراهيم رفعت محمد إدريساي . وإبراهيم علي مرزوق . والسيد محمد عثمان طاهر الحسيني . وإبراهيم محمد حمو . وخورشيد ومختار محمد خورشيد . والسيد عبد الرحمن الليثي . وحامد أحمد عناني ومحجوب محمد أمين . ومحمد جيلاني الذي درست عليه القرآن .

وفي سنة ١٨٨٤ م أمر قائد شرق السودان (محفود طاهر باشا) بإعدام كل حسنابي في سواكن . ففروا جميعهم ليلاً وعبروا البحر إلى ساحل الشيخ أبو الفتح . ومن هناك إلى توكر . واليوم عندهم قرى جنوب توكر كما لهم أراضي زراعية للقطن .

وفي زيارتي للقاش وأودي ، وقرقر ، وتوقوان ، ومامان ، وغيرها من أراضي الهدندوة النائية التقيت بكثير من الحسناب ويتزعمهم الشيخ فقيه عبد الله طاهر . وأبناء علي حسين . وأبناء حسين محمد الحاج موسى . وأبناء علي أحمد فقيه علي . ورجل التقوى والصلاح الشيخ أونور محمد الحاج موسى بِهَدَلِيَّة فقد لقيت منه إكراما

---

(١) توفي هو وفقيه محمود في واقعة التيب الثالثة ضد الجيش الإنجليزي . أما الأمير الخضر فقد استشهد في فتح توكر سنة ١٨٩١ م .

لن أنساه . ومعنا بالثغر أبناء الشيخ طه وهم محل تجلة واحترام . وفي المسلمية منهم أبناء محمود وأحمد وخضر والشيخ علي طاهر خضر . أما من بتوكر فإنهم هادئون ومسالمون[1] .

الحسناب في أيام المهدية

انضمت قبيلة الحسناب إلى أنصار الحرب الاستقلالية (المهدية) ، بقيادة زعيمها المجاهد الكبير الأمير الخضر بن علي الحسنابي ، فنزعت منهم الحكومة الاستعمارية الإمامة ، والقضاء ، وإدارة الجامع الشافعي ، وصادرت كل أملاكهم[2] في سواكن وتوكر (القديمة) . وعينت بدلا من إمامهم الخليفة الصافي (من قولاب) الأرتيقة ، وشدد الأمير الخضر الحصار على توكر سنة ١٨٨٣ م التي كانت تعج بالجيوش بقيادة ضابطها البكباشي مكاوي ، فضيق عليها الخناق ، وصادر مواشي كل من بقي في المدينة من قبائل البجة إلا الذين تسللوا وخرجوا إليه لإعلاء كلمة الحق والدين . وأرسلت لفك الحصار الجيوش تلو الجيوش ، ولكن فرق أمير الساحل (عبد الله حامد المحمودابي) أبادتها وردتها على أعقابها ، حتى سقطت المدينة في فبراير سنة ١٨٨٤ م ، ثم جاءت الجيوش الإنجليزية فأخذت معها الأجانب وعادت بهم إلى سواكن إذ خافت من هجوم مفاجىء على جيوشها . وكان الأمير الخضر أرسل في طلب النجدات من القبائل القريبة لتوكر فلبت نداءه العجيلاب والنابتاب والحباب وآل الشيخ حامد وبيت معلا وغيرهم من أهل إرتريا ، كما أسلم كثيرون من الأحباش العظام . ومن عنده وفدوا إلى الأمير عثمان دقنة مبايعين على نصرة الحق والدين .

وقد أثنى شاعر الحباب على الأمير الخضر وذكر انتصاراته ودماء أهله التي سفكت في قتال المستعمر وحصاره لتوكر في قصيدة طويلة . والحق يقال إن الأمير الخضر قاتل حتى استشهد ، وها نحن نورد هنا صورة خطاب مأمور توكر يصف فيه حالة حصار الأمير لمدينة توكر .

---

(١) يقول أهل توكر إن الجراد إذا هجم على المزارع يتجنب مزارع الحسناب ، لأن لهم دعاء عليه إذا تلوه ارتحل عنهم حالاً دون أن يمس مزارعهم .

(٢) وهذا ما فعلته مع كل من انضم لنصرة المهدي .

من توكر ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٣ م .

إلى سعادة قائد عام قوات شرق السودان بسواكن .

إنني شخصياً والضباط والجنود بغاية الصحة . وأقبل أيديكم الكريمة . خطابكم الخصوصي المؤرخ في أول ديسمبر سنة ١٨٨٣ م وصلني في الساعة التاسعة مساء في نفس اليوم . ولقد علمت كل محتوياته وفهمتها جيداً . ولو أن المساعدات التي طلبتها أولى . والآن هي المساعدات بالجنود وقد طلبتها في خطاباتي السابقة للآن لم تصل .

نعم وصلتني من سعادتك عدة جوابات . وكلها تحيات وسلام لا معنى لها . خطابك المؤرخ ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م للآن لم يصلني بل وصلني المؤرخ أول ديسمبر . والآن كل أملنا وثقتنا بالله . إذ لا ننتظر أي نجدة من أي كان . فنحن أدينا واجبنا كجنود بواسل . ولكن للأسف لا يوجد من يؤيدنا أو ينجدنا . إذا وُجدتْ أي مساعدة فإننا نقدر على اقتلاع عيون الأعداء بأصابعنا مثال ذلك نضربهم بكل سهولة إذ أنني واثق جداً من أنهم لا يقدرون على الثبات أمامنا . وكل الذي أراده الله سيكون . وكما ذكرت لكم قبل هجومهم علينا في يوم ١٥ و ٢٩ نوفمبر ١٨٨٣ م فهجموا علينا في الصباح وخسروا كثيراً ثم ارتدوا بدون نظام في يوم الجمعة ٣٠ نوفمبر . وبعد منتصف النهار استأنفوا الهجوم ثانياً بالمدافع والبنادق . وقاتلونا نصف ساعة بدون أن يتقهقروا . وقد تكبدوا خسارة في الرجال . ومنذ ذلك الحين إلى اليوم والهجوم ليلاً ونهاراً على قواتنا مستمر بدون انقطاع . وخسروا كثيراً من الرجال . وجنودنا تحت رحمة الله . منذ أربعة أيام من تاريخه (٨ ديسمبر ١٨٨٣ م) حضر إلينا أحد أبناء العربان . وأخبرنا أنه خادم إبراهيم أفندي عبد الله حاكم إحدى المواقع والنقط الحربية ومعه بنت اسمها سعيدة . وقالا إنهما حضرا من كسلا في مهمة مع الملازم عبد الفتاح أفندي وبصحبتهم ثلاثون جندياً وجماعة من الباشبزوق ومعهم رجل من الأشراف . فلما وصلوا أودي[1] هجمت عليهم قبيلة الكميلاب بأمر زعيمهم

(١) أخصب أراضي الهدندوة .

الشيخ حاج حسن . ولما رآهم الشيخ الآخر (أبو علي بلال) حمل عليهم بشدة حتى أبيدوا عن آخرهم . واستولوا على كل ممتلكاتهم وما كان معهم . وهذه المعلومات أعطيت للخادم بواسطة زوجة الحاكم . وزيادة على أخبار الولد فقد لاحظنا تحركات القبائل إلى جهات التيب[1] وتعسكر هناك . لا يمكنني أن أحدد قوتهم . وكل ما أعلمه انهم لا يقفون أمام جنودنا غير نصف ساعة . والآن أرجو منك أن ترسل لنا أي قوة تريد اسعافنا بها سريعاً . وغير مجدية أي مباحثات أو مداولات إذ أنني أنجزت كل شيء كما أوضحت لكم الحالة . ولذلك لا داعي للمراجعات وإرسال خطابات التحيات والسلامات إلينا إذا كانت النتيجة وقوعنا في يد الأعداء .

أرفق لسعادتكم مع هذا منشور من الأمير خضر بن علي الحسنابي .

وكيل المعسكر ومأمور العسكر

إبراهيم مكاوي . مأمور توكر

وقد درس أكثر أبناء جزيرة سواكن في الجامع الشافعي بعد أن سقطت البلاد تحت نير الاستعمار الثنائي .

وقد أنشئت في هذا الجامع مبان إضافية كثيرة لتكون نواة لمعهد علمي صغير في سنة (١٩٠١ م) . ولكن تهافت الأولاد على المدرسة الأميرية ثم البدء في إختيار ميناء الشيخ برغوث ثغراً للقطر السوداني حالا دون إنشائه . وفي سنة ١٩٥٧ آلت مباني مساجد سواكن إلى السقوط ولكن زارها مفتش المحاكم الشرعية منذ ستة شهور (١٩٥٨) ففتح لترميمها الاعتماد المالي وحسنت حالتها . وهذه فضيلة نسجلها لمصلحة الشرع الحنيف . وأشهر مدرسي هذا الجامع هو الشيخ محمد المفتي بن المرحوم المفتي عبد الله رشيد بن طه . والشيخ محمد المدرس والفقيه عبد القادر بن الفقيه سالم محمد صالح . والشيخ (الأمير) فقيه علي حامد القنجاري الجميلابي . وكان يدرس أبناء الأمير الخضر بن علي قبل سنة ١٣٠٠ هـ . والشيخ طه بن محمود بن الفقيه حامد بن محمد الحسنابي[2] . والشيخ مدني رحمة وابنه عمر[3] . والشيخ عوض أرتيقة .

(١) بقرب ساحل ميناء ترنكتات .

(٢) أدركت أخاه الشيخ أوكير مؤذناً للجامع وقد نيف على التسعين .

(٣) كان مأذوناً بسواكن . ومراراً ما رحل إلى كردفان في صباه مع الأمير عثمان دقنة قبل المهدية .

القنجاري الجميلابي صاحب المكتبة المشهورة التي عثرنا فيها على عدة تسجيلات بخصوص أنساب قبائل شرق السودان . وقبره ظاهر عليه اسمه في صفحة جبل أورا . وكانت لفضيلة القاضي عبد القادر حسين مكتبة غنية زاخرة بالكتب الثمينة تركهامع أحد أصدقائه العلماء . ومع ابنه الشيخ أوكير قائمة بأسماء الكتب وللآن لم تُردّ لورثتها . وكذلك كانت للشيخ محمد بن الشيخ الطاهر المجذوب مكتبة هي مضرب الأمثال صادرتها الحكومة التي عملت زاويته مستشفى للمصابين بالجدري . ومكتبة للدقناب أيضاً .

الكميلاب

هي إحدى قبائل إقليم البجة المشهورة بالشجاعة وإباء الضيم . ولا يتحملون أقل مساس بكرامتهم . ولا تمنعهم قلتهم من عدم تحمل الإساءة ممن يفوقهم عدة وعدداً . وكنت سمعت أنهم وإخوانهم الكمالاب من ذرية السيد مصعب بن الزبير بن العوام حتى اقتنيت كتاب (بحر الأنساب) أو (المشجر الكشاف لأصول السادة الأشراف) للعلامة السيد محمد بن أحمد بن عميد الدين علي الحسيني النجفي النسابة . فقد جاء في كتاب (نور الأنوار) تأليف السيد حسين محمد الرفاعي[1] . وقد رأينا أن ننقل ما يأتي : « وأما السيد محمد بن السيد يوسف وهو المتصل نسبه بسيدي جعفر الصادق . فقد توجه من فاس وقد ولد بها إلى الحج . وهو ابن السيد إبراهيم بن السيد عبد المحسن المغربي الفاسي بن السيد حسين بن السيد محمد بن السيد موسى بن السيد يحيى بن السيد عيسى بن السيد علي . التقى ابن السيد الإمام محمد المهدي ابن السيد حسن العسكري ابن السيد علي الهادي ابن السيد محمد الجوادي الإمام علي الرضا بن الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن السبط الحسين بن علي عليهما السلام . وأول من نزل بمدينة فاس حيث هاجر من المدينة المنورة هو الإمام محمد المهدي سنة ٢٧٩ هـ (مائتان وتسع وسبعين) . وقد مات بفاس سنة ٢٩٠ هـ وتزوج فيها بنت السلطان

(١) من كبار علماء الأزهر الشريف . ورئيس رابطة الأشراف الكبرى العالمية بمصر .

والسيد محمد بن السيد يوسف هذا بعد أن حج رجع إلى مصر ونزل بالبحيرة سنة ٦٣٥ هـ وتوفي بها سنة ٦٦١ هـ .

ومن أولاده السيد حمد والسيد حماد والسيد كمال والسيد كميل والسيد عيسى والسيد جهينة والسيد أحمد .

فالسيد كمال الدين والسيد كميل الدين توجها إلى السودان بعطبرة وسواكن بالسودان . وبعضهم بالطوثاب مركز إدفو ويقال لأولادهم الكمالاب والكميلاب . ولا يسعنا أمام هذه الحجج القوية والبراهين الدامغة إلا اعتماد ما قرأناه مسطراً . ورأينا بيد آل البيت الأطهار في كتبهم مدونا .

ربما لا يرتاح بعض القبائل لهذه الحقائق . ولكن ما حيلة الكاتب الذي آلى على نفسه أن يبحث عن الصواب ويدفع به الباطل حتى يتلاشى . ونحن رواد صدق لن نبغي به بديلًا . وبسبب الخلافات القبلية التي حدثت بين الكميلاب والأشراف كان يكره الشيخ محمد عبد القادر أبو زينب الفخر بشرف النسب ويقول إن الاعمال الطيبة هي الخالدة وسنذكر نبذة من حياته في النهاية .

وصارت قبيلة الكميلاب تتنقل بين نهر عطبرة والبحر الأحمر حتى نشب ذات يوم بينهم وبين بعض المكابراب بعطبرة قتال سفكت فيه الدماء ،وارتحلت قبيلة الكميلاب إلى ضواحي سواكن وأربعات التي استقر حولها ومرسى الشيخ برغوت ودرور . فمنهم ذرية عامر بن إيلَقْدْ (أبيض الرجل) الذي رزق خمسة أنجال هم . محمود وإبراهيم وهدآب وحمد وبركاب . وبنتاً تزوجها الشيخ عثمان[1] بن الشيخ عجيب المانجلوك[2] إذ رأى أخواله أن يشدوا عضدهم بمصاهرة هذه القبيلة القوية الشكيمة ضد كل من تحدثه نفسه بمناوأتهم خصوصاً البجة (السكان الأصليين) . إذ اشتركوا في قتالهم ومطاردتهم حتى اضطروهم للرحيل إلى ضواحي ما بين سواكن

---

(١) هو جد الأمارأر . أو الأتمنْ . ووالدته هي مريم بنت عشيب بن عمار وابن خالته هو محمد قول جد قولاب الأرتيقة الذي سكن في باعيداب شمال بورتسودان وسميت الميناء باسمه إذ فتح فيها محلًا تجارياً .

(٢) انظر تاريخ الأمارأر .

وتوكر . وأول رحالة تاريخي اجتمع بهم هو ابن بطوطة إذ استأجر جمالهم من ميناء درور إلى سواكن . كما وأنهم هم الذين عثروا على ابنة الشريف علوي الهاشمية التي ضلت الطريق إلى السفينة حينما هبت عليها عاصفة هوجاء وهي بمرسى الشيخ برغوت (بورتسودان) . ولم يجدوا ما يسمون به هذه العلوية الهاشمية إلا (هَدآتْ) وتعريبها (العظيمة) . ثم احتاروا فيما يفعلونه بها . وأخيراً أمرهم عميدهم بأن يذهبوا بها إلى مندوب ملك الفونج بسواكن حتى يخلوا طرفهم من المسئولية أمام الدها[١] . وأقرب الكميلاب لعائلة إيلقد هم التامساب . الذين استوطنوا وإخوانهم أبناء عبيد[٢] وأبراك وباقلاب وشملي وعطيت اللشAtetallach(عطية الله) . وهؤلاء اعتنوا بتربية الخيل وسائر المواشي وزراعة أشُأت وتوكر . واتخذ فرسانهم النهب والسلب وصيد النعام فيما بين مصوع وتوكر عملًا لهم . ولقد استفادوا من مصاهرتهم للعجيلاب (سكان السهول الواقعة بين هاتين المدينتين) . كما صاهروا الهدندوة فقويت شوكتهم بهذه المصاهرات . وصاروا في الصيف يرحلون بمواشيهم حتى القاش وعطبرة . وفي الشتاء في جهة سهول بني عامر والحباب .

وأشهر زعماء الكميلاب هو الشيخ عبد القادر أبو زينب بن آدم .[٣] الذي كان مسموع الكلمة عند محافظ سواكن (من سنة ١٨٦٥ / ١٨٧٢ م) أحمد باشا ممتاز ، الذي أثنى عليه عند سمو الخديوي إسماعيل باشا حتى أنعم عليه برتبة البكوية . ولما انتقل ممتاز باشا حكمداراً للسودان في أواخر سنة ١٨٧٢ م أوصى خلفه مونزنجر[٤] باشا بأن يوليه ناظراً على القبائل التي تسكن سهول البحر الأحمر حتى العقيق .

---

(١) هذه البنت هي التي تزوجها أحمد باركوين بن محمد هدآب جد الهدندوة وقد أوضحنا ذلك في تاريخ الهدندوة .

(٢) وعبيد اللش Obeidallach وهم بيت الرئاسة .

(٣) قيل إن علي قس = من محموداب الهدندوة قتل ابن عمه ثم استجار بالشيخ آدم بن عبد الله الكميلابي . فأجاره . ولما جاء أهل القتيل خلفه قال لهم الشيخ آدم إنني أجرته وهاكم ابني حسن فاقتلوه بقتيلكم . فحاروا في أمرهم وعقدوا عدة اجتماعات ثم جاؤوا إليه بابنه وقالوا له ادفع لنا الدية (مائة من الإبل) وخذ ابنك والمستجير بك فدفعها لهم . ورحل علي قس إلى جزيرة ابن عباس وتزوج من العجيلاب . واقتنى سفينة صار يعمل بها وأنجاله في السفر بين مصوع وسواكن ولهم اليوم ذرية في عدوبنة .

(٤) تعين حكمدارا لشرق السودان وقتله محمد حنقلي ملك الدناكل في جهة عصب سنة ١٨٧٥ م .

وامتدت سلطته ولكن اعترض عليها الشيخ موسى إبراهيم (ناظر الهدندوة) . واتسعت شقة الخلاف بينه وبين الحكمدار الجديد حتى وصل إلى مسامع الخديوي فأمر الأخير بإزالة الجفاء حالاً . فلم يسعه إلا التماس العفو من الناظر في احتفال عظيم أقيم بدار الحكومة بكسلا . ويعود الفضل لعبد القادر بك في تأمين طرق القوافل والبريد . وبعد وفاته خلفه على رئاسة الكميلاب الشيخ محمد طاهر أبو زينب (ابن أخيه) . واشتهر بالتقوى والصلاح وحب الخير والسلم مع جيرانه حتى إن الكميلاب في أيامه كانت من أقوى القبائل في الخيل والسلاح . وأغناهم في الإبل والمواشي . ونشأ في القبيلة شبان يمثلون الفتوة والشجاعة ويتلاعبون بالأسنة والرماح من على ظهور خيولهم فأرهبوا القبائل ولم تسلم من أذيتهم قبيلة حتى جيرانهم العجيلاب والأشراف . فقتلوا أربعة من إخوان الشيخ ضرار بن عجيل الذي دبر مكيدة وأخذ بثأرهم . فطلب منه ناظر الهدندوة وعميد الأشراف والأرتيقة أن يحضر إلى عدارت غرب عدوبنه لعمل

عهد وميثاق (قلد) . فحضر وتمت مراسيم المعاهدة ولكن الشيخ الأمين محمد تامس قال أنا لا أثق بكل هذا[١] ما لم يسلمنا أحد أنجاله رهينة يقيم معنا . فسلمهم أصغر أبنائه علي ضرار (جدي) . فقال له رجل من الصالحين اسمه الشيخ محمد حامد من الفقهاء . ياضرار أنت رهنته لأنه أصغر أبنائك (الثمانية) ولن تجد من يسميك منهم إلا هذا وستكون ذريته منتشرة في كل مكان . وفعلا توفي أبناء ضرار عجيل من غير أن يسموا أباهم وكان والدي ضرار هو الابن البكر لجدي علي ضرار والحمد لله إذ تمت فراسة الفقيه . وانتشر اسم الوالد في كل مكان . وفي إحدى سني الصيف سافر الكميلاب إلى غرب القاش ثم نهر عطبرة . وهناك وجدوا موسى بك وعوض الكريم بك أبو سن فأهدوا لهم أربعة خيول وثلاثة أفراس واشتروا غيرها من بربر أيضاً . وكأنهم كانوا يشعرون بأن سيكون هناك قتال في المستقبل بينهم وبين جيرانهم الأشراف . وباعوا بعض جمالهم في سواكن واشتروا بثمنها خيولاً[٢] .

وكانت روح الشر بين القبائل المتجاورة متوفرة جداً . وأول قتال بدأ كان بين

---

(١) كانت المصاهرة بين العجيلاب والكميلاب قبل القتال بأكثر من خمسين سنة .

(٢) كانت آبار العجيلاب والأشراف والكميلاب في محل واحد هو كرتوت .

الحباب وأبناء تكليس في شنقيرا . وبين الحباب وأبناء عمر النابتاب . ثم بين الحباب والرشايدة . وبين أبناء إبراهيم وعمر النابتاب . ثم بين الحباب أنفسهم في تقب . وبين الجميلاب وبني عامر عدوبنه . ثم بين الهدندوة والبشاريين . وبين الفاضلاب وحامداب الهدندوة . وبين بيت معلا والحماسين . وبين الأشراف والكميلاب . وبين أبناء تماريام ومنسع . وبين برم بلاس بلين وبهتا حقوس تيجراي . وبين أبناءها سري وبيت معلا .

قتال الأشراف والكميلاب

قبل البدء بسرد الحوادث نأتي على الأسباب . وهذه الحوادث صدرت من أناس غير مسئولين[1] . ولكن شرارتها امتدت واتسع خرقها على الراقع ونتج منها ذهاب أرواح كان الإقليم في غنى عنها .

سـنة : ١٢٩٩ هـ
١٨٨٢ م

كانت تسكن ثلاث قبائل بجوار بعضها في كرتوت قرب توكر . وهي العجيلاب والكميلاب والأشراف في غاية الراحة والطمأنينة يتردد عليهم ببضائعه تاجر اسمه أوركن بن حسين من كميلاب إيلقد له تجارة بين سواكن وجزيرة ابن عباس والعقيق . وجاءه في أحد الأيام علي قس المحمودابي . فأعطاه هوري (قارب) كبير لكي يعمل في الصدف والكوكيان . وكان لعلي ثلاثة أنجال يشتغلون معه . فسكنوا جزيرة « فاطمة » في الجنوب الشرقي من مصوع . ثم عادوا بتجارة واسعة . وقيل إنهم وجدوا لآلىء اشتروا منها أقمشة حريرية ابتاع أكثرها منهم الشيخ أوكن حسين . فخرج بها من الجزيرة ومعه عجيل بن هرفة وأبو بكر إدريس مَسْمَرة من العجيلاب حتى وصلوا جميعهم قرب قرية الأشراف . وسار العجيلابيان يمنة إلى قراهما وهو يسرة إلى قرى الكميلاب وجمله محمل بالملابس الثمينة . فأوقفه عبيد الأشراف وأخذوا منه الملابس كلها وربطوا يديه ورجليه . ثم وضعوا التراب في عينيه . وذبحوا جمله وأكلوه . ثم ضربوه حتى أغمي عليه[2] . فلما أفاق ذهب إلى أهله وذكر لهم

(١) كل الأعمال التي تتأتي من العبيد لا يهتم بها أسيادهم لأنهم معتبرون عندهم بمنزلة الحيوانات .
(٢) قيل إنه كان يحمل بندقية أطلق عليهم منها الرصاص ولكنه لم يصب أحداً .

ما أصابه من مماليك الأشراف ، واستشهد برفيقيه ، فسألهما الشيخ محمد طاهر هريزواي (عميد الكميلاب) عن حقيقة الجمل والقماش فاعترفا . ثم اقتفى الكميلاب أثر المماليك فقابلهم السيد أبو فاطمة همد (محمد) ، وسألهم عما يريدون ، فقال له محمد طاهر نريد الأقمشة التي أخذها عبيدكم من أخينا أوكسن . فأجابه السيد ليس لكم عندي أي شيء . فاستاء محمد طاهر من رده وقال له سنعود غداً للمفاوضة . ولكن عبيد الكميلاب ذهبوا في اليوم التالي إلى إبل الأشراف وضربوا العبيد ، وأخذوا جملاً وأكلوه بدلاً من جمل أوكبن حسين ، وقتلوا ثلاثة من العبيد وقتل أحد عبيد الكميلاب . فاستاء الأشراف وهجموا على الآبار حيث الكميلاب كانوا مستعدين وتراشقوا بالحجارة من بعد فأصيب السيد بن كرفوت وأغمي عليه ، وتداخل جيرانهم العجيلاب بينهما وبعد مفاوضات قرروا :

(١) إيقاف القتال حالاً.

(٢) أن يبقى حمد كرفوت مع الكميلاب لتطبيبه لحين شفائه أو موته .

(٣) أن يسلم الكميلاب آدم الأمين[1] للأشراف رهينة[2] .

فوافق الفريقان على ذلك إلا أن آدم الأمين رفض أن يسلم نفسه إلا وسلاحه معه فتطوع ابن عمه آدم بن قلود وذهب مع الأشراف على أن يقتلوه في حالة موت ابن كرفوت . الذي تحسنت صحته وسلمت حياته من الخطر .

وفي أحد الأيام توفي كميلابي بالحمى فخرج أهله لدفنه ، وبينما هم في المقابر شاهدهم أحد الأرتيقة فذهب إلى أهل أحمد كرفوت وقال لهم إن أخاكم مات ، وقد دفنه الكميلاب . فانتشر الخبر واستاء الأشراف . فقال السيد أبو فاطمة لآدم قلود اذهب إلى أهلك قبل أن تقتل . فرفض قائلاً إنني أوصيت على أني ميت فإذا صح مقتل ابن كرفوت اقتلوني ولا تذهبوا للكميلاب . فقتلوه ووضعوه في سرير بقرب منازل أهله . فأطلق الكميلاب حمد كرفوت ليخبر أهله بسلامته وأنهم أخطأوا في قتل

---

(١) أمه من العجيلاب .

(٢) قيل إنه هو الذي أصاب حمد كرفوت بالحجر وقيل بالحربة .

آدم قلود . فقالوا له إن رجلاً من الأرتيقة قال لنا بأنك دفنت . فقال لهم كذب عليكم لأن الميت هو كميلابي مات بالحمى . فاستاء السيد أبو فاطمة من مناورات الأرتيقة وقال لقد نجحوا في الإيقاع بيننا بالفتنة .

فجمع الشيخ محمد طاهر كل الكميلاب لأخذ رأيهم[1] فيما يعملونه . وبعد مداولات قال الشيخ محمد طاهر « لا تعجلوا بالشر فإننا سنجد شريفاً يوماً من الأيام ونقتله » . فأجابه آدم الأمين « إن المصائب توالت علينا من يوم ولايتك فاعتزلنا لأننا عزمنا على أن يتولى رئاستنا الشيخ وهاج (حاج) ابن حسن » . وأيده إخوانه وأبناء خالاته (آل النقيب والتامساب وآل عويل) . فقال العميد أنا سأذهب إلى الحكومة بتوكر للشكوى . فوجد بها محافظ سواكن ومصوع راشد باشا كمال والسيد أبو فاطمة ومحمد بك موسى شيخ مشايخ البيرناب (قبائل الهدندوة الرحل) . والشيخ محمد الأمين وكيل القنوب[2] . وكنتيباي حامد حسن (ناظر الحباب) . وكنتباي قلايدوس ابن أداد بن جميل (ناظر ابناتكليس عنسبه) . وكان مأمور توكر أمين أفندي قباني الذي طلب من السيد أبو فاطمة إحضار الأقمشة أو دفع ثمنها وإحضار المجرمين[3] . فتعهد بتنفيذ ذلك ولكنه أكثر من المماطلة . وعثر أوكسن حسين على أحد الأشراف في إبله ومعه مملوكه . فأطلق الكميلابي رصاصة في الهواء ثم استاق إبل الشريف . فهرب العبد ودافع السيد عن إبله حتى قتل . وانتشر الخبر بين القبائل . فهاجت الناس واضطرب حبل الأمن . وذهب السيد أبو فاطمة إلى سواكن وعاد إلى توكر ومعه تسعة من الأشراف . فقابلوا ثلاثة من أبناء الكميلاب فقتلوهم[3] . فلما سمع المأمور بذلك وضع السيد أبو فاطمة في السجن . وهرب أصحابه الثمانية . وأرسل راشد باشا من سواكن الشيخ عبد الرحمن المجذوب والخليفة الصافي[4] والخليفة عبد الله محمد نور لكي يصلحوا بين القبيلتين . وبينما هم في الصلح جاءتهم أخبار بأن الأشراف نهبوا إبل الكميلاب بعد قتل راعيها .

(١) ارتحل الأشراف إلى جهة خور بركة والعجيلاب إلى قرورة .

(٢) كلهم كانوا يجمعون الجزية ما عدا الأخيرين فإنهما طلبا أن يوردا جزيتهما بتودر وسواكن بدلاً من مصوع . ولم يعودا إلى أهليهما إلا بعد أن انتشرت المهدية .

(٣) كان مع مماليك الأشراف بعض من الدامبيلي - وهم من أتباع الأشراف .

(٣) هذه رواية محمد بك موسى .

(٤) والسيد خميس ومصطفى خروب وأحمد عاولي وأحمد الفقيه الدقنابي .

وأطلق المأمور صراح السيد أبو فاطمة . واتفقوا جميعهم على الرحيل إلى قرى الكميلاب . فاعتذر عميدهم محمد طاهر عن الذهاب لأن قومه ولوا عليهم الشيخ وهاج حسن فذهبوا إليه . فأكرمهم جداً . وتم الاتفاق على رد كل إبل منهوبة إلى أصحابها . ولم يتمكنوا من تحصيل قيمة الجمل والأقمشة . فذهب محمد بك موسى والشيخ محمد الأمين للشيخ فقيه محمود الحسنابي . فقيموا الجمل بستين ريالاً . والقماش بثمانين ريالاً . فدفع السيد أبو فاطمة القيمة وقرر المصلحون تأجيل نظر قضايا القتلى . فوافقوا على مضض لأن نفوس الفريقين كانت تميل للشر .

ثم نقل أمين أفندي المأمور من توكر .[1] وخلفه إبراهيم أفندي عبد الله (من أصل قبطي) .

وفي أحد الأيام وردت إبل السيد أبو فاطمة آبار « هارنايت » بقرب خور بركة . فشاهدها عمر عويل الكميلابي . فامتطى جواده واستاقها هي وراعيها الى قريته . وقام خلفه السيد ومعه جماعة من الأشراف خلفها فضلوا الطريق إذ وجدوا أثر إبل قايداب الهدندوة . فعلموا خطأهم . وبعد أيام شاهدوا إبلهم في قرية عمر عويل . وكان غائباً . فأخذوا إبلهم . فادعى الشيخ حاج حسن أنها إبل كميلاب واشتكى للمأمور وكان صديقاً له . فأخذ قوة من العساكر ومعه الكميلاب واقتفى أثر الأشراف الذين هربوا منه بعد مناوشات إلى خور بركة . وسافر إبراهيم أفندي المذكور إلى فلك (عاصمة الهدندوة) ثم إلى كسلا . وكانت منشورات الأمير عثمان دقنة قد انتشرت بين القبائل . ولما أراد إبراهيم أفندي العودة إلى توكر منعه عفت بك مدير كسلا . فقال له إن بيني وبين حاج حسن صداقة . فقال له لا صداقة بين الحاكم والمحكوم . وسافر بجيشه وأعيانه . فهجم عليهم أبو علي شئيقة وإخوانه . وقتلهم واستولى على الخزينة . وكانت بها جزية[2] كثيرة . وبعد عودة محمد بك موسى من مقابلة علاء

(١) إلى رواية (محمد قول) وكان بها البكباشي علي قواص الذي نقل إلى سواكن .

(٢) لم يسلم منهم إلا الشيخ موسى نولي الأرتيقي وعساكر الأمارأر وحسن صالح ورجل من الدنكا وزوجة المأمور وبنته . وقد سافروا إلى مصر عن طريق ترنكتات ـ سواكن ـ وتعين البكباشي كاظم مأموراً على توكر ثم أعيد إلى سواكن . وخلفه مكاوي أفندي .

الدين باشا في جوز رجب سنة ١٨٨٣ م وجد جماعة من الكميلاب في طريق عودته ، فقاتلوه ومنعوه من عبور نهر القاش في جهة هدلية وضربوا ابن عمه الشيخ أحمد بن ويل علي بالسيف . فلما أظلم الليل ارتحلوا من القاش . وجمع الشيخ حاج حسن زعيمهم جموعاً كثيرة لغزو الأشراف في جهة دقادقلل حيث لجأوا إلى بني عامر[١] في هوشايت . وجاء إلى محمد بك موسى عمر قولهيت Golheet من السمرأر وأخبره باستعدادات الكميلاب . فأرسل محمد بك برقية إلى دقلل علي بخيت (وكان لدى كل منهما مكتب تلغراف في عاصمته) فلك ، وهو شايت . فاستعد فرسان بني عامر للدفاع عن الأشراف ، ووقع الصراع[٢] بين الفريقين قتل فيه نفر من أشهر الكميلاب أمثال عمر عويل[٣] ، ومحمد الحاج حسن ، وقد قتل فرسه برصاصة بعد أن جلس على الأرض وافترش فروته . فأخطأ أحد فرسان بني عامر (حمد حنجير) فقتله عمداً ، وتلوثت سمعته بهذا العمل لأن العادة جرت عند الفرسان أن لا يقتلوا الفارس بعد أن ينزل من ظهر جواده . ولم يشترك في هذه الواقعة أكثر فرسان الكميلاب إذ لم يكونوا يتوقعون أن فرسان بني عامر تقتفي آثارهم وتسترد منهم بعض ما غنموه .

وفي تلك الأثناء تلقى الشيخ حاج حسن خطاباً من الأمير عثمان دقنة كي يحارب الحكومة وجنودها ، ولا يقدم لها أي مساعدة . كما تعين مصطفى علي هدال أميراً على كسلا .

ووجد الكميلاب مساعدة من ألا يبشر برئاسة الشيخ وهاج حسن الزعيم الديني للقادرية ، فأرسلوا فرسانهم إلى بني عامر ، وهنالك وجدوا إبلًا لا عداد لها وهي ملك لبني عامر والأشراف ، فنهبوها وقتلوا كل من اعترضهم حتى وصلوا بغنائمهم خور ملهاب قرب توكر ، ولكن كما أسلفنا أرسل دقلل علي بخيت خلفهم الفرسان بقيادة حمد حنجبر ومحمد أساتات ومملوكهما جوهر والسيد محمد همد أبو فاطمة ، وبعد

---

(١) كان الناظر دقلل علي بخيت بك قد أجار الأشراف من الكميلاب بعد وقائع ضواحي توكر .

(٢) نهب الكميلاب كل مواشي وممتلكات الأشراف في دقادقلل وقتلوا أربعة من رعاة الإبل ، وعادوا منصورين . ولكن سارت النجدة خلفهم .

(٣) أصيب برصاصة طائشة من أحد أقاربه .

مسيرة أسبوعين أدركوهم ليلاً ونهبوا بعض الإبل فقط وعادوا قبل الفجر . وفي الصباح استعد الكميلاب لإدراكهم ولكن جاءهم الأمير خضر بن علي الحسنابي بخطاب من الأمير عثمان دقنة إليهم وإلى الأشراف . فامتثلوا لأمره وسافر كل من الزعيمين لأخذ البيعة . وحاصر الكميلاب توكر المحصورة . فأمر مكاوي بك قمندان الحامية ومأمور المدينة بذبح الإبل المنهوبة[1] وتوزيع لحومها على الجيش والأهالي .

الكمالاب

هم كما أسلفنا إخوان الكميلاب وقد انضموا إلى نظارة البشاريين وكان يحدث لهم كل ما حدث لجيرانهم ويسكنون على ضفاف نهر أتبرة ولهم رغبة في الزراعة وتربية المواشي .

الأشراف

روى السيد محمد عثمان شنقراي . أن أول من نزح من مكة المكرمة إلى سواكن هو جدهم المدعو الشريف محمد بن الحسين بن علي بن الحسين بن محمود بن علي بن منيف بن مالك بن منيف بن شيخة بن حسين بن علي بن حسين بن محمد بن عبد الرحمن بن حسين بن علي بن أحمد بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فوجد في سواكن قبائل كثيرة ومتنوعة أشهرها الأرتيقة والحسناب والبلويب . فأقام بينهم ردحاً من الزمن يزاول تِجارته بين الحجاز وسواكن . وفي إحدى السنين طلب مصاهرة الأمير سِنايف وكان الأمير عبد الله بوش على قيد الحياة . فعقد الأرتيقة مجلساً اتفقوا فيه على قبول المصاهرة . ثم انتدبوا وفدا من أهل سواكن للسفر مع الشريف محمد إلى مكة المكرمة للتحقيق في صدق نسبه الطالبي . فوافقهم السيد محمد وسافروا جميعاً حتى بلغوا مكة المكرمة فنزلوا بدار ابن عمه . ولقوا منه كل إكرام . وبعد أيام استنسخوا من خازن أنساب الأشراف بالحرم المكي

(١) كان يذبح يومياً ثلاثة من الإبل .

سلسلة نسب الشريف محمد وذلك في عشرة ذي الحجة سنة ٩٤١ هـ (١٤٥١ م) . وشهد على صحتها وضبط أسمائها الشهود المذكورون وهم حسين سُنْبُل بن العلوي . والشريف محمد بن علي البغدادي . والفقيه محمود بن حسين المدرس ببندر سواكن . والفقيه علي بشار الحافظ . والفقيه عبد القادر بن قاسم العباسي الشافعي . والفقيه أبو بكر قاسم العباسي الشافعي . والفقيه دقّاق الإمام . والفقيه منقول بن شيخ الإمام . والفقيه

أحمد أبو بكر الإمام . والفقيه ياقوت مولى الأمير الإمام . والفقيه علي جعلا . والفقيه أحمد بن قاسم العباسي الشافعي . والفقيه أبو علي الإمام . والفقيه محمود بن جوهر . والفقيه مسلم السواكني . والأمير عمر بن دس الحدربي والشيخ علي شاطر بن محمد سنًايف الحدربي . ومحمد بن الأمير الحدربي . والخواجة محمد بن موسى الحِدربي . وعبد الله بن الأمير دس الحِدربي . ومحمود بن موسى الحدربي . والشيخ سمرة بن دس الحدربي . وموسى روشان الحدربي . وعبد القادر بن بلوية الحدربي ومحمود بن عمر بلوية الحدربي . وعبد القادر بن محمود دبلوب الحدربي . وعمر بن شوال السواكني . والخواجة دكين . ومحمود نزيل باشا بن حبيب الله الحمال . ومسعدون السواكني . وأحمد بن سنايف . وعبد الغفار بن شوال السواكني . ومحمود بن عمر . وقد روجعت هذه السلسلة مرات عديدة في فترات مختلفة من السنين كانت أولاها في سنة ٩٤١ هـ . والثانية في سنة ٩٥٥ هـ والثالثة في سنة ١٢٤٣ هـ . والأخيرة وهي التي شاهدتها ونقلت منها في سنة ١٣٢٥ هـ . وكانت لدى السيد الصافي بن فقيه عمر بن عثمان بن فقيه عمر بن عثمان بن أحمد بن أبو القاسم بن عبد الله بن الشريف محمد . ثم عاد الشريف محمد مع الوفد . واقترن بابنة الأرتيقة ورزق منها أربعة أولاد هم أبو بكر (جد عائلة أبكراب) . وتسكن ذريته سواكن وقليل منهم بخور بركة . والثانية عبد الله حبر عائلة عبد اللياب ويسكنون سواكن وخور بركة . وهم أكثرية الأشراف وله من الأولاد محمد وحيدر وأحمد .[1] ومن بنت مسمار رزق أيضاً أبو القاسم وحسين الذي لا تزال ذريته تتولى نقابة الأشراف بسواكن . ولًى لم يعقب . والرابع هو يونس (جد اليونساب) . والخامسة بنت تزوجها ابن عمه الذي

(١) ذريته هم الذين يتولون النظارة والعمودية إلى اليوم وهم أكثر الأشراف وأصحاب الشوكة .

حضر من مكة المكرمة ويقال لذريتها السَّيّداب وقد اندمجوا في بني عمومتهم الأشراف .

بعد تكاثر نسل الأشراف خرجوا من سواكن إلى توكر وضواحيها . إذ صاروا يعتنون بالزراعة وتربية المواشي . وصاروا يحاورون سائر قبائل إقليم البجة . ويسالمون بعضها ويختلفون مع البعْض الآخر وهذا دأب كل قبيلة مجاورة للأخرى في المراعي والمناهل والزراعة . واستطاب الأشراف الإقامة حول ضفاف خور بركة الذي يروي أراضي توكر .

قتال الأشراف والنابتاب

حوالي سنة ١٨٤٦ م أرسل العمدة أبو سعد بن هُمَّدْ بن هاسري عصابة[١] إلى جهات توكر كي تنهب كل المواشي التي تلقاها في طريقها . فوجدت العصابة ثمانية قطعان من أبقار الأشراف ترعى في سهول جبل تَقْدَرة[٢] . وكان الرعاة من خدم الأشراف هربوا جميعهم عند أول المصادمة . إلا عبد واحد هوللشريف أبو فاطمة علي تيته فقد أظهر شجاعة وبسالة فائقتين وحال بين العصابة والبقر . فأدرك منه أحد[٣] أفراد العصابة غفلة ورماه بحربة اخترقت أذنه اليمنى وخرجت من اليسرى . فوقع على الأرض يتخبط في دمه . ونهبت العصابة نحو ثلث المراحات وعلى رأسها أبقار الشريف المسماة (قريبْ)[٤] فقسم الشيخ أبو سعد (كانت له سلطة على كل القبائل التي تسكن شرق جبل هَجَر وما جاوره حَتى نهاية الجبال المجاورة للسواحل وهي الحد الفاصل بين الأفلندة وهاسري) البقر بين العصابة . وفي اليوم الثالث سمع الشريف أبو فاطمة بما أصاب مواشيه فاستاء . وسافر إلى كسلا في سنة ١٨٤٧ م ورفع شكواه إلى مديرها فرحات بك . وهذا أصدر أوامره إلى البكباشي إلياس بك قومندان

(١) مؤلفة من مائة مقاتل يقودهم همد فكاك بَلْوَايْ وهاسري بن أكُدْ هُمَّدْ على جواديهما .

(٢) بقرب كَلُوتي .

(٣) هو حماد بن دَوّار من شجعان قبيلة أللوت أفلندة .

(٤) يقال أن سباريت بقرة كنتيباي حباب هي من نسل هذه البقرة وقد أهداها هي وبنتها إليه الأشراف لما نزل بديارهم ضيفاً ولا تزال محترمة لدى الحباب .

الجهادية الذي أخضع دقه دقْلَلْ (عموم قبائل بني عامر بالصعيد) وأخذ معه خبيراً بالطرق والقبائل التي تسكن القنوب (سواحل البحر الأحمر) . فوقع الاختيار على سليمان بك علي طالب من ويلعلياب الهدندوة ـ أدركت ابنة الشيخ محمد طاهر سليمان ورويت عنه ـ فقاد الجيش متتبعاً مجرى خور بركة . ففرت القبائل من وجهه والتجأ الهدندوة إلى جبل أُورِّبا أو ـ إونْ رِبا ـ وتعريبها الجبل العظيم ، وفر سكان توكر إلى سواكن ورحل الأشراف إلى شِعْبَتْ (سِبَتْ) ، ورحل الكميلاب والنابتاب الذين كانوا سبباً لهذه الفتنة إلى جبال عَيَتْ وبقيت الأفلندة بقرب جبل عَيْتَرْبَة يحرسها شيك بن عجيل[1] ، وهم الذين رفضوا الهروب وبقوا في مكانهم . وعلى بعد عشرة أميال منهم كانت بقية الأفلندة بعميدها الشيخ ضرار بن عجيل في قرورة . وشرق جبل عيتربة كانت قرى الحسناب الذين نصحهم الشيخ أبو زينب بن هرنرواي (زعيم الكميلاب) بأن الوقوف أمام الجيوش ليس من الشجاعة فيجب عليهم الرحيل ولو بالنساء والأطفال . فلم يكترثوا لكلامه . ولم تمض أيام إلا وقد هجم الجيش عليهم ذات صباح وبرز شيك لإلياس بك بعد أن قتل ياوراه وفرسه . فنزل إلياس بعد موت فرسه وأطلق من مسدسه عدة رصاصات على شيك فأودت بحياته . فلما سقط شيك قال الشريف « اليوم انتقمنا لأبقارنا قِرِيبْ Gereib » . وأمر إلياس بك باعتبار الأهالي وأموال القبيلتين غنائم حربية .[2] فاستاقوا الجميع وقفلوا راجعين . فأدركهم في توكر الشيخ الأمين محمد تامس الكميلابي وصهر الشيخ ضرار عجيل . وطلب من إلياس أن يعفو عن القبائل والأهالي ويردهم إلى أهلهم بمواشيهم . فرفض إعادة المواشي . فعاد الشيخ الأمين بالأهالي وسلمهم إلى زعيمهم . وبسبب الغزوة توثقت عرى الصداقة بين الشريف محمد وإلياس بك . وطارت إشاعة بأن الأخير سامح الأول الجزية لشرفه الطالبي . فسمعتها كل القبائل حتى إلياس بك فطالبه بالجزية ولكنه اعتذر ورحل بقبيلته من وجه الحكومة ولم تنقطع عنه المطالبة . وحذا حذوه بعض عمد القبائل . فازداد المدير استياء وطلب من موسى بك إبراهيم (ناظر

---

(١) والدته من أَلْلوتْ الشرفاء .

(٢) هذا كان دأبه في كل غزواته للقبائل خصوصاً البلين وباريا وماريا فذاقوا منه الأمرين . أقرأ بعض غزواته في تاريخ البلين في كتاب ملخص تاريخ إرتريا والصومال للمؤلف (تحت الطبع) .

الهدندوة) تحصيل جزية ثلاث سنوات من الشريف . فاعتذر موسى بك ، وأحاله إلى الشيخ موسى علي طالب زعيم عموم قبائل البيرناب وهو يقيم في اللكوييب . فأرسل إلياس بك في طلبه فلما حضر طلب منه أن يدله على منازل الأشراف ومعه بعض العساكر وقصد خور بركة ، فسمعوا بما عزم عليه المدير فرحلوا من وجهه ، وتعقب هو آثارهم وموسى يتعقبهم في حلهم وترحالهم حتى وصلوا ضواحي توكر ، وهنالك اندمجوا في الأرتيقة . واتفق موسى مع إلياس على إطلاق النيران على كل القرى ولم تسلم من أذيتهم القرى والقبائل .

قتال الأشراف والكميلاب

في سنة ١٨٨٣ م نشب خلاف بين السادة الأشراف والكميلاب تجده موضحاً تحت اسم القبيلة الأخيرة (الكميلاب) . وكنا نحن نحب أن لا نذكر هذه الحوادث ولكن الأمانة التاريخية تتطلب منا أن لا نخفي شيئاً مما سمعناه أو عرفناه أو قرأناه عن كل قبائل أقليم البجة . ويعلم الله أننا أبعد الناس عن الأغراض أو الملق الرخيص ، ومن يقرأ ما كتبنا عن أهلنا وعشيرتنا الملهيتكناب والعجيلاب والأفلندة يحكم على عدم تحيزنا لأهلنا . ولسنا بسبابين حتى نمس كرامة أحد مع أننا والحمد لله في منعة وعزة رهط ، وإذا حدث أن أخطأنا في رواية فالصواب ما يراه شيوخ القبيلة التي تكون الكتابة بصددها . وتجمعنا بالأشراف صلة نسب أقاربنا وأبناء عمومتنا آل الفقيه موسى بن الفقيه الحسن الملهيتكنابي . هذا بخلاف قرابة جدنا محمد بن أبي بكر الصديق والحسين بن علي بن أبي طالب فقد تزوجا أختين هما بنات الملك كسرى يزدجرد فكان للأول منها القاسم ، والثاني علي زين العابدين الذي تزوج بفروة بنت محمد بن أبي بكر .

وأما الكميلاب فهم أبناء بنات جدنا ضرار بن عجيل ونصر الدين بن عجيل وغيرهما . وتناسل أخيراً بعضهم في بنات عمومتنا .

فالقبيلتان هما يدنا اليمنى واليسرى ، وعموم قبائل شرق السودان تحترم هؤلاء السادة الأشراف من ذرية أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه .

الأشراف في المهدية

بايعت هذه القبيلة الأمير عثمان أبو بكر دقنة الذي أصلح بين زعيمها الشريف محمد همد أبو فاطمة وزعيم الكميلاب الشيخ وهاج حسن . فأمرهما بالتجنيد العام فامتثل الثاني واشترك في كل الوقائع تقريباً . أما الأول فلم يجند أحداً من الأشراف إلا أقلية من شبابهم رأى أن قرابتها وصلة رحمها بالدقناب (رهط الأمير) تقتضي أن تشترك في القتال . وفي سنة ١٨٨٨ م حضر السيد محمد عثمان تاج السر على ظهر الباخرة الخديوية جعفرية التي رست في ميناء العقيق . فجاء إليهم الشريف محمد همد واستلم من قبطان الباخرة خمسة من أجود الخيل ومائة بندقية وكميات وافرة من الرصاص وبعض بالات من الملابس . وكذلك شوالات كبيرة من الأرز نحو مائة عدة (قوصرة) من العجوة . واشترط عليه أن يقاتل الأمير عثمان دقنة[1] وأن لا يؤيد الأنصار . فقبل الشريف ورحل بقبيلته وأمواله إلى خور بركة . فسمع الأمير بكل ما أتاه الشريف . فأرسل في طلبه . فلما حضر أمره بانتداب أحد أقاربه كي يحضر كل ما استلمه من قبطان الوابور جعفرية . فامتثل وصودر المال جميعه وضم إلى مال بيت المسلمين وقرر الأمير إرسال الشريف محمد إلى الخليفة عبد الله بالبقعة المباركة وسافر معه أونور همد كرشوت[2] ورجل آخر . فلما وصلوا أم درمان دعا الخليفة الشريف محمد همد للسلام عليه وبقي في حضرته طيلة نهاره وليله . وفي صباح اليوم التالي سأل أونور الحجاب عن الشريف محمد فأجابوه بأنه ملازم للخليفة وبعد مضي ثلاثة أيام أخبروا أونور بأن الشريف أصيب بالجدري . ولم يمض أسبوع على مرضه حتى دعا الخليفة عبد الله السيد أونور إلى مجلسه هو وصاحبه وقال لهما بمزيد من الأسف أخبركما أن الشريف محمد همد انتقل إلى جوار ربه بمرض الجدري . ثم أمرهما بالعودة وإخبار الأمير عثمان دقنة بالوفاة . فلما سمع الأمير ذلك أرسل في

---

(١) كان الأمير في ذلك الوقت بكسلا .

(٢) هذه رواية عمي همد نور الذي كان مرهوناً لدى الأنصار في توكر .

طلب أخيه الشريف أبو فاطمة همد وحضر على جواده وضمه إلى ألوية الفرسان بهندوب. واختار أن يكون مع لواء الأمير محمد فاي بن علي بك دقنة الذي استشهد أمام بوابة الأنصاري بسواكن بعد أن قتل الكولونيل الإنجليزي بضربة من سيفه شقه بها إلى نصفين ولسان حاله يقول :

بضربة فيصل تركتـه شـفعاً   يداي وقبلها قـد كان وتـرا

أما الكولونيل فقد أطلق على محمد فاي رصاص مسدسه ، وحمله من حومة الوغى الشريف أبو فاطمة والسيد حاج يعقوب بن الشيخ محمد بن علي . ثم استأذن الشريف من الأمير أن يسمح له كي يرحل قبيلته إلى توكر بعد أن يلم شعثها ، فأذن له بذلك ، فجمعها وسكن بها حول وادي عين بقرب جبل تقدره . وفي أحد أيام سنة ١٨٨٩ م عاد إليه بعض عبيده بإبل كثيرة نهبوها من نابتاب هاسري من جهة حلايب بقرب عدوبنة فارتحل الشريف بقبيلته إلى خور بركة ومنه إلى خور عنسبة ومنه إلى وادي شعب[1] شمال مصوع ، ومن هنالك سافر الشريف بنفسه إلى الحجاز لتأدية الفريضة . وبعد ادائها اختاره الله لجواره فتوفي بمكة المكرمة . فخلفه على رئاسة القبيلة الشريف همد بن محمد (ابن أخيه) وكان مشهوراً بالتقوى والصلاح . فارتحلنا جميعاً من شعب ورجعنا لعقيتاي[2] أما الأشراف فذهبوا إلى خور بركة بقرب أغردت واستحسن الشريف همد الإقامة بها حتى توفي سنة ١٩٢٩ م فخلفه الشريف أبو فاطمة محمد .

واشتهر من الأشراف بالتبحر في العلوم السيد أوكش . ولما احتلت إيطاليا أرتريا أصبحت أكثر القبائل منقسمة بين السودان وأرتريا فكان رئيس الأشراف بالسودان السيد محمد همد أوتكول ، وبأرتريا عميدهم السيد أبو فاطمة همد أبو فاطمة . ولهم بالقاش عمدة اسمه الشريف محمد شريف أدروب ، ومن زعمائهم الشريف محمد مصطفى أوكش . وممن نالوا قسطاً وافراً في الدين والاجتماع آل القاضي عبد القادر حسين وآل السيد محمد عثمان شنقراي وإخوانه وذووهم .

---

(١) كانوا مجاورين لنا في تلك الأنحاء .

(٢) موطن قبيلة المؤلف .

هذه القبيلة وأفرادها أبعد الناس من غزو غيرهم ، ولم يحدث منهم في كل تاريخهم أي عمل سيىء . ويتجنبون المحاكم وخلق المشاكل فهم دائماً مدافعون عن حقوقهم ، ولا يحتكمون إلا إلى الشرع الحنيف ، وربما تنازلوا عن حقوقهم الكثيرة إذا خوطبوا واعتذر لهم . فهم الحقيقة آل البيت ولن تجد خصلة الحقد إليهم سبيلاً .

فمنهم السيد محمد عثمان شنقراي كان رئيساً لمحكمة توكر الأهلية منذ سنة ١٩٢٨ م كما كان رئيساً لمجلسها الريفي . كما كان ابنه السيد حسين عميداً لمدينة توكر . ومن أعضاء هذه المحكمة الشيخ أبو آمنة محمد موسى زعيم الأرتيقة والخليفة أبو علي موسى محمد زعيم عيشاب ويلعلياب الهدندوة ووكيل ناظرها بتوكر . والأشراف عموماً يحبون التعليم الديني والاشتغال بالتجارة والزراعة . ولكن السيد محمد عثمان شنقراي استمع لنصيحة الأستاذ عبد القادر أوكير القاضي فأدخل كل أبنائه المدارس واقتفى أثره سائر الأشراف . ومن أبرز أبناء الأشراف الذين تخرجوا من مدرسة سواكن الابتدائية سنة ١٨٩٨ السيد محمد عثمان بن طاهر والتحق بخدمة الحكومة . ولما أحيل إلى المعاش انقطع لدراسة التفسير والحديث والفقه . وأهدى مئات من كتبه المجلدة لأكثر المعاهد العلمية بالسودان . وله إخوان وأقارب أتموا دراساتهم أمثال عبد الرحمن أحمد وأونور وعلي طاهر .

وكنت كثيراً ما أتردد على السيد أدروب نقيب الأشراف بسواكن ، ووجدت عنده كتاب (شمس المعارف ولطائف العوارف) خط يد أهداه أحمد ممتاز باشا (محافظ سواكن) لجده النقيب ، ولا أدري كم عاماً استغرق تنبيض هذا الكتاب الضخم ولا شك أنه نقل من نسخة خطية .

وسمو الخديوي إسماعيل باشا كان يحترم هذا الرهط وقد أنعم في سنة ١٨٧٨ م على السيد محمد أبو فاطمة بالرتبة الرابعة تقديراً لولاء والده الشريف أبو فاطمة واحتفاظه بالأمن .



المجاذيب

ولد الشيخ محمد المجذوب بمدينة المتمة سنة ١٢١٠ هـ وتوفي سنة ١٢٤٧ هـ بمدينة الدامر (عاصمة المديرية الشمالية) . ويوجد كتاب كبير عن تاريخ المجاذيب . وفي طبقات ود ضيف الله الكفاية .

وتوجد ذرية طيبة اليوم من المجاذيب بالدامر وبين ضفتي نهر أتبرة والقاش وأركويت وتوكر ، وكذلك الدقناب[١] . والشيخ محمد المجذوب جاور الرسول ﷺ تسع سنوات عاد بعدها إلى سواكن سنة ١٢٤٤ هـ . قال الأستاذ عبيد عبد النور[٢] « أما الشيخ الطاهر المجذوب فهو من مجاذيب الدامر . وبما أن هذه العائلة الدينية قد امتازت بصفات التضحية في سنبيل الدين والاعتماد على نفسها في حياتها المادية ، وبما أنها قد لعبت دوراً هاماً في نشر الدين بشرق السودان[٣] وفي مساندة المهدي فنريد أن نعطيها عناية خاصة . كان الاتفاق تاماً بين الشيخ الطاهر وتلميذه الأمير عثمان دقنة ، فأوجدت هذه العلاقة روح ثقة وتفاهم كان لها أثر فعال في نجاح أمر الإمام المهدي في شرق السودان ، فقد تضافرت الزعامة الروحية والسياسية على إبادة المستعمر لوجه الله . وقد استشهد كثيرون من المجاذيب في خروب المهدية » . إلى أن يقول « بل هم عون لمريديهم في أوقات الشدة يعطونهم القوة الروحية والمادية أيضاً » . وتتمتع هذه العائلة باحترام عظيم ولا تزال محافظة على ولائها للمهدية ولآل المهدي .

الشيخ محمد الطاهر المجذوب :

هو الشيخ محمد الطاهر بن الشيخ الطيب بن الشيخ قمر الدين المجذوب ولد بالمتمه حيث كانت والدته من جعليي ، تلك المدينة فلما توفي عمه الشيخ محمد المجذوب خلا المركز الديني (طريقة المجاذيب الشاذلية) بسواكن فسافر إلى الدامر

---

(١) أسس زاوية للذكر والدرس .

(٢) في كتابه (الثائر الأول) .

(٣) يقصد الطائفة الشاذلية لأنهم مسلمون متعصبون منذ فجر التاريخ الإسلامي .

سعادة علي بك دقنة (ابن عم الأمير عثمان دقنة) والشيخ يسن عبد القادر سالم السيد الرضواني لإحضار الشيخ الطاهر إلى سواكن. واعترضتهم عدة عقبات، ولكنهم ذللوها إذ لم يوافق بعض المجاذيب على ترحيل الشيخ الطاهر. فعاد الوفد وهو معهم إلى سواكن، وأتم الشيخ الطاهر دراسته على يد الشيخ يسن، ثم أخذ عليه عهد الطريقة الشاذلية. وأصبح خليفة لعمه في عموم شرق السودان. فكان من تلاميذه الأمير عثمان دقنة وكبار أهل سواكن وأعيانها وعموم قبائل الهدندوه تقريباً. ثم تزوج الشيخ الطاهر بابنة الشيخ أبو بكر بن الفقيه يوسف (أحد علماء سواكن الأعلام من قبيلة الأرتيقة وهي حفيدة الشيخ محمد المجذوب).

ولما أعلن الإمام المهدي الجهاد كان الشيخ الطاهر أول من بايع الأمير عثمان في قباب باركويت، فكانت باعثاً لانضواء الهدندوة تحت لواء الأمير المذكور. وناصر الشيخ الطاهر المهدية وحافظ على عهده الذي بايع عليه الأمير سنة ١٨٨٣ م حتى كانت سنة ١٨٩٠ [١] إذ انتقل إلى جوار ربه فيها بمدينة توكر رحمة الله عليه.

ثم خلفه على الزعامة الدينية ابنه مولانا الأستاذ العالم العلامة الشيخ محمد (أوشيك) ابن الشيخ الطاهر المجذوب، وقد صادرت الحكومة التركية جميع أملاك المجاذيب والدقناب وكل من ناصر الإمام المهدي، ووزعت هذه الأملاك على المتوددين، ولم تترك إلا الزاوية، لأنها كانت من بيوت الله، وحتى هذه عملوها مستشفى فانتشر في مرضاها داء الجدري فأخلاها المرضى.

وللشيخ محمد الطاهر المجذوب عدة قصائد في الشهامة والشجاعة ووصف متين للمواقع الحربية، كما أن له مراثي غاية في الإبداع. وله مؤلفات كثيرة مطبوعة ومحفوظة لدى أبنائه بالدامر.

وللشيخ محمد المجذوب ديوان شعر كبير في مدح المصطفى ﷺ (طبع بمصر).

وكذلك للشيخ محمد بن السيد الطاهر المجذوب قصائد في وصف المعارك الحربية ضد المستعمر خصوصاً واقعة (تأماي) وأولها:

---

(١) الموافق ٢٤ رمضان سنة ١٣٠٠ (٢٩ يوليه).

أذكرتَ حيَ سـعاد والعمّـارا وطفقت تندب بعـده الآثـارا

وكذلك وصف واقعة هندوب التي جرح فيها كتشنر باشا وانهزم جيشه وأولها :

هنـدوب تعرف صبرنـا كيف ارتكبنـا للمصائـب
يا طالما صدنـا بهـا صيـد الغضنفر للثعالـب

وله مرثية للإمام المهدي لم نحصل عليها برمتها أولها :

دهتنـا دواهٍ يضرس القلـب نابهـا ويوقـد في الأحشـاء ناراً منابهـا
غـداة نعى الناعون نـور الوجـود من بـه ملّـة الإسـلام جـل مصابهـا
إمام الهـدى المهـدي أفضل من دعـا إلى الله مفتـاح النجـاة وبابهـا

ولفضيلة مولانا الشيخ محمد عمر البناء قصائد في وصف معارك سواحل البحر الأحمر ومدح للشيخ الطاهر والأمير عثمان دقنة .

وتوفي الشيخ محمد الطاهر بحمري سنة ١٩٢٩ . ولم يشترك في واقعة الجديد التي استشهد فيها الخليفة وأمراؤه سنة ١٨٩٩ م . إذ لسعته حية كبيرة فاضطرته بأن يبقى مع العائلات في حراسة الأمير عثمان دقنة إذ كان مكلفاً برقابتها . فجاءهم الشيخ عبد الرحمن[١] (أخوه) وأخبرهم بانتهاء المقاومة . فقال لهم الأمير عثمان دقنة ابتعدوا عن القبائل وسيروا بجوار الجنود واعبروا من الدويم ثم إلى الحصاحيصا ورفاعه . فامتثلوا واستقروا في حمري . وإذا بالأمير يصلهم بعد ستة شهور[٢] ولا يدري أحد من أي طريق وصل إلى رفاعة عند السيد الطيب السواكني ومنه إلى حمري القوز .



(١) كان معه نحو ثلاثين من الهدندوه ...

(٢) يوم ٢٤ نوفمبر .

مُحافظو سَواكِن

مِنْ سَنَةِ ١٨٦٥م إلى سَنَةِ ١٨٨٥م

نأتي هنا على أسماء وتاريخ محافظي سواكن منذ ضمها إلى القطر السوداني (١٨٦٥ م) في عهد الخديوي إسماعيل باشا نقلاً عن عدة مؤلفات ومذكرات . وأولهم :

أحمد باشا ممتاز

اشتهر بين أهل سواكن بالشدة والقسوة . كما اشتهر بإدخال زراعة القطن[١] إلى توكر . واستعان على ذلك بإسماعيل أيوب باشا . وأرسل أدوات حلج القطن إلى توكر بحراً عن طريق ترنكتات . ويقال إنهما كانا يريدان أن ينزعا الأراضي من أهلها[٢] بعد إقامة المحلج وبنائه . وجلبا بعضاً من المزارعين من مصر لإرشاد الأهالي إلى الطرق الزراعية . وكان يحضر بذرة القطن الأشموني من مصر . وكان حلج القطن بسواكن حتى كانت ١٨٨٣ م فسقطت توكر بيد الأمير عثمان دقنه . فأمر بزراعة الذرة والدخن الذي لم تستأنف زراعته جيداً إلا بعد سنة ١٩٠٠ م .

كان أهل سواكن يلاقون مشاقاً وصعاباً كثيرة في الحصول على مياه الشرب العذبة منذ عدة قرون . فجاء الشيخ عجيب المانجلوك بن عبد الله جماع حوالي سنة ٩٦٧ هـ / ١٥٦٠ م قاصداً الحجاز . فعلم ماعليه أهل سواكن من قلة المياه . فأمر بحفر آبار الفولة الحالية ولكنّ ماءها كان مالحاً . حتى جاء ممتاز باشا فعرض على مسامع سمو الخديوي إسماعيل باشا إنشاء سكة حديد تصل البحر الأحمر بالنيل .فانتدبت في سنة ١٨٦٦ م لجنة لبحث هذا المشروع برئاسة إسماعيل باشا

---

(١) هو شركسي الأصل درس الهندسة في ألمانيا وجاء إلى سواكن تاجراً للأخشاب ثم مأموراً لمصلحة الأشغال حتى كانت سنة ١٨٦٥ م فعين محافظاً عليها .

(٢) تاريخ المستر أوغسطوس وايلد .

الفلكي[1] ناظر المهندسخانة والرصدخانة . فجاءت اللجنة إلى سواكن في شهر رمضان المعظم منذ ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م مؤلفة من مهندسين ورسامين لتعيين الطرق الحديدية المزمع إنشاؤها بالأقاليم السودانية . وتباحث مع أعضاء اللجنة في طريقة جلب المياه العذبة إلى سواكن . فقر قرارهم على انشاء الجسر الحالي المقام بالشاطىء لحجز مياه السيول المنحدرة من جبال أركويت . فكان المحافظ يجمع العمال بالقوة ويسمونها (سُخْرة) ، ثم بدأ في حفر القناة من عند التمينيب على بعد ثمانية عشر ميلاً من سواكن . وكان يشرف معه على عمله هذا عمدة سواكن جيلاني بك عثمان أرتيقة والشيخ عبد القادر أبو زينب الكميلابي ، ومراراً ما حاولا أن يقنعاه بالعدول عن العمل بالسخرة ، فلم يسمع لهما . وكثر عدد الموتى بالردم لأن القناة كانت عميقة جداً في أرض كلها رمال وأتربة ليس فيها أي شيء صلب فيقويها . ففر منه أكثر العمال لقساوته[2] فشكاه موسى بك إبراهيم ناظر الهدندوة إلى عبد الرازق باشا (مدير التاكا) لكثرة القتلى من قبيلته ، كما وأن أرض التمينيب تابعة لمديريته ، وأخطأ ممتاز باشا في تعيين الشيخ عبد القادر وكيلا لنظارة الهدندوه بالقنوب بدون استشارة الناظر أو موافقة المدير . فحضر المدير والناظر من كسلا وشاهدا عمله ثم دخلا مدينة سواكن وأرسل المدير برقية إلى وزارة الداخلية بكل أعمال ممتاز باشا الذي صدرت اليه التعليمات كي يحضر إلى مصر . فأبحر ثم عاد بعد أسبوعين وقد تعين حكمداراً على عموم القطر السوداني . فأمر المدير بالعودة حالاً إلى مقر عمله ، وأرسل الناظر إلى مصر وسافر هو إلى الخرطوم بعد أن خلفه على محافظة سواكن محمد علاء الدين باشا .

---

(١) هو الذي جدد قياس النيل بأصوان سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٧٠ م وقد نقش على حجر في حائطه الأبيات الآتية :

حقّ على أسوان تبدي شكرها ... لمليك مصر الداوري إسماعيل
أحيا بها المقياس بعد ذهابه ... بتجدد التقسيم والتفصيل
من بعد ألف وهي في حجب الثرى ... أبدى معالمه بخير دليل
الماهر الفلكي محمود الذي ... جلت معارفه عن التمثيل
أبقى التقاسيم التي وجدت به ... وبغيرها جلاه للتعديل
قالت له أسوان في تاريخها ... أرقبت بالمقياس بحر النيل

(٢) أكثر العمال كانوا من الهدندوه الذين يسكنون الضواحي ويأتيها بعضهم في طلب العلم .

وفي سنة ١٨٧٠ م عين ممتاز باشا والياً على عموم سواحل إفريقيا[1] ، من سواكن حتى سواحل المحيط الهندي عند ميناءي غارد فوي وبولهار التي وصلها في أول طوافه يوم ٢٣ شوال سنة ١٢٨٧ هـ (١٦ / ١ / ١٨٧١) ثم رفع عليها الراية المصرية . يقال إن الذي حدا به إلى الشدة والصرامة في الأحكام هو اضطراب حبل الأمن في كل أنحاء بادية البجة ، وأشهر من ذاق مرارة تعذيبه حتى مات بسببها الشاعر الرقيق محمود الفلج الذي انتشر شعره الغزلي في القبائل البجاوية . وكان من أمره أن سائحاً ألمانياً استأجر جمله إلى كسلا فسار به حتى دنا من خباء حبيبته ، فاستأذنه في زيارتها فلم يسمح له بزيارتها . فتركه محمود وذهب للقائها وقضى معها إياباً نسي فيهاالسائح والسفر.فعاد الألماني إلى سواكن مريضاً وتعباً ، فأرسل ممتاز في إثره قوة من البوليس فلم تجده ، فأمرهم باحضار أمه وأقاربه وحبيبته إلى سواكن فلما سمع ما حدث ترك الاختفاء وقدم نفسه للسجن فحَقّق معه ، وفي أثناء ذلك توفى السائح ، فحكم عليه ممتاز باشا بالموت تحت التعذيب ، وقال له ذات مرة إذا لم ترضع كالطفل من ثدي حبيبتك سأعذبك ، فرد عليه ، إن فماً قبل ثغر آمنه لا تنتظر منه أن يلمس حلمة ثديها كالرضيع ، لقد خسئت يا كافر . فأمر بإجلاسه على طست مملوء بالزيت الحار والنار من تحته فاحترق لحمه وتساقط جلده[2]. ثم أمر بأن يصلب على خشب وأن تراه أمه . فجاءت وقالت له ، لا تجزع من عمل الكافر فالرجل يومه واحد لا يتعداه ، فإن كنت ابني لا تكترث لتعذيبه . وستنتشر شجاعتك بين الشبان في الآفاق ، فاصبر والق الموت بثغر باسم ، والرجل مهما طالت به الأيام سيموت يوماً ما[3] ثم أخرجت منه المسامير[4] وزيدت السلاسل في رجليه . وكانت التعليمات أن

---

(١) لما سمع جعفر مظهر باشا بحوادث ممتاز باشا في سواكن اشتكاه للخديوي إسماعيل باشا سنة ١٨٧٠ م ، فكانت النتيجة أن عين حكمداراً على سواحل البحر الأحمر (منفصلاً عن حكمدارية سائر القطر السوداني) .

(٢) قال امرؤ القيس :

فلو أنها نفس تموت جميعة ... ولكنها نفس تساقط أنفسا

(٣) قال كعب بن زهير في بردته :

كلّ ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

(٤) قطع بنصر يده اليسرى لأنها ارتجفت لما ضرب فيها المسمار .

يطاف به في المدينة . وفي أحد الأيام رق قلب الخفير لحاله وقال له إني سأتغافل عنك يامحمود فاهرب إلى حيث تجد السلامة ، فأجابه أن بنات سواكن يعيرنني غداً بالجبن ولا تنسى أنني عاجز عن المشي ، فكيف أحاول الجري[1] هذا ما أصاب الهدندوه من ممتاز . وأما بنو عامر فقد أصابها قليل من رشاشه ، وهو أنه اتفق مع القبطان المهدي محمد أحمد أبو بكر من أعيان عقيق وبهدور على أن يمنحه عشرة جنيهات (مائة ريال) ويسعى الباشا لدى وزارة الداخلية حتى يفصلهم عن نظارة بني عامر باعتبارهم سكان مدينة حضرية تابعة لمحافظة سواكن ، وتم الفصل فاحتج دقلل حامد بك محمد (الناظر) ولكن بدون فائدة ، فسمعت قبائل بني عامر (عدها سري) بما حدث فأنذروا رعاة البهدور بالرحيل من الجزيرة بمواشي الانفصاليين بعد شهر . فلما لم يرحلوا نهبوها . ثم لما بدأ في إنشاء ميناء العقيق نهبوا الحوانيت أيضاً واضطرب الأمن حول العقيق . فسمع ممتاز باشا بذلك فأحضر عمدة عدها سري ومعه عشرة من المشايخ ووضعهم في السجن ، وقال لن أطلقهم إلا بعد إعادة كل ما أخذوه . وفعلاً أعيدت كل المنهوبات .

وفي أيام ممتاز باشا (١٨٦٩) هاجر الشيخ عبد الله وعبد الله ابني أمبارك (زعماء الرشايدة) بأهلهم ومواشيهم من جزيرة العرب فأكرمهم وسمح لهم بالإقامة في السودان وعافاهم من الجزية والرسوم لمدة عشر سنوات ، فتوافدت سائر عائلات الرشايدة إلى السودان .

ومن حسناته التي يذكرها التاريخ[2] قيامه بتوزيع الإعانات على العلماء والفقراء من أهل الصومال في زياراته لهم . وفي فبراير سنة ١٨٧٠ م أمره الخديوي إسماعيل بالسفر إلى بربره لفض النزاع بين قبائلها ، ثم قفل راجعاً فمر بزيلع[3] وتاجوره ومصوع والعقيق ، وكان إذا حل في بلد قوبل باحتفال كبير[4] . وعرض

---

(١) أشعار محمود كلها بالبجاوية ونحن عربنا البعض ونتعشم أن يتطوع أحد أبناء البجة لجمعها وتعريبها بعد أن يجتمع بأهله في قراهم وهم من الهدندوة بدنة هيكوتيباب . محل إلهام ذلك الحب العذري والغزل الرقيق .

(٢) مصر في إفريقيا الشرقية للدكتور محمد صبري . .

(٣) تنازل عنها الباب العالي (سلطان العثمانين الأتراك) للخديوي إسماعيل باشا في يوليه سنة ١٨٧٥ م مقابل دفع ألف وخمسمائة جنيه تركي سنوياً .

(٤) كان لممتاز نائب محافظ حازم اسمه (شكيب بك) يتولى أعماله بكل نزاهة وإنصاف .

ممتاز باشا على عبد الرزاق باشا (مدير التاكا) زراعة القطن بأراضي القاش وخور بركة . فنجح القطن بالقاش ولم ينجح في خور بركة إذ اعتبرت الحكومة الضفة الغربية من المراعي وأما الشرقية فهي التي تروي أراضي توكر . وكان ممتاز باشا كثير الاحترام للقاضي عبد القادر حسين وعلي بك دقنة من أهل سواكن . ويعتمد في توكر على الشيخ موسى بن محمد دين عمدة الأرتيقة . وفي توكر نجحت زراعة القطن بفضل تعاونهما . ولم يكن للحكومة رسوم على القطن في السنين الأولى وأخيراً قررت أخذ ثلث المحصول .

وفي يوم ٣ / ٤ / ١٨٧٠ م نشرت الوقائع المصرية الخبر التالي : وردت الأخبار من مدينة سواكن . أن أهلها بعد أن كانوا محرومين من شرب المياه العذبة لا سيما في فصل الصيف . بذل حضرة محافظها الأكرم أحمد ممتاز بك غاية الاجتهاد في تدارك ذلك إلى أن وصل إلى المراد وهو أن على بعد أربع ساعات من تلك البلدة جبلاً تنزل فيه السيول ثم تنصب في البحر الأحمر بدون نفع . فسد الجهة الموصلة إليه وحفر ترعة من الجبل إلى سواكن وجعل فيها المياه . فصارت جميع الأهالي تتمتع بها بالشرب وزرع البقول والأقطان .

وفي سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م تقرر نقل ممتاز باشا إلى الخرطوم بعد أن تم تعيينه حكمداراً عاماً للسودان[١] . فلما وصل مركزه أمر الأهالي بزراعة القطن وجلب من مصر الخبراء كما عمل في توكر والقاش وهذا هو الأثر الحميد الذي تركه في السودان . واستأجر الجمال لنقل الأحجار من بحر سواكن[٢] إلى الخرطوم لبناء سراي الحاكم العام[٣] . وهذا دليل على محبته لسواكن وسواحل البحر الأحمر . وكان يتهم موسى

---

(١) وعين مسنجر باشا حكمداراً على شرق السودان وهو مدير التاكا وسواكن وأرتريا وسواحل البحر الأحمر .

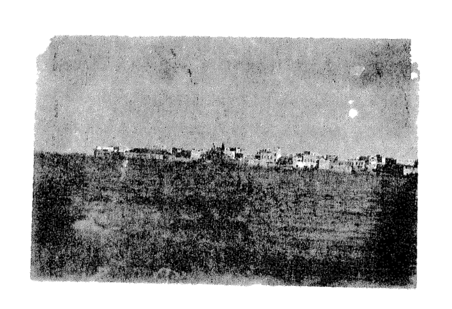
(٢) عرض ممتاز باشا على الخديوي نقل العاصمة من الخرطوم إلى سواكن فاستشار سموه (إسماعيل باشا) موسى بك وناظر الحلنقا في ذلك فعارضا وقال إن الخرطوم هي وسط المديريات مثل القاهرة وأما سواكن فهي مثل السويس لا يصح أن تكون عاصمة .

(٣) لغي ذلك بعد سجنه .

بك إبراهيم بأنه السبب في نقله إذ أن الخديوي إسماعيل لما سأله عنه قال : إنه ممتاز يستحق أن يكون حكمداراً لأنه مخلص وذو أراء سديدة .

قال عنه إبراهيم باشا فوزي في تاريخه « فارتكب (ممتاز باشا) من المظالم شيئاً لم يسبقه إليه احد . حيث أحل الظلم لنفسه وحرمه على من هو دونه . وأوعز إلى الأهلين أن يطالبوا الحكام والمأمورين بالرشاوي التي تناولها منهم هؤلاء منذ ضم السودان لمصر . ومن امتنع من أولئك الحكام أوقع به البلاء . وضربه أكثر من خمسمائة جلده ولم تمض أيام قليلة حتى اجتمع عنده من المال شيء كثير » .

قيل إنه أخذ رشوة من سنار وحدها على رواية بعض معاصريه مائة وخمسين ألف ريال ونيفاً . وقد أكثر أهل السودان من التشكي عليه فأوقف من الخدمة سنة ١٨٧٣ م وسجن بالخرطوم لتحقيق تلك الشكايات فمات هناك سنة ١٨٧٥ م



استأجر ممتاز باشا الجمال لنقل الحجارة من سواكن إلى الخرطوم . لما عين حكمداراً على السودان .

علي رضا باشا

تعين محافظاً على سواكن سنة ١٨٧٢ م خلفاً لأحمد[١] ممتاز باشا . وهنالك زارته مدام اسبيدى Speedy وزوجها في طريقهما إلى كسلا لتمضية شهر العسل . وقالت إن علي باشا يذهب لصلاة الجمعة باحتفال كبير يسير فيه خلق كثير . وهو من المهندسين المتازين . وفي سنة ١٨٧٧ م عين محافظاً لمدينة مصوع . ثم نقل منها وتعين محافظاً على مدينة هرر . وبقي بها حتى أرغمت إنجلترا الحكومة المصرية على إخلائها هي وبربرة وزيلع في شهر أكتوبر سنة ١٨٨٤ م فسلمت الأولى للحبشة والأخيرتين احتلتهما إنجلترا سنة ١٨٨٧ م .

ويؤثر عنه أنه رفض إطاعة الأمر بالتسليم فانتدبت الحكومة المصرية أمير البحر رضوان باشا حتى يكون إجلاء المصريين من هذه المديريات الأربع على يديه[٢] . ولولا احتلال الإنجليز للقطر المصري سنة ١٨٨٢ م لما محيت الإمبراطورية المصرية من خريطة إفريقيا[٣]

ومن مآثر علي رضا باشا مطاردته للمتطببين والمشعوذين والدجالين وكان أحرى بالمطاردة الشيخ محمد بن عبد الشكور (أمير مدينة هرر) إذ اشتهر بالاستبداد على الرعية حتى أنه حرم عليهم أكل الأرز والبلح والثريد بحجة أن أمثال هذه الأطعمة اللذيذة من حق الملوك وحدهم . وكان يحتكر تجارة العاج وريش النعام والبن . ويحرم على السكان أن يغطوا رؤوسهم وقاية من البرد أو الحر . وبلغ من تعسفه أنه إذا هم بالبصق تسابق الحضور إلى تقديم كم قميصهم . فلما تولى رؤوف باشا فتوحات هذه المناطق لغى كل هذه الاستبدادات والتعسفات .

---

(١) بقي نائباً له طيلة مدة محافظته .

(٢) أعلام الجيش والبحرية للبكباشي عبد الرحمن زكي بك .

(٣) لولا هرم الإمبراطورية التركية لما قدرت إنجلترا على ميراث إمبراطورية إسماعيل باشا الذي مهما قيل فيه لن تنجب مصر له قريناً . إذ تغلب على خصومه وهم كل أوروبا والسلطان عبد الحميد ووزراؤه المرتشون (اقرأ تاريخه) .

ورضا باشا هو الذي استكتب أمير هرر وثيقة كي يرضى باحتلال المصريين لبلاده وهاهي صورتها :

من الأمير محمد بن علي بن عبد الشكور أمير هرر إلى محمد رؤوف باشا في سبعة رمضان سنة اثنين وتسعين ومائتين وألف هجرية الموافق ٧ أكتوبر سنة ١٨٧٥م .

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . أقول وأنا محمد بن علي أمير بلاد الهرر تحت طاعة الله ورسوله ثم تحت طاعة الأعز الأجل فخر الإسلام والمسلمين ناصر شريعة سيد المرسلين كافل جيوش المنصورة محمد رؤوف باشا رفع الله قدره وأمضى عزائمه الذي هو تحت العزيز الأكرم . والوزير المكرم . ذوي الفتوحات المتجددة في كل آن . والمزايا التي يتحلى بعقود حسنها جيد الزمان . مولانا الخديوي إسماعيل بن مولانا إبراهيم . لا زالت كواكب سعوده زاهرة المطالع . ومواكب جنوده قاهرة الطلائع . طائعاً مختاراً في صحتي وسلامتي . قابلاً مسلماً أنا وأهل طاعتي ومملكتي . كما ذكرته ولمن ذكرته وأرجو من الله تعالى أن يديم الصولة الخديوية . ورغبتي أن أكون تحت طاعة الحكومة الخديوية لآمن على نفسي ومالي وعيالي .

وأتمنى السعادة الخديوية مكافأة لصداقتي لها أن يصدر لي فرماناً كريماً أن الإمارة لي ولذريتي من بعدي .

هذا مادمت صادقاً أنا وذريتي والله يوفقني لطلبات ولي نعمتي الخديوي المعظم وأرجوك أيها الباشا أن تعرض هذا للخديوي الأعظم (١) .

محمد علاء الدين باشا

هو شركسي من ضباط السواري الذين اشتهروا بالنزاهة وعدم التحيز بين المتخاصمين . وقد أثنى على أخلاقه ونزاهته المستر أوغسطوس وايلد وكذلك محمد بك

(١) كل الدول الاستعمارية تستكتب ملوك وأمراء وسلاطين الحكومات الصغيرة والكبيره في آسيا وافريقيا مثل هذا الصك . وقد شاهدت مثل هذا عندنا في السودان سنة ١٩٢٥ م لدى بعض نظار القبائل يطلبون فيه توقيعات العمد والأعيان بأن المصريين لم يملكوا السودان أو يحكموه بل حكامه الأتراك سابقاً ويلمحون بعدالة حكمهم وظلم المصريين الذين قتلوا الحاكم العام الإنجليزي .

موسى (ناظر الهدندوة في التركية والمهدية والحكم الثنائي) . تعين مديراً على كسلا ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٢ م خلفاً للقائمقام فرج بك الزين الذي أقيل بسبب جلده ليوناني من قبرص (وسنذكر ذلك فيما بعد) .

وفي سنة ١٨٧٣ م تعين محافظاً على سواكن ومصوع خلفاً لأحمد باشا ممتاز وسار مع أهليهما بأحسن السير حتى أنساهم استبداد ممتاز . وفي أيامه بسواكن تعين غردون باشا حكمداراً على السودان . فتلقاه علاء الدين بالبشاشة والإيناس وأكرم وفادته أي إكرام حتى أن غردون شكره على ذلك .

وفي سنة ١٨٨١ م تعين علاء الدين باشا حكمداراً على عموم شرق السودان وزار سواكن فوجد بها بعض تجار السن معتقلين فأطلق صراحهم .

وفي سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م وصل إلى كسلا رسل إمبراطور الحبشة ، ومعهم خطاب إلى حكمدار شرق السودان هذا ملخصه :

من الملك المحب يوحنا ملك صهيون نجاشي الحبشة [1] ، وملك ملوكها إلى حضرة المحب المكرم علاء الدين باشا . نخبركم أننا بنعمة سيدنا المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزون كمال الصحة والعافية متمتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودية وإنه مرسل لكم يامحبنا الباشا هدية هي حصان من جياد الخيل إشارة الى التودد والمحبة والسلام .

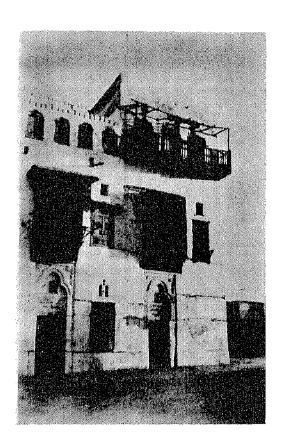
وكانت مع هذا الوفد هدايا ثمينة لسمو الخديوي محمد توفيق باشا .

ولم يطعن في عدل علاء الدين باشا إلا شيخين من الرشايدة وفوزي باشا هما مصلح بن علي ، وامبارك العازمي بن عبد الله فقد رويا لي أنه أخذه رشوة من كنتيباي حامد بن حسن (ناظر عموم الحباب) كي يأمر بترحيل الرشايدة إلى

---

(١) كان النجاشي يوحنا لا يخشى إلا من الدول الغربية لذا تجده يتودد للخديوي حتى يأمن جانبه . وفي أحد خطاباته للخليفة عبد الله التعايشي طلب تلميحاً أن يحالفه ضد الإفرنج .

سواكن وحلايب . لأنهم قتلوا جماعة من الحباب[1] فطاردهم الجيش حتى وصلوا حدود مصر واشتد غضبه على قبيلة المرازيق[2] التي سافر عميدها الشيخ مرشود إلى مصر شاكياً من أعمال علاء الدين باشا ومن الحباب الذين قتلوا من قبيلته نيفاً وسبعين رجلاً في جهات قرورة وعيتربه في عدة غزوات ليلية كان يشنها عليهم رجال الحباب الشجعان[3]



منزل محمد أحمد شمس بجزيرة سواكن

---

(١) قال الراوي أن كنتباي دفع ألف جنيه لتنفيذ هذا الحيف من الشيخ طاهر شنيتي (سر تجار مصوع) وسدد المبلغ من عشور كنتيباي ، وهو صفيحة سمن من كل عشر صفائح ترد من قبائل الحباب وهم من أغنى وأكثر قبائل شرق السودان .

(٢) هاجروا إلى السودان عن طريق طور سيناء والسويس ، وهم دائماً مسلحون بالبنادق وهذا أهم سبب لترحيلهم .

(٣) كانوا جميعهم مجاورين للعجيلاب فأخبرهم الشيخ ضرار على أن يرحلوا سريعاً إلى ما بعد توكر فلم يطيعوه لبعد الحباب عنهم .

ثم عاد الشيخ مرشود ومعه ضابط من قبل وزارة الداخلية إلى سواكن للتحقيق في الشكوى فوجد أن للرشايدة الحق في دعواهم . وأمر بأن يصرف لهم تعويض عن كل مافقدوه ، وكذلك دية قتلاهم . فاستلم ناظر الرشايدة[١] كل هذه المبالغ واتفق مع الباشا ثم وزعوا المبالغ على بعض مستحقيها . واقتسموا أكثريتها واستلموا منهم إيصالات باستلام أكثر من المطلوب . ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل أرسل الحكمدار تقريراً شفعه بمستندات تثبت أن الذين استلموا التعويضات كاذبون ومدعون بالباطل . واقترح استرداد المبالغ منهم بما في ذلك التي أخذها هو والمتواطئون معه . فأرسل الجنود إلى مراعي الإبل فعادوا إليه ومعهم أربعمائة وخمسة وخمسون ناقة من خيرة ما يملكون . فاشتراها محمد بك الشناوي بسعر أربعة جنيهات للناقة . وهذا عمل عليها وسمه وهو حرف (ش) . (شين) على رقابها وسلمها لعمدة قبيلة الشّعْياب (أرتيقة) وكانت ترعى حول ضواحي توكر وسواكن[٢] . وبعد كل هذا أرسل علاء الدين باشا في إحضار الرشايدة الذين سافروا مع مرشود وأقاربهم . ثم زجهم في السجن حتي يكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالشكوى إلى مصر . وفي أحد أيام إقامته بمصوع هجمت عصابة حبشية على قرية « إمبيرمي » شمال مصوع . ونهبت كل ما وجدته وخطفت غلاماً يافعاً هو (السيد علي بن عبد القادر محمد علي) ووضعوه داخل زير في كنيسة . وأوصوا القسيس بمراقبته لأنه ابن قسيس المسلمين . فأمر علاء الدين باشا بتأليف عصابة بقيادة آدم بك محمد نايب كي تدرك الأحباش وتسترد منهم السيد علي وكل ما تحت يدهم . فانتصر آدم بك وجنوده وشتتوا شمل العصابة وأحرقوا قراها في جبل (بيجَنْ) ولكنهم لم يجدوا السيد علي ـ فأعلن علاء الدين باشا أنه يدفع ثلاثة آلاف ريال نمساوي لمن يأتيه به فسمع النجاشي يوحنا بالمبلغ وعرف محل اختفاء الولد فأرسل أوامره إلى الرأس الولا ـ كي لا يسلمه بأقل من خمسة آلاف ريال فدفعها الباشا من الخزينة . ثم جمعها باكتتاب عام جمعه من كل القبائل . وعاد السيد علي إلى أهله .

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن أمبارك .

(٢) لما انتشرت المهدية أمر الأمير خضر الحسنابي الأنصار كي يستولوا عليها وأضيفت إلى بيت مال المسلمين لأن صاحبها يقيم مع أعداء الدين .

وفي يوم ١ / ١٢ / ١٨٨١ م[1] صدر مرسوم بالآتي :

قد عمل عموم شرق السودان ، وهو مديرية التاكا وسواكن ومصوع وسهيت والقلابات بتوابعها بما فيها عربان الضبانية[2] إدارة قائمة بنفسها منفصلة عن حكمدارية السودان ، وتضاف إليها عموم سواحل البحر الأحمر . وتعيين علاء الدين باشا مديراً لعموم شرقي السودان ، وعليه محافظة عموم سواحل البحر الأحمر شريف باشا . وقد ألغى محمود باشا سامي البارودي هذا المرسوم .

كان نقل الحكمدار والمدير والمحافظ وضم المديريات وتقسيمها شيئاً اعتيادياً ، حتى إن أحد المؤرخين البريطانيين وصف ذلك بأنه أبسط من خلع المرء لقميصه . وللمحسوبية الكفة الراجحة في ذلك . أنظر إلى الأمر الصادر يوم ٤ / ٤ / ١٨٨٢ م .

ينقسم السودان إلى أربع حكمداريات :

(١) حكمدارية إقليم غرب السودان ومركزها الفاشر وتكون عموماً لمديريات دارفور ، وكردفان ، وشكا ، وبحر الغزال ، ودنقلا .

(٢) وسط السودان ويسمى حكمدارية إقليم وسط السودان ومركزها الخرطوم ، وتكون عموماً لمديريات الخرطوم ، وسنار ، وبربر ، وفاشودة ، وخط الاستواء .

(٣) شرق السودان هو التاكا وملحقاتها ومن محافظتي مصوع وسواكن وملحقاتها إلى باب المندب .

(٤) حكمدارية عموم هرر وملحقاتها وتتركب من مديرية هرر ومحافظتي زيلع ، وبربره ، وملحقاتها ويكون مركزها هرر .

إن المتأمل في هذه التنقلات الأخيرة والسريعة لا يرتاب في حالة التقلقل التي كانت في مصر ، والاضطراب العاجل الذي في السودان ، لأن الاستعمار بدأ في دخول مصر والخروج من السودان . فلما دعا الداعي لحرب الاستقلال لبت النداء كل المديريات حتى الجنوبية منها .

---

(١) أعلن الامام المهدي الجهاد في سبيل الله بالجزيرة (أبا)

(٢) كانوا من أغنى القبائل في الإبل ويملك ناظرهم أربعة آلاف جمل أبيض لركوبه الخاص .

وفي يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣ عين علاء الدين باشا حكمداراً للسودان . وسليمان باشا نيازي قائداً عاماً للجنود . وهكس باشا رئيساً لأركان الحرب . فاختلف الثاني مع الثالث في الخطط الحربية . فنقل سليمان باشا نيازي إلى سواكن وبعد نقله اختلف الأول والثالث أيضاً في طريق الزحف إلى الأبيض لقتال الإمام محمد أحمد المهدي الذي قضى بجنوده من الأنصار على تلك الحملة التعسة [١] .في واقعة شيكان يوم ٤ محرم الحرام سنة ١٣٠٠ هـ الموافق ثلاثة نوفمبر ١٨٨٣ م [٢] .

قال إبراهيم باشا فوزي في تاريخه عن مقتل علاء الدين باشا (لما قبض علاء الدين باشا على زمام الحكمدارية أخذ من المال (مال الحكومة) نحو مائتي ألف ريال . وذهب بنفسه لشراء جمال من قبائل شرق السودان فتسرب المال إلى جيبه الخاص .وأخذ من كل قبيلة نحو ألف جمل من بني عامر والبشاريين والأمارأر . أما الهدندوه فقد كان صديقاً لناظرهم محمد بك موسى ولذلك أهدى إليه ألف جمل للحملة وألفاً أخرى للركوب . وقال إبراهيم باشا فوزي إنه كثير الشراب للخمر حتى أنه قبل الواقعة التي قتل فيها شرب زجاجة من الكونياك) .

فرج بك الزين

الأميرالاي فرج بك الزين كان صديقاً لعلاء الدين باشا وقد تعين مديراً للتاكا في سنة ١٢٨٦ هـ . وبعد سنة من تعيينه حضر إليه رجل يوناني من قبرص وطلب منه أن يعد له عشرة جمال بغاية السرعة . فأجابه المدير بأن يتقدم بطلبه إلى المتعهد . فاستاء اليوناني وشتم المدير باللغة الفرنسية . فسأله المدير لماذا الشتم . ونادى حرسه وقال لهم أحضروا العدة (الفلقة) [٣] والكرابيج ورموا اليوناني في الأرض وضربوه

(١) قيل إن الجنرال هكس لما رأى كثرة جنوده وقوة عتاده الحربي أخذته العزة والجبروت فقال : (إذا سقطت السماء على الأرض أتلقاها بأعمدة من حراب (سنكي) البنادق . وإذا اهتزت الأرض فأثبتها بأحذية الجنود) .فجاء أمر الله وقضى هو وجنوده ولم تغن عنهم كثرتهم .

(٢) هذا اليوم كان يوم الطالع السعيد للأنصار ونحس الطالع للمستعمر . فقد انتصر فيه الأمير عثمان دقنة بنحو مائتين من أنصاره على جيش محمود باشا طاهر في التيب . كما انتصر قائده الحاج حسن الكميلابي في خور بركة على فرقة أخرى (جواب الأمير عثمان دقنة المهدي) .

(٣) هي آلة خشبية توضع في الرجلين عند ضربهما .

ضرباً شديداً حتى أصيب بإسهال استمر معه شهراً كاملاً ، ثم رجع إلى مصر واشتكى لسفير دولته الذي أخبر الخديوي إسماعيل باشا . فأمر بعزله وخلفه علاء الدين باشا . ونقل هو محافظاً لمدينتي زيلع وبربره . وهو من الضباط الذين اشتركوا في حرب المكسيك سنة ١٨٦٥ م فقاد المؤخرة وأبلى أحسن بلاء فأعاد إلى الذاكرة مالم تنسه من حماسته وبسالته في حروبه [١] السابقة . وقد اتهمه العرابيون بأنه متآمر عليهم مع الخديوي توفيق فأحالوه على مجلس عسكري . فحكم هذا المجلس بتنزيله إلى رتبة بكباشي . فلم يوافق الخديوي على ذلك . فسافر إلى مصوع ومنها إلى الخرطوم التي قتل فيها مع غردون باشا يوم سقوطها بيد الإمام المهدي (٢٦ / ١ / ١٨٨٥ م) .

أمير البحر مصطفى باشا الطوشي

تعين محافظاً على سواكن في سنة ١٨٧٥ م . ثم انتقل مديراً على كسلا في سنة ١٨٧٧ م . وفي سنة ١٨٧٩ م عين ناظراً لدار الصناعة بالخرطوم ثم أحيل إلى المعاش [٢] .

سليمان باشا نيازي

تعين محافظاً على مصوع سنة ١٨٧٦ م . واشترك في حملة السردار راتب باشا التي منيت بالفشل سنة ١٨٧٥ م في حربها لأثيوبيا . وفي سنة ١٨٨٣ م عاد إلى مصوع من سواكن لجمع فرق الجيش المصري من أرتريا لقتال الأمير عثمان دقنة . ووجد فيها مختار بك محافظاً ومعه رسائل برقية من كسلا وسنهيت وأميديب وكلها بالشفرة (اصطلاحات بالأرقام أو الحروف) فأخذها سليمان باشا معه إلى سواكن وعرضها على سلامة بك [٣] فحلوا ألغازها . وزاره في محافظة مصوع المستر وايلد واستأذنه في إرسال

---

(١) بطولة الأورطة السودانية للأمير عمر طوسون .

(٢) تجد تاريخ حياته في كتاب أعلام الجيش والبحرية في مصر .

(٣) مدير البريد والبرق بحكومة السودان . وهو ممن درس اللغة الانجليزية بلندن .

برقيات إلى محافظي سنهيت وكسلا وسائر المراكز يسألهم عن تعداد الجيش الموجود بكل مركز[1] . ولما لم يجد غير أورطتين أمره علاء الدين باشا بأن يرسلهما إلى كسلا بقيادة فرج بك الدقاش السوداني[2] . رفض هذا الجندي الباسل (نيازي) أن يتنازل عن قيد أنملة من سلطته لما تعين قائداً للجيش المصري بالسودان سنة ١٨٨٣ م ، وكان رئيس الأركان حرب الجنرال هكس الذي مراراً ما حاول أن يستأثر بالسلطة ، ولكن سليمان باشا اضطره على إطاعة أوامره . فأرسل هكس باشا بالبرقية الآتية[3] ، إلى السير أ ـ مالت بالقاهرة . « أرسلت يوم (٢٣ / ٧ / ١٨٨٣ م) إلى نظارة الجهادية باستقالتي من مركزي في الجيش السوداني[4] ولقد فعلت ذلك وأنا متأسف . ولكنني لا أستطيع القيام بأعباء حملة أخرى تحت هذه الظروف التي تشبه الظروف السابقة ، فإن سليمان باشا يقول لي إنه لا يفهم من برقية رئيس الوزراء المؤرخة في ١٤ / ٧ / ١٨٨٣ م أنه ملزم بتنفيذ آرائي فيما يختص بنظام أو كيفية زحف أو هجوم الجيش الذي يستعد للتقدم نحو كردفان مالم يوافق هو عليها وهو بذلك يقول في الواقع أنه يكون قد تصرف تصرفا مناقضاً للتعليمات إذا نفذ آرائي من غير أن يوافق عليها . ولما كانت أفكاري وأفكاره قد تضاربت في الحملة الأخيرة وستكون أكثر من ذلك في حملة كردفان فلست بمستطيع تجاه ذلك إلا أن أستقيل . وفي الأيام الاخيرة في مناسبتين هامتين أهمِلَتْ وجهات نظري ، فأرجو أن يعرض الجنرال بيكر على سمو الخديوي أمر استقالتي وأن يؤكد له أسفي لهذه الضرورة وأبرقوا إليّ بالرد ... هكس . وهذا هو الرد (ببرقية) يوم ٢٣ / ٧ / ١٨٨٣ م ، الى هكس باشا . سيستدعى سليمان باشا عند انتخاب حاكم جديد ، نرجو عدم ذكر هذا الى أن يتم رسميا واني آمل أنكم ستجدون بعد إتمام هذا الامر سهولة في عملكم ، كما تجدون طريقكم خلواً من العراقيل والعقبات وسيكون علاء الدين باشا قائداً اسمياً .

---

(١) جاءه الرد بأن جملة الجيش المصري بتلك الأنحاء كان ٢٤٦٦ جندياً قضى على بعضهم الأنصار وعلى البعض الآخر الأحباش في قلاع كرنْ .

(٢) لم يبق بسنهيت غير أورطتين ترحلتا إلى كسلا .

(٣) مديرية خط الإستواء للأمير عمر طوسون ـ بعض مؤرخي الإنجليز يتجاهلون هذه البرقية ولا يعترفون بالرد عليها .

(٤) يقصد المصري بالسودان .

وفي يوم ٢٧ / ٧ / ١٨٨٣ م أرسل إليه أيضاً البرقية الآتية :

تسلمنا اليوم برقيتك المؤرخة ٢٣ الجاري وإني أرى عدم التشدد في طلب إقالتك بما أن سليمان باشا سيستدعى كما ذكرت لك في برقيتي المؤرخة في ٢٣ / ٧ / ١٨٨٣ م[١].

أنظر إلى هذا الضابط التركي الشجاع كيف أزعج الاستعمار الانجليزي في القاهرة . ويفهم القارىء من البرقيات أن همّ الإنجليز كان الخلاص من فلول جيش عرابي باشا . ولذلك انتدب هكس وبيكر وغردون (وقد تم كل ذلك) . ولقد ظهرت شجاعة سليمان باشا وخبرته العسكرية في مواقفه الحربية .

قال عنه المؤرخون من المصريين أنه أكثر كفاءة وأعظم دريّة من الجنرال هكس الذي لم تظهر له أي مواهب حربية ضد جيش الأنصار . أما نيازي فقد قاتل بثبات في واقعة المرابيع[٢] وحمى مراكزه من السقوط بيد الأنصار . واشتهر بحبه لجنوده . قيل أن الأميرالاي سارتوريس[٣] طلب من الجنود السودانيين (باشبزق) القيام بتمرينات عسكرية بسواكن قبل واقعة التيب الثانية (يوم ٤ / ٢ / ١٨٨٤ م) فرفضوا إطاعة أوامره ، فحكم عليهم بالجلد ، ولكن تصدى له سليمان باشا وقال له : (إن هؤلاء الصناديد لا يجلدون بتاتاً) . فطلب سارتوريس منه أمراً كتابياً فأعطاه إياه ، ومنعهم من الاشتراك في الواقعة لئلا يحدثوا نكبة للجيش . وتولى القيادة بيكر باشا ، ونكب الجيش وكل من كان معهم من الصحافيين ، وفر القواد الأجانب على خيولهم إلى ترنكتات حيث كانت البواخر والنقالات في انتظارهم . وفرحت مدام سارتوريس وابنتها بعودة زوجها سالماً هو وبيكر باشا وخمسة آخرين هم مولتنا ، و ووكر ، و جودوول ، و هارنجتون ، و بالسكا ، ومات البطلان ، عبد الرزاق بك ويوسف بك ،

---

(١) ذكر الأمير عمر أن السير مالت ضغط على الحكومة المصرية حتى سحبت سليمان باشا . كما ضغط على سحب عبد القادر باشا حلمي قبله .

(٢) كان جيش نيازي باشا مؤلفاً من خمسة آلاف وستمائة جندي أكثرهم من السودانيين .

(٣) هو ضابط يوناني قرأت لزوجته وصفا دقيقاً لهذه الواقعة باللغة الإنجليزية .

وكانا قد حضرا من اسطنبول بعد أن تخرجا من مدرسة (كلية) الأركان حرب التركية .

في يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٨٣ م نقل إلى مصر عبد القادر حلمي باشا وتعين وزيراً للحربية ، وخلفه في الحكمدارية سليمان باشا نيازي ، وهكس باشا لرئاسة الأركان حرب . فاختلفا في الزحف على الأبيض . وأرسل هكس باشا برقية إلى مصر في ١٣ مايو سنة ١٨٨٣ م يقول فيها (إنه لا يتحمل مسئولية الزحف إلى الأبيض) فاهتمت السفارة البريطانية بالأمر حتى نقلت نيازي باشا إلى شرق السودان كما ذكرنا (حكمداراً) ، وأن تكون سواكن مقر إقامته . فسافر إليها عن طريق بربر[1] وأقام أياماً بسنكات مع محمد بك توفيق ، وعاتبه على استعمال الشدة ضد الأمير عثمان دقنة خصوصاً قتله الهدندوة . ثم استمر في طريقه بعد أن ترك مع توفيق[2] أربعين جندياً وأخذ لحراسته خمساً وعشرين برئاسة محمد بك أحمد . فلما وصل سواكن استلم القيادة العامة من محمود طاهر باشا[3] وسافر إلى مصوع وجمع كل الجنود المصريين والسودانيين وأحضرهم إلى سواكن ، وقبل أن يأخذوا قسطهم من الراحة قدمهم قربانا لجيش الأمير عثمان[4] ، فأبيدوا عن آخرهم ، وقتل معهم قائدهم كاظم أفندي التركي . وفي يوم ١٠ / ٢ / ١٨٨٤ م وردت برقية من مصر بإقالة نيازي باشا وأن يسلم القيادة للأميرال وليام هويت Hewett الذي اختاره لمساعدته بروستر بك Brewster . (أمين جمرك سواكن وخلفه في مركزه المرحوم خالي ادريس بك محمد) . وسافر إلى مصر بعد عزله والقضاء على آخر جندي مصري بسواكن . ولم نقرأ أو نسمع عنه شيئاً بعد رحيله .

وكانت الحكومة المصرية تريد أن تحاكم محمود باشا طاهر لانهزامه في واقعة التيب الأولى . فلما هزم بيكر باشا وجنوده الكثيرة في نفس المكان عفى عنه مع أن

(١) وصل إليها يوم أول نوفمبر سنة ١٨٨٣ م وسحب الجنرال هكس استقالته .

(٢) كان محصوراً بسنكات .

(٣) كانا ينامان في النسافة المصرية (جعفرية) .

(٤) أذاع نيازي باشا قبل القتال أن جيشه انتصر في التمينيب وقتل الأمير عثمان وستحضر جثته إلى سواكن . فرد عليه الجنرال سارتوريس (وقد جرب قتال الأمير) إن ذلك من رابع المستحيلات (لا ينبئك مثل خبير) .

جيشه لم يزد عن خمسمائة جندي ضد مائتي أنصاري . أما بيكر باشا فكان جيشه مؤلفاً من :

٦٧٨	جندياً	سودانياً جمعها الزبير باشا بمصر :
١٥٠	جندياً	تركيا (سواري) .
١٣٨	جندياً	من الطوبجية المصرية .
٣٠٠	جندياً	الخيالة المصرية .
٥٦٠	جندياً	جندرمة (بوليس) الاسكندريه .
٥٠٠	جندياً	جندرمة (بوليس) القاهرة .
٤٥٠	جندياً	بقايا أورط أرتريا .
٤٢٩	جندياً	جندياً من البيادة المصرية .
٤٢١	جندياً	أورطة سنهيت (كرن) .
٣٦١٦		

هذا بخلاف الفلول التي انضمت إليهم في سواكن من المرتزقة .

عثمان باشا رفقي

(أمير اللواء) تعين محافظاً على سواكن ومصوع[1] . وكانت وظيفتة « فريق » لعموم العساكر بالسودان[2]. وقاد الفرقة الأولى التي قامت لحرب الحبشة سنة ١٨٧٥ م . قال أحمد باشا عرابي عنه وعن فرقته : ومما يحمر له الوجه خجلاً مرور الأحباش في أثناء هجومهم أمام فرقة (قياخور) بحيث تصل إليهم مقذوفات المدافع المصرية وتمنعهم من التقدم . ومع ذلك لم تطلق عليهم مقذوفة واحدة ، ولم تخرج البيادة إلى الميدان لتساعد إخوانهم وتنقذهم من الفناء المحدق بهم . وكان رفقي باشا يمنع كل من يحاول اعتراض تقدم الأحباش بعد هزيمة الجيش المصري . وفي سنة

(١) خلفه عليهما بعد ترقيته محمد علاء الدين باشا .

(٢) قال عرابي باشا لم يسلم من أذى الأحباش إلا من كانت على رأسه قبعة أو في عنقه منديل أبيض أو من أسرع به جواده مثل البرنس حسن والسردار راتب باشا .

١٢٩٦ هـ تولى وزارة الحربية المصرية وكان شديد التعصب لبني جنسه الجركس ضد المصريين . وقد لعب دوراً هاماً في محاربته لمبدأ (مصر للمصريين) . وكان يقدمهم قرابين لأهله الأتراك . اشتهر رفقي باشا بتدوين مذكرات في محلات خدمته[١] أشهرها عن حرب المصريين والأحباش ، وكذلك عن مصوع وسواكن وشرق السودان وعن أهلها وطبائعهم وأحوالهم . وقبل توليه الحربية كان مساعداً لحكمدار السودان بالخرطوم سنة ١٨٧٨ م[٢] .

اللواء محمد مختار باشا

هو أحد الضباط الذين كلفهم الخديوي إسماعيل باشا كي يستكشف سنكات والطريق الموصل منها إلى سواكن . وكان معه من الضباط المهندسين عبد الله فوزي وعبد الحليم حلمي .

محمد بك توفيق المصري[٣]

أتم دراسته بمصر ، وكان يجيد اللغة الفرنسية والإنجليزية ، ويجيد لعبة التنس . وله أصدقاء من الإنجليز قد أثنوا على شجاعته في قتاله للأمير عثمان دقنة . تعين محافظاً على سواكن في أوائل سنة ١٨٨٣ م . فلما جاء الصيف رحل هو وأكثر أهل سواكن إلى سنكات للاصطياف فيها (كما هي العادة سنوياً) ، ومراقبة الأحوال السياسية عن كثب خصوصاً لما سمع بانتصارات المهدي في كل جزء من أجزاء السودان . وكان الأمير عثمان قد سافر لمبايعة الإمام المهدي في الأبيض . فلما تمت بيعته عينه الإمام أميراً على عموم شرق السودان . فوصل الأمير إلى أركويت في أواخر رمضان سنة ١٣٠٠هـ ومعه خطاب من الإمام المهدي الى توفيق بك ، فأرسله إليه الأمير .

---

(١) لم أتمكن من الحصول عليها .

(٢) أعلام الجيش والبحرية .

(٣) بعض الإفرنج يقولون إنه سوري أو قبرصي أو كريتي . والحقيقة أنه مصري صميم إذ يضنون على مصر أن تنجب شجاعا مثله وهذا ليس بمستغرب من هؤلاء الغربيين . ألم يدعوا بأن الأمير عثمان دقنه من ذرية الملاح الانجليزي الذي تخلف في القصير سنة ١٨٠١ م ثم قالوا إنه فرنسي ثم تركي الخ . . .

ولكن توفيق توانى في الرد واستعد للقتال وكان معه خمسون من الجنود النظاميين وخمسة وسبعون من رجال البوليس. فزحف الأمير من أركويت إلى سنكات فبلغها يوم أول الفطر سنة ١٣٠٠ هـ[١] فصلى بأصحابه وطلب من توفيق بك التسليم فأبى الأخير وتحصن بجنوده في داخل القلعة وفتح فيها المزاقيل، واصطف جنوده فوق سطوح المنازل وأطلقوا الأعيرة النارية على الأنصار الذين تمكن بعضهم من دخول القلعة واستعملوا السلاح الأبيض والخناجر. وأصيب توفيق بك بجرح في كتفه وظهره من سيف الأمير عثمان حينما أراد دخول غرفة مكتبه وقتل ياوره بعد سقوطه. ثم أصيب الأمير برصاصة في يده اليسرى وضربة سيف في اليمنى والرأس. وتعقب الأنصار كل الذين كانوا على المنازل وقتلوهم. ثم أمرهم الأمير بوقف القتال والانسحاب بعد أن قتلوا من الجيش ٥٧ جنديا وجرحوا كثيرين. واستشهد من الأنصار نحو ستين رجلاً[٢] . وسافر توفيق بك إلى سواكن لتضميد جراحه ثم أمر بالعودة سريعاً مع أن الأهالي أخلوا المدينة وعادوا إلى سواكن.

وعين الأمير عثمان دقنة الرجل التقي الفقيه علي بن حامد الجميلابي أميراً على سنكات، وأوكل أمر حصارها لقبائل الأنصار المحيطة بها. فأرسل الأمير فقيه علي خطاباً إلى توفيق بك كي يسلم المدينة ويسلم بنفسه وجنوده. فرفض ومزق الخطاب وبعد عناء وحصار مستمر عدة شهور[٣] خرج بجنوده قاصداً سواكن. فأمهله الأنصار حتى ابتعد عن سنكات عدة ساعات فأطبقوا عليهم وأبادوهم عن آخرهم[٤].

وقد أثنى كثير من الكتاب على بطولة محمد بك توفيق ورجال حاميته. كما رثاه الشعراء.

وقد رثاه الشاعر ديمتري أفندي خلاط بقصيدة طويلة منها:

---

(١) يوافق يوم اثنين اغسطس سنة ١٨٨٣ م.

(٢) كلهم من الدقناب والهدندوه (شرعاب وميشاب).

(٣) أرسل محمود طاهر باشا قوة من الجيش مكونة من ٥٦ جنديا بقيادة البكباشي محمود خليل معها نحو ثلثمائة جمل محملة بالذخيرة والمؤونة وأسلحة وافرة، فلما بلغت خور (ابنت) انقضت عليها قبيلة صديقنا الشيخ عمر أبو آمنة وهم القرعيب وأبادوها عن آخرها واقتسموا ما كان معها.

(٤) انتظرهم عميد القرعيب في جبيت الأشراف وانضم إلى جيش الأمير فقيه علي.

قـد عـز فيكِ العـزا ياخير حاميـة أسـقت حميتها أبطالهـا العدمـا
حامت كواسـر حرب حـول معقلهـم يبغون فتكاً بهـم أو ينكثـوا الذممـا
هيهات أن ينكثوا عهـداً وقـد عرفـوا لا يسـلمن شـرف حتى يريـق دمـا

إلى أن يقول :

يا نخبـة شـهدت في فضلهـم نـوب سـواد أهوالهـا قـد بيض اللممـا
لئن فنيتـم فأنتـم خالـدون وإن نزلتم الترب أعلى قدركم وسـما[1]

* * *

---

(١) كتبنا بإسهاب عن توفيق بك في مجلة أعلام الجيش .

مُحافظو سواكن ومُديرو البحر الأحمر

من سنة ١٨٨٥م إلى ١٩٠٨م

في أواخر سنة ١٨٨٤ م رفض شريف باشا التنازل عن السيادة المصرية على السودان فاستقال وخلفه نوبار باشا على رئاسة الوزارة المصرية فتنازل عن السيادة على السودان لأهله . وعين الجنرال غردون لتسليم البلاد لأهلها (حوالي ١٨ / ١ / ١٨٨٥) وترحيل المصريين جميعهم من البلاد السودانية ، وأصبحت مدينة سواكن تحت إدارة الأميرال وليم هويت ، الذي جعل قيادة الأورط والوظائف المهمة بيد الإنجليز . واحتفظ بالمصريين للوظائف الكتابية والحسابية والترجمة .

فلما تمّ فتح السودان سنة ١٨٩٨ م كان أول محافظ :

(١) قوردن بك Gordon Bey ١٨٩٨ / ١٩٠١ م

(٢) بليفر بك Playfar Bey ١٩٠١ / ١٩٠٢ م

ثم أصبحت سواكن مديريّة سواحل البحر الأحمر وعين لها :

(١) اسبركس باشا Col. W. S. Sparkes ١٩٠٢ / ١٩٠٣ م

(٢) هوارد بك Maj. F. J. I. Howard ١٩٠٣ / ١٩٠٥ م

(٣) هوكر باشا Maj. C. J. Hawker ١٩٠٦ / ١٩٠٨ م

وفي سنة ١٩٠٨ م ذهبت المديرية للاصطياف باركويت . فلما جاء الشتاء رحلت إلى بورتسودان ، وكان كل شيء معداً خصوصاً المكاتب والمواصلات والأشغال البحرية وقشلاقات الحربية وسائر المصالح الحكومية . وأصبحت سواكن إحدى مراكز مديرية البحر الأحمر وأخذ نجمها في الأفول شيئاً فشيئاً [1] وعين لها مأموراً .

(١) ولولا صَبْر تجارها من الوطنيين لما عاشت أكثر من سنتين ، ولكنهم قاوموا الحكومة والشركات حتى سنة ١٩٢٤ م .

ومنذ أن أصبح الحكم الثنائي في السودان لا يمكننا الحصول على المحفوظات السرية التي كانت تستعمل في إدارة هذا القطر . ونترك البحث عنها لمن يأتي بعدنا من الكتاب والمؤرخين . وكانت إدارة المدن السودانية والبادية بيد إخواننا المصريين ، وكنا وإياهم حانقين على عدم معرفتنا للسياسة العليا حتى كانت حوادث سنة ١٩٢٤ م فحيل بيننا وبينهم ، وأصبحنا والإنجليز وجها لوجه لغاية معاهدة سنة ١٩٥٣ م بين المصريين والبريطانيين بخصوص السودان .

الجنسية العثمانية

كانت ممنوحة لكل من تحت السلطة التركية فالعراقي والسوداني والشامي (سوريا ولبنان وفلسطين) واليمني والحجازي والليبي والصومالي والمصري يعيشون تحت علم واحد وهو العلم التركي . ما عدا السودان فإنه كان تحت العلمين (التركي والإنجليزي) . فكنا في سواكن يوم إعلان تركيا الحرب على إنجلترا وفرنسا سنة ١٩١٥ م ، وجيء بجميع أبناء الحكومات السابقة إلى المحافظة لسؤالهم عن جنسياتهم ، فانتمى كل إلى بلاد أجداده واعترف بأن والده مدفون بسواكن ، وهو ولد بها ولا يعرف شيئاً عن أجداده إلا شخصين قال كل منهما ، أنا عثمان نلي[1] ، وهما عبد الرحمن الدروبي وعبد الرحمن زقزوق وكانا قد نيفا على الخمسة والسبعين ولم يرتح لإجابتهما المفتش البريطاني برمبل (Brumble) .

ونزوح هؤلاء المستوطنين من ديارهم المذكورة كان بعد سنة ١٨٦٥ م[2] ، حيث أن محافظ سواكن (ممتاز باشا) تساهل مع كل التجار وحبب إليهم الهجرة من المستعمرات التركية ولم يكتف بالتجار بل أرسل في جلب أصحاب الحرف والصنائع وغيرهم حتى قبائل الرشايدة التي هاجرت بإبلها ومواشيها سامحها الجزية لمدة سنين ، كما جلب شركات البواخر والسانبيك ، وامتد سلطانه حتى سواحل بلاد

(١) نسبه إلى أول سلاطين الأتراك السلطان عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية التي أنشئت على أنقاضها الجمهورية التركية بيد مصطفى كمال أتاترك .

(٢) هو تاريخ انضمام سواكن ومصوع للسودان وزوال الجنسية السواكنية والمصوعية من أهل البلدين .

الصومال وزنجبار. ولما نال السودان استقلاله كان هؤلاء المستوطنون أول من تزاحم لنيل الجنسية السودانية. لأن بعد انتصارات مصطفى كمال على إنجلترا وفرنسا واليونان سنة ١٩٢٣ م تنازل عن السيادة التركية لكل البلاد التي كانت تحت الاستعمار وذلك في مؤتمر لوزان ولو أن الأقطار العربية كانت ترزح تحت نير مستعمر جديد هو الحليفان السابقان، وتم استقلال الجميع من النير الأجنبي.

فالحمد لله أولا وآخراً.

ونحن نسجل لشيوخ سواكن عطفهم على تركيا ويتمنون لها ولحلفائها (ألمانيا والنمسا) الانتصار على روسيا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا. ولم يكن هناك راديو ولذلك اشترك التجار في أخبار (روتر) ويترجمونها ثم يقرأونها في مجالسهم الخاصة كالسمرات والندوات والغرفة الأدبية. وهذا الخلق الحميد يدل على عطفهم الديني لنصرة الإسلام والمسلمين. ولم يكن تعصب القبائل أقل من الحضريين. وقد خافت الحكومة من بأسهم إذ جعلت في سواكن أسلاك شايكة لا يدخلها كل من كره الإنجليز. مع أن الدوريات المصرية كثيرة جداً والفرد منا كان يحمل فانوس (كأنه بسكليت) يظهره ليلاً [1].

وفي تلك الأيام سأل مدير بورتسودان الشيخ محمد إبراهيم ناظر الأمارأر والبشارين عن رأي البجة في حالة اشتباك بين الجيشين: جيش الحكم الثنائي والجيش التركي [2] (إذا غزا بورتسودان بالسنابيك). فأجابه على الفور:

« نحن جميعاً مسلمون وسنقف في صف جيش سلطان المسلمين لأنه خليفة عموم المسلمين ». فقال له ولكن بعض المشايخ أخبروني بأنهم سيقاتلون في صفنا. فأجابه: لا تصدقهم إنهم كاذبون. وبعد شهر اعتقل الناظر المذكور في وادي حلفا لصراحته وصدقه.

(١) وكنت أشبك كرفتتي بدبوس فيه علم تركي، وجئت لطلب فتح ناد بسواكن سنة ١٩١٦ م فما كان من المفتش إلا أن أظهر لي الغطرسة. فلما خرجت بدون إذنه سار خلفي وقال لي إخلع العلم فقلت له أنزلوه من المحافظة أولا وابحثوا عن علم يحل محله (فجيء بعد زمن بالمصري).

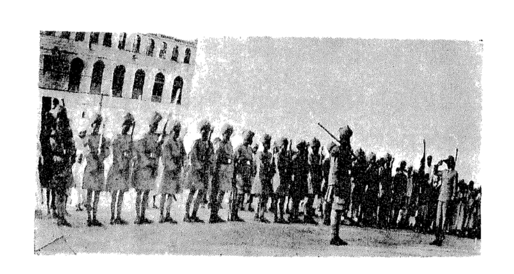
(٢) كان أحد تلاميذ مدرسة سواكن من الأشراف يدعى أنور باشا فجاء المستر يوذلْ إلى أهله وقال لهم سموه أنوار فوافقوه.

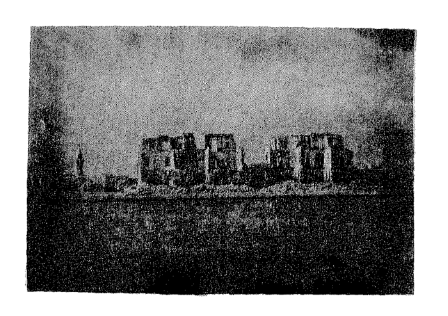
فحيا الله تلك الهمم التي أيدت رايات الإسلام .

جاء البكباشي الماس عبد الله[1] إلى قائد الأورطة المصرية المصري . وطلب منه أن يعتقلوا الإنجليز الموجودين ببورتسودان ولكن القمندان أخبر المدير ولسون باشا ، وفجأة اعتقلوه ثم حكموا عليه بالإعدام . وكان يمثل الكبرياء السوداني في ساحة القتال ويبتسم عند تلاوة حيثيات الحكم وفي سبيل الله والإسلام تلك الروح الطاهرة .



(١) جاء من جدة متنكراً مع التكارير في سنبوك ونزل بمحمد قول .





سواكن ووكالة الشناوي بين الأمس واليوم هل ستعود من جديد ؟


الملاحق

رحلة شاعر بربر إبراهيم ود الفراش من بربر إلى سواكن

بقلم المؤرخ الكبير السيد محمد صالح ضرار - ببورتسودان

في الشعر القومي « الشعبي » كما في الشعر المعرب نجد الرواد والرحالة من الشعراء كثيراً ما يصفون ما يقومون به من رحلات ويسجلون ما يلقون من أهوال في البر أو في البحر .

وهم عندما ينظمون أشعارهم الوصفية هذه لا يفوتهم أن يضمنوها ما يصادفهم من ضروب المحاسن التي تتجلى في الطبيعة أو في البدويات أو في الحضريات . فنحن نراهم يتغزلون فيما حباهن الباريء به من أنواع المفاتن والخلق الرفيع . ولهؤلاء الشعراء منظومات نفيسة كالدرر الغوالي .

ومن شعراء الطليعة في وصف الرحلات الشاعر الذائع الصيت إبراهيم ود الفراش الذي كثيراً ما وصف رحلاته التي يقوم بها وهو على ظهر جمله . ومنها هذه الرحلة من بربر إلى سواكن أي من نهر النيل إلى بحر المالح .

وأرجو أن أتمكن في المستقبل القريب من تقديم مختارات طريفة من شعر ود الفراش إلى قراء مجلة هنا أم درمان الكرام .

قال :

من بربر مرقنا على « العَدِيلا[1] »
وتَبارك الخطوه يا فارق « النَتِيْلا[2]»
جيـت غَاشِـي « أب تَقَرَ[3] »للمويا شِيْلا

---

(١) العديلة الفأل الحسن .

(٢) شرق مدينة بربر . وعلى بعد خمسين ميلاً منها تقريباً . يوجد ضريح لأحد أولياء الله الصالحين . ينادى بـ « فاروق النتيلة » ذلك لأن ضريحه يقع في الحدود التي تفصل مدينة بربر عن منطقة النتيلة . وهي منطقة المراعي الخصبة .

(٣) أب تقر : مورد ماء « بئر ».

المـــبـــيت « أم عُطْفة[1] » قَاسي على مَقيْلا
من أم عُطفه قام بَيَّ « النِفيّلْ[2] »
يطَبِّق في القَرب ، الخَبُو « دَيِّل[3] »
قال لَـيْ الـعَـلُوق لـيـشِـنْ قَـلِـيِّـل
ضَحا يا بَدرى جيت في « الباكْ[4] » مقيّل
من البَاك سَقيتو وكان « يُوَيبُو[5] »
يـكـربـت بَيْ سَـمِـح ماسِـك دِريـبُو
تقول « مُرْناع[6] » يَجدّع في « نَديبو[7] »
المبيت « البَاوَنَيبْ[8] » في « اللا يميب[9] »
من اللايميب سمّح « وَقِيلو[10] »
« وجاتو الـحالة[11] » دُوماتو بـيـــــيلو
قال لَـيْ الـعـلُوق يا سـيدي شِـيـلو
الوعد ماسـكـلو في « كوكُرِيْـب[12] » مقيلو
مـن الـكُوْكُرِيَـبْ الـعـيـش اباهو
يَـقـمُز بَـيَّ فرحان بـي غـناهو
« أبا دَابْ الجبل[13] » حَقبُو « وَقَفَاهُو[14] »

(١) أم عطفة ، محلة .

(٢) النفيل ، وقت النافلة عند الضحى .

(٣) الخب أو الخبب نوع من سير الابل . وديل ، مريح للراكب « ضهره بارد » .

(٤) الباك ، اسم مكان .

(٥) يويبو أو يويب ، كلمة بجاوية معناها عطشان .

(٦) مرناع ، طرى ، لين كالغصن .

(٧) النديب الساق .

(٨) الباونيت مكان .

(٩) اللايميب ، كلمة بجاوية معناها المكان المنخفض من الأرض العليل الهواء .

(١٠) وقيله انطلاقه في السير الحثيث .

(١١) جاته الحالة اشتدت حماسته فاندفع في سيره لا يلوى على شيء .

(١٢) كوكريب مكان .

(١٣) جبل ا باداب معروف .

(١٤) حقبة وقفاه ، تركه وراءه .

وفي « هريت ريْ [1] » ناديت زولاً سقاهو
من هِزْيت خَطيْت فوقو خَطه
يَقمْز بَيْ كمان يا خذْلُو نَطه
« جبل أُوْدُروس » بداوجيْتْ فَاطوفَطه
نزل « تُوبْلاَلْ [2] » هناك فوق المحطة
من تُوبلاَلْ . سلك . خَلُّ الغتاتة
وجاتو « الحاله [3] » « سَقْرَب [4] » بي تلاته .
بديت أسقيهُ أنا وقاصد بو « شَاطة [5] »
عصرُ « هندوب سواكن [6] » بدري باته
من هندوب غَرِب شفت « الصرايا [7] »
بَشِم نَفَساً زكيَّ وريحةِ « الجَدَايا [8] »
بَشوف عَرَباً سلامُن لَىْ « دَبايا [9] »
تَرى البُنيان « أهل دنيا وعَرايا [10] »

---

(١) هاريت رى ، أبار . لاحظ كلمة « ري » العربية التي اقترنت بها هاريب البجاوية .

(٢) توبلال ، محطة بلال ، وهي مكان لحط الرحال . اذ لم تكن لمحطات السكة الحديد وجود في السودان في ذلك العهد الذي عاش فيه الشاعر « ١٨٤٦ ـ ١٨٨٠ » .

(٣) جاته الحالة تحمس .

(٤) سقرب ، شكل . والشكل معروف في سير الدواب عندنا .

(٥) شاطة أو الشاطة ، محطة بها آبار معروفة .

(٦) هندوب ، بلدة مشهورة .

(٧) الصراية ، سراي محافظة سواكن وهي الان من الآثار .

(٨) الجداية الظبية . وهي كناية عن الحسناء .

البجا .

(٩) دبابا من دبايوا وهي تحية .

(١٠) أهل دنيا ، أغنياء . وعرايا أي لا يهتمون بلبس الفاخر من الثياب على الرغم من أموالهم الطائلة .

ملحوظة : كان ود الفراش بحكم عمله في المواصلات البريدية بين الأقاليم وخاصة اقليم البحر الأحمر . يجيد لغة البجا . وان هذه الاجادة قد دعته لأن يضمن بعض أشعاره عبارات بجاوية عديدة . وهو في هذه الحالة أشبه بالكثيرين من أبناء العربية الذين يتكلمون الانجليزية ويدخلون عبارات منها في أحاديثهم العادية .

أسماك البحر الأحمر

نأتي هنا على معلوماتنا عن أسماك البحر الأحمر الذي نجيد معرفته من باب المندب حتى مدينة السويس . فنقول أن أكبر أسماكِ هذا البحر نوع يقال له البتان Bittan . والبال Whale لم يكن لنا به أي معرفة إلا ما قرأناه عنه في كتب المدرسة . حتى كانت سنة ١٩١٣ م حيث بارحت سواكن في أحد السنابيك قاصداً العقيق مع الريس علي داخله . وكانت الريح طيبة شمالية كما يقول البحارة (الجلبة شمال . والمراسي قُدَّام) فلما دنونا من رأس عسيس شاهدنا على بعد ميل بياضاً يطفو فوق البحر ويسير بسرعة لا يقل طوله عن خمسة وعشرين متراً . وأخذ البحارة الصفائح والأخشاب يطبلون ويصرخون . وغير الريس اتجاه السفينة فسألته عن أسباب الحركة فقال لي أما ترى هذا البتَّان . إنه خطر جداً على السفينة وما فيها وهو من صنف القرش وحركتنا هذه الغرض منها أن نزعجه حتى لا يتجه نحونا إذ في ذلك الضرر بأي حركة يعملها . فإذا قبض السكان لا يتركه وإذا ضرب بذيله قلب السفينة . وبعد مضي ساعة من هذا الموقف المضطرب اتجهت نحو الباحة (البحار النائية الغزيرة) فحمدنا الله على السلامة . وهذا النوع من السمك له صيادون مخصوصون في أوربا إذ يطعنونه بالحراب ويقتفون أثره على زوارق سريعة (لنشات) حتى يقضوا عليه فيأوي المطعون إلى ساحل أو جزيرة حتى يموت . وأكثر هذه الأسماك تلتصق بها دودة[1] تمتص منها الدماء حتى تقضي عليها . أما قوتها فهو من البحر إذ تفتح فاها الكبير وهي طافيه فيدخل السمك والطير وكل ما بجوارها في فيها ثم تطبق على ذلك وتسير . وقد أحضرت إحدى سفن الشيخ محمود زهران رأس بتان

---

(١) تلتصق دائما بالأذن وتسمى اللشك Lashak فلا خلاص للبتان أو القرش منها فتراها تضرب رأسها في الأرض في قاع البحر أو الصخر حتى تموت وتطفو جيفتها فوق الماء كالجبل العظيم فيجرونها بالكلاليب والحبال ويشقون بطنها ويستخرجون منها العنبر كالتل العظيم إذ هو غذاؤها . ويتهافت التجار على شرائه لفائدته الصحية .

كبير من حلايب إلى سواكن فكانت جمجمته مربعة (أربعة أمتار في أربعة متراً) فوضعها في مكان خاص يمكن لكل من أراد رؤيتها .

وكبدة البتان تخلط أيضاً بالسندروس Sandarous (ورنيش) ويدهن بها السنبوك من الداخل .

وأصناف الأسماك الخطرة هي القرش (كلب البحر) .

ومن أصناف القرش (أبو منشار) ، وهو في جبهته منشار طويل حاد الجانبين . ويختلف حجمه كالقرش والذي شاهدته طول منشاره متر ونصف والعرض خمسة وعشرون سنتمتراً . ونوع يقال له (أَدْرْ كُلّيلْ) Adarkulleil وهو ذو أذنين عريضتين جدًا وعيناه في أطراف الأذنيين (ومثله أبو منشار) ، ولا يرى من الأمام بل من الجانبين . وتوجد سمكة في البحر خطرة جدًا على أصحاب الهواري [1] يقال لها الديبة فإنها مثل السبع تهجم على الصيادين وتختطفهم من الهوري إلى البحر لتأكلهم وهذا الصنف يوجد شمال بورتسودان .

هذه هي أنواع آفات البحر الخطرة فصغيرها يصيده الناس . أما كبيرها فيصطاد الناس . وهاك ما نشرته مجلة « العالم » صوراً مروعة لبعثة نمساوية سينمائية زارتنا في بورتسودان في سنة ١٩٥١ م . ففي عدد اغسطس سنة ١٩٥٢ م المأزق الخطير بين القرش والبنت شرلوت .

ومن يطلع على هذا الفلم يرى كيف تعيش الأسماك في البحر .

العنبر واليسر

تطلق على الغابات التي تنبت في البحار العميقة . والأولى تكثر في بحر اليمن والمحيط الهندي . والثانية في البحر الأحمر السوداني . وسمك البتان يتغذى من أغصان وأوراق العنبر والذي يتناثر من الورق ثقيل جداً كأقراص الرغيف فيطفو على الماء . وله رائحة كريهة تستمر ساعة ثم تكون زكية وهو علاج الفالج وغيره . أما اليسر فتعمل منه السبح السوداء ولها في الحجاز ورشة كما كان لها بسواكن ورشة يملكها الشيخ عثمان علي عبيد وقفلت بعد إعلان حرب سنة ١٩١٤ م .

---

(١) الزوارق الصغيرة التي لا تحمل أكثر من ثلاثة أشخاص .

الهدندوة وسواكن

قال محمد بك موسى (ناظر الهدندوة السابق) إن العصابات انتشرت في أنحاء البجة بعد فتح كسلا سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤١ م . فانتدب الحكمدار (أحمد باشا أبو ودان) البكباشي إلياس أفندي قومندان الجهادية إلى مطاردة هذه العصابات . واصطحب معه سليمان بك علي أبي طالب وكيل النظارة بتوكر وخور بركة . وسنفصل ذلك في محله . وقرر أخيراً أن يغزو سواكن . فقال له سليمان بك إنها مدينة تابعة لسلطان العثمانيين . ويقيم فيها نائبه من قبل والي الحجاز . فأجابه إلياس أفندي أنا تركي والسلطان تركي والسودان كله محكوم بأتراك . فماذا يمنعنا من ضمها إلى السودان وكسلا ونأخذ من أهلها الجزية والضريبة . وسافر من توكر وحاصر سواكن بجنوده فدخل الأهالي جزيرة سواكن التي يفصلها البحر عن القيف وباديته . فمنع الأهالي من ورود ماء الشرب بالشاطة . ولولا أن البحر عاقه من تتبعهم لاستولى عليها . فلما اشتدت وطأة الحصار على الأهالي خرج لمقابلته الأمير عيسى أرتيقة . والشيخ عمر محمد إيلاي الهنسيلابي . وكان صديقاً لسليمان بك وسر تجار بندر سواكن . فقال لهم إلياس يجب أن تنضموا للسودان وتكونوا ضمن نظارة الهدندوة . واتركوكم من تبعية الحجاز والسلطان . فإننا جميعنا أتراك . والحكمدار تركي من قبل السلطان . فرد عليه الامير عيسى بأننا دائما ندفع إيرادات الواردات والصادرات لمندوب الوالي والمحافظ . ولا يمكننا الدفع في جهتين . فقال لهم أنا لا أعود منكم خالي الوفاض فعودوا إلى أهلكم وتباحثوا في مطالبي [1] . فاختلى سليمان بعمر محمد واتفقا على أن يشتعين عمر بهدايا من الأقمشة والبن والسكر والأرز والعجوة للقومندان والجنود وأن توضع جميعها أمام الضابطية (نقطة البوليس بالقيف) . فأحضرت الهدايا وحمل البكباشي حصته وعاد إلى كسلا . أما سليمان بك فتخلف في اللكويبيب بعد أن أساء معاملة أهل توكر . كما شتت شمل أهل بادية القنوب .

(١) هذه الرشاوى دائماً تفسد الحكام والأحكام ، وتندر النزاهة .

المحتوى

الصفحة

الصفحة

صورة الغلاف : سواكن ١٨٨٥ نقلا عن جوسلين